لوران موفينييه

كانوا بَشَراً فَحَسْبْ

رواية

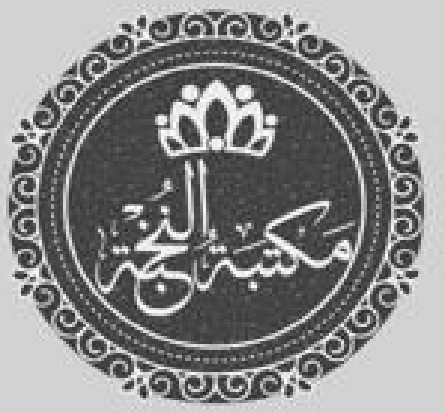

ترجمة: سيلفانا الخوري

لوران موفينييه

كانوا بَشَراً فَحَسْبُ

رواية

ترجمة: سيلفانا الخوري

مراجعة: كاظم جهاد

© دائرة الثقافة والسياحة - أبوظبي، مشروع «كلمة»

بيانات الفهرسة أثناء النشر

PQ2673.A836 D47125 2020

-Mauvignier, Laurent, 1967

كانوا بشراً فحسب: رواية / تأليف لوران موفينييه؛ ترجمة سيلفانا الخوري؛ مراجعة كاظم جهاد. - ط. 1. - أبوظبي: دائرة الثقافة والسياحة، كلمة، 2020.

258 ص.؛ 21 سم.

ترجمة كتاب: Des hommes تدمك: 978-9948-35-727-8

1- القصص الفرنسية- مترجمات إلى العربية- القرن 21. 2- القصص العربية- مترجمات من الفرنسية- القرن 21. أ- خوري، سيلفانا. ب- جهاد، كاظم. ج- العنوان.

يتضمّن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسيّ:
Laurent Mauvignier
Des hommes
Les Éditions de Minuit, Paris, 2009 ©

www.kalima.ae

ص.ب: 94000 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، Info@kalima.ae هاتف: 579 5995 2 971+

إنّ دائرة الثقافة والسياحة - مشروع «كلمة» غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن رأي الدائرة.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لمشروع «كلمة»

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأيّ وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأيّ وسيلة نشر أخرى بما فيه حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطيّ من الناشر.

كانوا بَشَراً فَحَسْبُ

رواية

تقديم

ظلّت حرب التّحرير الجزائريّة تشكّل حتّى تاريخ صدور هذه الرواية حدثاً مصموتاً عنه في الأدب الفرنسيّ. صحيحٌ أنّه عالجتها عدّة أعمال سرديّة غير لافتة للنّظر حقّاً، لكن لا يمكن القول إنّها نالت في هذا الأدب الاهتمام الذي تستحقّه تجربة استعماريّة دامت أكثر من قرن واختتمت بحربٍ شعواء عادت للجزائر بلقبِ بلد المليون شهيد. هكذا ظلّت هذه الحرب حاضرة في الدراسات التاريخية والسياسية لا تتعدّاها إلى أعمال تستنطق المخيال الجماعيّ وتسكنه. وحتّى في هذه الميادين ظلّت الحرب محاطة بإبهامات عديدة. اعتبرها الساسة في البداية حرباً أهليّة، مواصلين الاعتقاد بأطروحة «الجزائر الفرنسيّة»، فكأنّ فرنسيّين رفعوا فيها السلاح بوجه فرنسيّين آخرين. ومنذ عهدٍ قريبٍ فقط صار يُشار إليها باعتبارها حرباً خاضها الجزائريّون ضدّ نظامٍ وحضورٍ استعماريّين.

لا شكّ أنّ صمت الأدباء والروائيّين بخاصّة عن هذه الحرب يظلّ أكثر مدعاةً للاستغراب إن نحن تذكّرنا أنّ الأدب هو مرآة الواقع، تعكسه ثمّ تعمل على تفكيكه ومساءلته، وكذلك إن نحن تذكّرنا ما ميّز الأدب دوماً من اهتمامٍ بالتاريخ ومن سعيٍ دائم إلى تعرية كلّ التلاعبات المسلّطة على صيرورة البشر. فكأنّ «المؤسّسة» الأدبيّة الفرنسيّة قد أحجمت بكاملها عن معالجة هذه الحرب، هي التي أطنبت ولا تزال تطنب في الكتابة عن الحربين العالميّتين وعن موضوعاتٍ وتجارب أخرى مماثلة. لا شكّ أنّ حجم التناقضات والملابسات في هذه الحرب والنهاية التي شهدتها يقفان وراء هذا الصّمت الملغز. وهذه الرواية تساهم في تسليط ضوءٍ باهر على هذه الملابسات. والأهّم أنّها تفعل ذلك دون أن تسقط في لغة الوثائق والتسجيل، لا بل حتّى دون أن تندرج في فئة الروايات التاريخية. فهي في الحقيقة اختراق سرديّ وشعريّ لهذه المأساة العريضة يظلّ التاريخ والواقع الذي عيش من قبَل كلّ الأطراف حاضرَين فيه إطاراً وسياقاً فحسب.

ولد لوران موفينييه Laurent Mauvignier في مدينة تور Tours الفرنسيّة في 1967، وحصـل في 1991 على شهادة تخصّص في الفنـون التشـكيليّة. صدرت روايته الأولى «بعيداً عنهم» *Loin d’eux* في 1999 في منشورات مينوي التي صارت الناشر الرئيس لأعماله. طُبِعت له حتّى الآن ثلاث عشرة رواية نال عنها عدّة جوائز مرموقة، من أهمّها روايته «في الحشد» *Dans la foule* ا(2006) التي استوحى فيها مأساة ملعب هيسيل Heysel لكرة القدم في بلجيكا، حيث

انهارت في 1985 تحت ضغط المتفّرجين عدّة حواجز حديدية وجدار، ممّا تسبّب بوقوع تسعة وثلاثين قتيلاً وأربعمائة وأربعة وخمسين جريحاً، وروايته المترجمة هنا. له كذلك ثلاث مسرحّيات ودراسة نقديّة ورحلة إلى نيودلهي وكتاب في التصوير الفوتوغرافيّ وكتاب حوارات. تميّز بكتابة مكثّفة تعنى بالصّور وبالسعي إلى التقاط الصوت الداخليّ للشخوص، وقد جهر غير مرّة بقربه من كتابات الأمريكيّ الشماليّ وليام فولكنر والنمساويّ توماس برنهارد.

في الرواية التي بين أيدينا اضطلع الكاتب بأكثر من مسعى تجديديّ: فمن جهة، أعرب عن شجاعة متناهية لكسر جدار الصمت المفروض في فرنسا على هذه الحرب وعلى هذا التاريخ الاستعماريّ ووضع فيهما عملاً كبيراً رأى فيه النقّاد فور صدوره أحد أهمّ الروايات الفرنسيّة في موضوع الحرب قاطبةً، ونال عنه جائزة الكتبيّين أو أصحاب المكتبات Le Prix des libraires، وهي من أهمّ الجوائز الأدبيّة الفرنسيّة. ومن جهة ثانية، أدخل على فنّ السرد نفسه تجديدات معتبرة لنا إليها عودة.

إنّ الصمت عن هذا الحدث الكبير في الروايات الفرنسية لَيزداد غرابة بالمقارنة بالرواية الأمريكية مثلاً، حيث كرّس عددٌ لا بأس به من كبار الكتّاب جزءاً معتبراً من أعمالهم الإبداعية لمعالجة حروبٍ خاضتها أمريكا عن غير حقّ، في فيتنام مثلاً. والحال أنّ موفينييه قد أعلن في أكثر من محاورة عن إعجابه بالأدب الأمريكيّ الشماليّ وخصوصاً بالسينما الأمريكية. هكذا، في حوار أجرته معه نيلّي كابريَيليان Nelly Kaprièlian ونُشرَ في مجلّة عشّاق موسيقى الرّوك *Les Inrockuptibles* في الثامن من سبتمبر 2009، بُعيد صدور هذه الرواية، صرّح الكاتب، متحدّثاً عن معالجة حرب الجزائر بالذات وعن روايته هذه: «كلّما تكلّمنا في فرنسا عن الحرب في الأدب انصبّ الكلام على حرب 1914 - 1918 أو على الحرب العالمية الثانية. لقد كُتبت عن حرب الجزائر روايات جيّدة، قليلة ومتباعدة، ولكنّ المشكلة في اعتقادي هي أنّ مؤلّفيها ظلّوا مدفوعين بهاجس تربويّ وحاولوا الإبانة عن العلاقات التاريخية أو الكشف عمّن كانوا هم الأخيار ومن كانوا هم الأشرار [في هذه الحرب]. هذا جهدٌ محمود، ولكن إن نحن عاينّا الشاكلة التي بها عالج السينمائيّون الأمريكان حرب فيتنام، كما في فيلم مايكل تشيمينو Michael Cimino «صائد الغزلان» *The Deer Hunter* [الذي وُزّع في فرنسا تحت عنوان «رحلة إلى أقاصي الجحيم» *Voyage au bout de l’enfer*] لاحظنا أنّهم يركّزون أغلب الأحيان على تصوير مجابهة مباشرة للعنف أكثر ممّا على تاريخ الحرب. من ناحيتي، لم يكن هدفي أن أضع رواية في حرب الجزائر للإبانة عن الأخيار والأشرار وإنّما لتصوير البشر في سياقٍ أو موقفٍ معيّن».

معلومٌ أنّ ثمّة وراء الكثير من الأعمال الأدبيّة والفنيّة الكبرى جرحاً شخصيّاً غالباً ما يشكّل محرّكاً للكتابة ونابضاً للإبداع. الأمر ينطبق على موفيننيه نفسه، لا في هذه الرواية فحسب بل في كلّ نصوصه المنشورة حتّى الآن، والتي تصوّر دوماً حالة حصار طاغية يتعرّض إليها أفرادٌ أو مجموعات. ففي الحوار نفسه الذي استشهدنا به أعلاه يعْلمنا بأنّ أباه «قد خاض حرب الجزائر وعاد منها بصورٍ فوتوغرافية كثيرة... صور لا نرى عليها شيئاً [ذا دلالة على الحرب]، وهذا ما كان يبلبلني كثيراً. ما كان أبي يتكلّم عن الحرب، بل إنّ أمّي هي التي روت لي ما عاشه هناك، أحداث مرعبة، مثلاً كيف رأى ذات يوم امرأة جزائريّة حاملاً يدوس عليها جنودٌ فرنسيّون بالأقدام».

يمكن القول إنّ صمت الوالد هذا والأحداث المرعبة التي تضطلع الوالدة بروايتها بسـردها على الابن تشكّل منطلـق هذه الروايـة، بما فيه الصور الفوتوغرافية التي تتداولها الشخوص العائدة من الجزائر والتي تستحضر كلّ شيءٍ إلّا الحرب. أكثر من هذا، فإنّ الطقس الذي تنطلق منه الرواية إنّما يجد أصله الواقعيّ في تاريخ الكاتب العائليّ. فلقد صرّح موفيننيه في محاورته نفسها: «في كلّ عام، كانت تُقام ولائم يجتمع فيها قدامى المحاربين الفرنسيّين في أفريقيا الشمالية، سوى أنّنا ما كنّا لنعلم ما كانته هذه الحرب لأنّه لا أحد كان يقول عنها شيئاً... وعندما أتحدّث مع أبناء جيلي نلاحظ أنّ ثمّة في عائلة كلّ منّا فرداً خاض حرب الجزائر، ولكنّه لا ينبس عنها ببنت شفة».

هذه العلاقة بالصمت العائليّ عن الحرب تسلّط أضواءً باهرة على الصمت المدعّم حولها في الأدب الفرنسيّ. فالواضح أنّ هذا الصّمت لا يصدر عن اعتدادٍ قوميّ، كما لو كان الأدباء الفرنسيّون قد اجتمعوا وأجمعوا على السكوت عن هذه المغامرة الاستعمارية وهذه الهزيمة الوطنية الممضّة، بقدر ما هو نتيجة صدمة أو رضّة عميقة وشعورٍ بالزّلّة لم يقم الفرنسيون، مواطنين وأدباء، بمساءلته مساءلةً كافية حتّى عهدٍ قريب. وهذه الرواية تضطلع بجزءٍ كبير من هذه المساءلة وما ينجم عنها من تعزيمٍ ضروريّ، إذ تأتي بكامل الشجاعة ووضوح البصيرة لتضع النقاط على الحروف وتستغور المعيش الشعوريّ لهذه الحرب بدل الانحباس في المعالجة التوثيقية أو التاريخية أو السياسية المحض كما هو ملحوظ في جلّ ما كتب عنها حتّى الآن. ولئن أحسّ موفيننيه بضرورة هذه المعالجة الشعوريّة، معالجة المعيش النفسيّ اليوميّ والشامل الذي يعاود الانبثاق بعد أربعين سنة من تاريخ عيشه في الواقع، فلأنّه أدرك القوّة القاتلة للصمت. صمت كان بحاجة إلى استنطاقٍ ذي أثرٍ تطهيريّ، أي إلى من يقوده إلى ناصية الكلام. وبهذا كلّه اضطلعت هذه الرواية خير اضطلاع. فالصمت أرّقَ وما برح يؤرّق أجيالاً عديدة، وقد يكون هو الذي قتل والده نفسه. ففي المحاورة التي وجدنا فيها خيطاً يضيء على هذه التجربة

وعلى قراءتنا لهذه الرواية يُطلعنا الكاتب على الجرح الشخصيّ الفاغر الذي يقيم وراء كتابته لها ووراء كتابة مجمل أعماله. صرّح موفينييه: «لقد انتحر والدي وأنا في مقتبل الشباب. وقد لزمتني أعوامٍ حتّى أقول لنفسي إنّه ربما كانت مشاركته في هذه الحرب [بصفته مجنّداً فرنسيّاً] وما رآه هناك قد ساهما في دفعه إلى الانتحار. أمضى هناك ثمانية وعشرين شهراً، وما هذا بالأمد الطويل. ولقد سمعتُ قصص أشخاص أصيبوا [إثرَ هذه التجربة] بالجنون. قد يشبه هذا نوعاً من موطئ مشترك ولكنّني بحثتُ عن وسيلة فنّية للتعبير عنه».

وعن بواعث الصمت عن الحرب أو حصّة اللّامقول الكبيرة فيها، هاكم قبسة أخيرة شديدة الدلالة من المحاورة ذاتها، يذهب فيها موفينييه إلى حدّ مقارنة الحضور الفرنسي في الجزائر باحتلال الألمان لشطرٍ من بلاده فرنسا: «ربّما يأتي ذلك من كوننا، نحن الفرنسيّين، ربّما قلنا لأنفسنا إنّنا نحن الألمان في حقيقة الأمر... لقد استخدم محاربونا [في الجزائر] النابالم ومارسوا التعذيب... أي، بإيجاز، شعورنا بأننا كنّا في المعسكر السيّئ. ثم إنّ هذه كانت حرباً بلا غاية، حرباً معقّدة بشدّة... حرباً خاسرة، ولأنّ فرنسا خسرت في القرن العشرين حروباً عديدة فقد كانت هذه الحرب هي الحرب الفائضة عن الحدّ، حربنا الصغيرة بالمقارنة مع الحرب العالمية الثانية، الحرب التي أشعرتنا بالعار. وأنا أعتقد أنّ الشعور بالعار هو الأقوى».

حتّى يكتب رواية عادلة وعميقة في آنٍ معاً كان على الكاتب أن يتجاوز فخاخ الانحياز الإيديولوجيّ أو القوميّ ويهَب عمله أعلى انفتاحٍ إنسانيّ ممكن. في هذه الحرب كان الجزائريّون يمارسون لتحرير بلادهم أشدّ أنواع العنف، فيردّ عليهم الفرنسيّون بعنفٍ مضاعف يرى قارئ هذه الرواية أمثلةً عليه عديدة. والفخّ الذي عمل الكاتب بتصريحه هو نفسه على تجاوزه -وسيرى القارئ أنّه نجح في ذلك تماماً- هو تصوير عنف الفرنسيّين وفظاظتهم كما لو كانا ردّاً منطقيّاً أو مشروعاً على عنف الأهليّين الجزائريّين. بل بالعكس يسلّط الكاتب أضواءً باهرة على كلا المعسكرين ويصوّر آلام الجزائريّين وما تكبّدوه من مهانات، وفي الأوان ذاته مأساة الجنود الفرنسيّين الشبّان من جيل أبيه، المدفوع بهم من قبل دولتهم الاستعمارية إلى حرب خاسرة سلفاً وغير عادلة وبالتالي غير مبرّرة ولا مفهومة ولا ضروريّة. لا يطلق موفينييه أحكاماً أخلاقية ولا يحاكم أحداً، وهو أبعد من أن يسقط في لغة الشعارات والوعظ، بل يعاين الواقع الحيّ بعين الراصد المُشفق والمتألّم، ويستغوِر دواخل الشخوص لا في استبطانٍ بسيكولوجيّ تجاوزته الرواية المعاصرة بل من خلال معاينة الأفعال والإيماءات والحركات في أقصى كتابة موضوعيّة أو ماديّة ممكنة. وحتّى يكشف بالعمق الكافي عن دوافع الشخوص ومعضلتها النفسية والوجودية

عمدَ، كما في كلّ نصوصه، إلى كتابة يمكن أن ننعتها بالشفاهيّة، لا بمعنى كتابة تتبنّى لغة المخاطبة اليوميّة بل بمعنى كتابة تعكس الكلام الشخصيّ وإيقاعه الفوريّ المتقطّع والمتلكّئ، كما في مخاطبة المرء نفسَه، أي في انعقاد خطابه الداخليّ والانسياب الحارّ والجارف لصوته الحميم، صوت ما قبل الوعي أو صوت الضمير.

بنى موفينييه عمله هذا بناءً سمفونيّاً فجعله يستغرق أربعاً وعشرين ساعة تتفتّق فيها الرواية عن فصولٍ أليمة، بعيدة العهد وقريبتـه. في الفصلين الأوّلين المعنونين «العصر» و«المساء» ركّز على حاضر السرد، وفي نهاية الفصل الثاني وعلى امتداد الفصل الثالث المعنون «اللّيل» عاد بنا إلى تجربة الحرب قبل أربعين سنة. ثمّ في الفصل الرابع والأخير المعنون «الصباح» عاد بنا إلى حاضر الحكاية. سردَ في أوّل هذين الزمنين مأساة برنار الذي يبدو وكأنّه همّش نفسه باختيارٍ غير واعٍ قبل أن يأتي الآخرون ليزيدوه تهميشاً. سمّوه «شعلة الحطب» لأنّه تنبعث من جسمه وثيابه رائحة الحطب المحروق، وفي هذا التهميش للاسم الشخصيّ تحت اللّقب المفروض عليه فرضاً نرى علامةً أولى على طمسٍ للهوية الشخصية وتلاعبٍ بالصورة الذاتية. كان في مقتبل شبابه قد ربح باليانصيب مبلغاً من المال استحوذت عليه والدته لصغر سنّه. ويبدو في حاضر الحكاية أنّه استعاد في كبره ما بقي منه خلسةً، وعندما اشترى لإحدى شقيقاته حليةً مرتفعة الثمن بمناسبة عيد ميلادها اتّهموه بسرقة مال والدته المتوفّاة. كان قد عاد إلى بلدته الصغيرة بعد خوضه في باريس في أعقاب الحرب تجارب يبدو أنّها كانت عاثرة يسدل عليها ستار الصمت، وسقط في السّكْر المستمرّ. لكنّ الفضيحة التي أثاروها حول مسألة الهديّة الباذخة لأخته وانهياره المعنويّ المتسارع جعلاه يذهب ليعتدي على عائلة جزائرية مهاجرة تقيم في الجوار. ووسطَ الأحكام المتضاربة التي يطلقها عليه محيطه الاجتماعيّ في أثر هذا الحادث ينتبه السّارد الرئيس في الرواية، واسمه رابو (وهو ابن عمّه الذي شاركه مغامرة حرب الجزائر)، ينتبه في ومضةٍ باهرة من الوعي إلى أنّ هذا الانحدار كلّه كان مبعثه تلك الحرب وما شاهدوه هما ورفاقهما فيها من فظائع تجد ذروتها في مَشهد رهيب كانا هما غائبين عنه ونترك للقارئ أن يكتشفه بكامل تفاصيله. عن وثبة الذاكرة هذه يقول السّارد المنخرط في الأحداث: «يا حضرة رئيس البلدية، أتذكُر المرّة الأولى التي رأيتَ فيها عربيّاً؟ أتذكُر يا سيّدي؟ أتذكُر؟ هل يذكُر واحدٌ؟ أيّ واحد؟ أثمّة من يذكر هذا؟

«كنتُ لا أزال أسمع هذه العبارة، عندما بدأتُ أشعر بجزءٍ منّي ينهار ويقع ويتهشّم. جزء خفيّ ومكمّم، أو حتّى نائم لا أدري، وقد استيقظ هذه المرّة كما لو بوثبة، وبعينين مفتوحتين على سعتهما وجبينٍ مهموم ورأس ثقيل.

استيقظت كومة العظام القديمة النائمة في رأسي عندما تساءلتُ لماذا قفزت هذه الجملة في صدري هذه القفزة - ذلك أنّني شعرتُ بحركة القلب هذه كما لو كانت قلق انتظار، انتظار موعدٍ آخَر، لحظة شبيهة بنهار امتحان، والغضب كذلك، والفضيحة في داخلي حيال رغبتي في إسكاتهم، الشرطيّان ومينار بتوصيفاته والتفاصيل، وأنا أضيف إليها عندما سمعتُ هذه الكلمات، عندما اخترعتُها، عندما استدعيتُ الوجوه والمخاوف والصّور، وكلّ ما قاله، وهذه الحركة أيضاً، هذا الانقلاب المفاجئ والسبب الذي جعلني أرغب في الدفاع عن «شعلة الحطب» بتوجيه هذه الكلمات لرئيس البلدية: أتذكُر يا سيّدي؟»

على هذا الانبعاث الجارف للذاكرة التاريخية والفردية يؤسّس السّارد كامل استعادة التجربة ويزجّ فيها جرحه الخاصّ (هو الذي ينهي سرده الطويل بوصفِ ما يمكن أن يكون انتحاراً، إذ يدع سيّارته تنزلق في خندق مجلّد دون أن يقاوم أو يسعى لتقويم مسارها)، وجرح جيله كلّه، بعدما كان قد أوهمنا بأنّه لا يفعل سوى أن يرصد معضلة صديقه وابن عمّه ورفيقه في الحرب، «شعلة الحطب» أو برنار.

هكذا تتمثّل اللّقية أو «ضربة» التجديد الفذّة في هذه الرواية في معالجتها استمرارية الجراح والمآسي الكبرى بعد وقوع فصولها الأولى أو الفعليّة بعقودٍ عديدة. يرينا الكاتب اضطراب الشخوص في معيشهم الفرنسيّ الراهن فينطلق في رحلة بحثٍ حاسمة عن الأصول البعيدة والمتواصلة الأثر لهذا الاضطراب. وبرجوعه القهقرى إلى جرح الآباء المجنّدين في حرب الجزائر يضيء على عجز أبناء جيله هو نفسه عن فهم صمت الآباء، وعلى الآثار المدوّية عليهم هم أنفسهم، المتأتّية من هذا الصّمت.

محرّر السلسلة

كاظم جهاد

وجُرحكَ، أين هو؟

أتساءل أين يكمن، أين يختبئ الجرح السّرّي الذي يلوذ به كلّ واحدٍ عندما يُجرَح وتُمسّ كبرياؤه. هذا الجرح - الذي يصير باطن الشخص وسريرته - سيُعمِل فيه الواحد نفخاً وملئاً. كلّ امرئٍ يعرف كيف يصل إلى جرحه ويتّحد به حتّى يصير هو الجرح نفسه، شيئاً ما أشبه بقلبٍ سرّيّ متألّم.

جان جينيه، **البهلوان**

Jean Genet, *Le Funambule*

العصْر

كانت الساعة قد تخطّت الواحدة إلّا ربعاً بعد الظّهر. فوجئ بأنّ كلّ الأنظار لم تُصوَّب إليه وأنّهم لم يستغربوا أنّه هو أيضاً تكبّد عناء الاهتمام بهندامه، ولبس سترة وبنطالاً متناسقين، وقميصاً أبيض وربطة عنق من الجلد الاصطناعيّ، من ذلك النوع الذي كان يُصنع قبل عشرين سنة ولا يزال بالإمكان العثور عليه في مخازن التّنزيلات.

سيقولون اليوم إنّ رائحته ليست كريهة جدّاً. ولن يتهكّموا من أنّه أتى ليأكل مجّاناً، ولن يتظاهر هو هذه المرّة بأنّه وصل فجأةً. سيَدعونه «شعلة الحطب» كما باتوا يفعلون منذ سنوات، وسيتذكّر بعضهم أنّه، خلف الوسخ ورائحة النبيذ، وخلف مظهره المُهمَل وهو في الثّالثة والسّتين من العُمر، يمتلك اسماً حقيقيّاً.

سيتذكّرون أنّه، خلف «شعلة الحطب»، يمكن العثور على برنار. سيسمعون شقيقته تناديه باسمه: برنار، ويتذكّرون أنّه لم يكن دوماً هذا الشخص الذي يتعيّش على الآخرين. سيراقبونه مواربةً حتّى لا يثيروا ارتيابـه. سيَرونه بشـعره نفسه، الأصفر والرمـاديّ بفعل التبغ ودخـان الحطب، وشاربيه الغليظين المتّسخين، والثآليل الشّديدة السّواد على أنفه، هذا الأنف المُجدّر البصَليّ المُستدير كتفّاحة. ثمّ سيرون عينيه الزّرقاوين وبشرته الورديّة والمنتفخة تحت العينين. جسمه العريض الصّلب. وهذه المرّة، إذا ما انتبهوا فسيلاحظون أثر المشط على شعره المسرّح إلى الخلف ويخمّنون كلّ الجهد الذي بذله ليبدو نظيفاً. حتّى إنّهم قد يقولون إنّه لم يشرب وإنّه لا بأس بمظهره.

رأيناه يركن درّاجته النّارية الصغيرة أمام حانة باتو مثل كلّ يوم، ثمّ يعرّج عليها بسرعة قبل أن يعبر الشّارع ليأتي إلى هنا، إلى صالة الحفلات للقاء شقيقته سولانج بمناسبة احتفالها معنا جميعاً، نحن أولاد أعمامها وأشقّاءها وأصدقاءها، ببلوغها سنّ السّتين وإحالتها على التّقاعد.

ليس في هذه اللّحظة بل بعد ذلك بالتّأكيد، بعد أن يكون انتهى كلّ شيء وتركْنا خلفنا نهار السّبت ذاك وصالة الحفلات خالية إلّا من روائح التّبغ البارد والنّبيذ وأغطية الموائد الورقيّة، الممزّقة والمتّسخة، وبعد أن يكون الثّلج في الخارج، على مساحة المدخل الإسمنتيّة، قد غطّى آثار أقدام كلّ أولئك الضّيوف الذين عادوا إلى بيوتهم ليستعيدوا مذهولين ما حصل ذلك اليوم؛ إذ ذاك فقط، سأستعيد أنا أيضاً كلّ مشهد من مشاهد ذلك اليوم مندهشاً من انطباعها كلّها في ذاكرتي بمثل هذا الوضوح.

سأتذكّر أنّه في لحظة تقديم الهدايا نظرتُ إليه، وكان واقفاً على مسافة قليلة من الجمع يتلمّس شيئاً ما في جيب سترته. سترة لم أرَه يوماً يرتديها وإن بدت لي مألوفة. أعني أنّني لم أره يوماً بسترةٍ كهذه من جلد الأيّل، مبطّنة بفرو نلمحه عند مستوى الياقة. كانت عتيقة، وتسنّى لي الوقت لأفكّر أنّها كانت ذات يوم تعود لأحد إخوتهما، هو وسولانج، وأنّ هذا الأخ أعطاه حزمة ملابس قديمة مقابل خدمةٍ صغيرة أو كومة حطب يُدخلها الى المرآب، أو حتّى بلا أيّ سبب سوى أن يَهَب أخاه ثياباً لم يعد يريدها.

قلتُ ذلك في نفسي وأنا أنظر إليه لأنّ يدَه اليمنى كانت لا تزال قابعة في جيبه وتبدو كما لو كانت تُمسك أو تحرّك شيئاً ما، ربّما علبة سجائر، لكن لم يكن الأمر كذلك قطعاً، فقد رأيتُه يُخرج علبة سجائره من جيب بنطاله الخلفيّ ويُعيدها إليه.

كان الناس قد بدأوا يتحدّثون بأصوات مرتفعة ويضحكون، ضحك ينتقل من فمٍ إلى آخَر على وقع أصوات سِدادات الشامبانيا وقرع الكؤوس. وكان قد مرَّ أمام سولانج عشرات وعشرات من الأصدقاء والمعارف والوجوه المألوفة كتلك التي تُرى في الصّور الفوتوغرافية المعروضة في خزانة صالونها: هيّا يا سولانج يجب أن تشربي. [1]

وشربت سولانج.

هيّا يا سولانج.

وابتسمت سولانج وتكلّمت، وضحكت بدورها، ثمّ كادوا ينسون وجودها وتركوها تتنقّل من مجموعةٍ إلى أُخرى. ذلك أنّ مجموعات كانت قد تشكّلت بحسب التّوافقات والمعارف، فكان بعضهم ينتقل بين الواحدة والأخرى وبعضهم الآخر يتلافى بالعكس هذه أو تلك.

لا أعرف هل تفادت الذّهاب صوبه عارفةً أنّه لم يكن بإمكانها التهرّب من دعوته، وأنا أعلم إلى أيّ حدّ كانت تخشاها، أكثر حتّى من خشيتها حضور «البومة» وزوجها، وحضور جان جاك أو ميشلين أو إيفلين وبعض الآخرين. ولكنّ حضوره، هو «شعلة الحطب»، برنار، كان أكثر ما تخشاه. ومراراً لمستُ ارتباكها بسبب شعورها بالذنب عندما كانت تختبئ في مطبخها لكي تتفادى استقباله. كان عندما ينزل ناحية لاباسيه، وبعد أن يتوقّف طويلاً في حانة باتو، يصل أمام بوّابة بيتها صارخاً إنّه يحبّها، هي أخته، وإنّه يريد أن يراها ويكلّمها، وإنّ من الضروريّ أن تكلّمه، ضروريّ، ضروريّ كان يقول، ويظلّ يصرخ ويتحوّل صراخه أحياناً إلى وعيدٍ عندما لا يأتي أحد ولا يُسمَع من كلّ المنازل الجديدة المحيطة إلّا صدى الفراغ والصّمت. صمتٌ ومنازل فارغة أشبه بالكهوف، كان صوته يبدو وكأنّه يضيع فيها ويتضاءل إلى أن يُمحى ويستسلم. فيظلّ يهمهم ويغمغم طوال الطريق باتّجاه درّاجته النارية تحمله إلى منزله أو توصله إلى حانة باتو حيث يقوم بإغراق خيبته من عودته خاليَ الوفاض، إغراقها في كأس أخيرة، قبل أن يُكمل الطّريق، إلى أن تنجح باتو في تهدئته شارحةً له أنّ سولانج لا بدّ أنّها في العمل في تلك الأثناء، فالنّاس مضطرّون في النّهاية إلى العمل، كما أنّها امرأة وحيدة مع أولادها، أنت تفهم.

وكان في النهاية يُذعن ويقول: نعم، بلا شكّ، إنّني أفهم، فأختي وحيدة، هي وأطفالها. ثمّ يطأطئ رأسه ويحمرّ خجلاً أمام كلّ هذا الظّلم، وكلّ هذه الخسارة، ويقول لمن يريد أن يسمعه من الزبائن، أو بالأحرى لأولئك الذين لم يكن لديهم شيء أفضل ليفعلوه من البقاء هناك وسماعه دون أن يتقصّدوا

الإصغاء إليه، بالرغم من صوت جان مارك الذي كان يؤنّبه بلطف، أو صوت باتو الذي كان يقول له: نعم يا «شعلة الحطب»، نعلم هذا، نعم «شعلة الحطب»، أختك، نعم، صحيح يا «شعلة الحطب».

أمّا هو، فكان عند خروجه يبصق قرب الباب، في المكان نفسه دوماً، ومترنّحاً دوماً وعلى وشك أن يسقط ولا يسقط أبداً، صلباً حتّى في ضعفه وفي إثارته للعطف والشّفقة ومائتاً في صميم كيانه.

لكنَّ تَضجُّره، طريقته في الابتسام. نوعٌ من العدائيّة في حضوره أو بالأحرى الحذر كما كانت عليه حاله دوماً، أو حتّى نوعٌ من التّعالي.

هذا ما لطالما قلتُه لنفسي.

وحتّى عندما أراه على هذه الحال، مجلوّاً كما تُجلى الآنية أكثر منه نظيفاً، إذ تشي نظافته بالجهد والتّعب والاستبسال الذي بذله ليكون حسن الهندام.

وفي ذلك العصر تأمّلتُه مطوّلاً. كانت عيناي، لسببٍ أجهله، تعودان إليه دوماً. أمّا هو فلم يكن يراني. كنتُ أنظر إليه يتبادل بضع كلمات مع جان مارسيل أو مع فرنسيس ويبتسم للأطفال دون أن يعرفهم.

ثمّ، فجأةً، اتّخذ قراره.

رأيتُه يستقيم، ينتصب تماماً ويبحث بنظراته بشكل مفضوحٍ هذه المرّة، لا خفيةً كما ظلّ يفعل حتّى هذه اللّحظة، فيُطيل عنقه ويفتح عينَيه على سعتهما. تسنّى لي الوقت لأراه يُخرج من جيبه شيئاً كان أصغر من أن أتمكّن من تمييزه فأفهم. بغموضٍ لمحتُ شكلاً أسود سرعان ما اختفى في باطن كفّه. أطبقت عليه أصابعه فوراً بقبضةٍ مشدودة وعريضة وسميكة وغليظة.

ثمّ تقدّم. ونادى سولانج. وبينما كان يتّجه نحوها، راح ينادي سولانج بصوتٍ أقوى فأقوى. إلى أن توقّف النّاس برهةً وراحوا ينظرون إليه وقد فوجئوا باندفاعه وحركته المباغتة وابتسامته وبالطّاقة التي تصدر عنه والتي كنتُ سأفسّرها على أنّها إيمانُ إنسانٍ ملهَم (ولي أسباب لأفهمها وأراها على هذا النّحو)، ولكنّ الأمر لم يكن كذلك، كان هذا فرح رجلٍ غريب الأطوار نوعاً ما ومنفصلٍ عن الواقع، لم يكن على الأرجح سعيداً لوجوده في هذا المكان، هو الذي ما كان حتماً سيأتي لو لم تكن سولانج هي من دعاه. أعني أنّه ما كان

ليلبّي دعوة أحد أشقّائه أو إحدى شقيقاته الأخريات، ولا أيّ منهم، هم الذين كان يكلّمهم من وقتٍ لآخَر ويلبّي أحياناً القليل من دعواتهم، لا لشيء إلّا ليعطوه ملابس قديمة أو طعاماً، فالجوع كان قادراً على إخراجه من منزله.

أفسَحوا له المجال ليمرّ. ولزم بعض الوقت حتّى تبلغ الدّهشة مداها فتخمد الحركات والعبارات والنّظرات. لزم بعض الوقت لتتباطأ الإيماءات وتستقرّ. لزم أكثر من إيماءة أو ضحكة، لزمَت صرخة.

لا صرخة رعب وفزع. لا. بل الصّوت عندما ينكسر مذهولاً، اندفاعةٌ وشيءٌ ما يتحطّم عليه. كان يعلو قليلاً على الأصوات وعلى الإصغاء المهيمن المتّجه نحوه بلا مبالاة، نحو حركته وصوته ونحو إيماءته إلى سولانج، ولكنّه لم يكن قد صار كافياً ليسكت الجميع ويُنصتوا.

ولكن ثمّة دوماً من يَرى.

وفي تلك اللّحظة كانت ماري جان هي التي رأت قبل غيرها، لقربها من سولانج. وفي اللّحظة التي وصل فيها برنار إلى الطاولة حيث كانت سولانج مستندة، كانت ماري جان تبسط يدها على الشّرشف الورقيّ قرب حافّة الصّينية وتتهيّأ لتتذوّق مرّة إضافيّة قطعةً من هذا الكعك الرّائع على شكل فطيرة صغيرة محشوّة بسمك الأنشوفة أو بكريما التّونة، عندما أرادت الانتقال أو الالتفات، لا فرق، رأته فجأةً أمامها فظنّت أنّه واقفٌ في هذا المكان ويده ممدودة بهذه العلبة الصغيرة ذات اللّون الأزرق النّيليّ الغميق، لا الأسود كما ظننتُ في البداية، العلبة المذهّبة الأطراف، ليقدّم لها هذه الهديّة غير المتوقّعة التي رأتها تصلها في يده الضّخمة والخشنة، هو الرّجل المُستغرَب وجوده هنا، أمامها، مُخيفاً حتّى إنّها كانت ستصرخ في كلّ الأحوال حتّى لو لم يكن مادّاً يده أو قبضته أو هذه العلبة ذات اللّون الأزرق النّيليّ.

لذا، نعم، يجب الإصغاء إلى هذا الصّمت القطنيّ الخاصّ، صمت الأيّام المثلّجة، وإلى الثّلج الذي رجع يتساقط، كما لو أنّ شيئاً من هذا الصّمت دخل قاعة الحفلات. كان يمكن أن نقول إنّ ملاكاً مرّ من هنا، ولكنّ الأمر لم يدم أكثر من هنيهة، لحظة قصيرة جدّاً. لأنّ ماري جان استعادت بسرعة رباطة جأشها، استقامت والتهمت كعكةً ثمّ ضحكت: آه، لقد أخفتَني!

ولم تصدر عنه إيماءة أو كلمة، لأنّها كانت قد عاودت الضّحك هازئةً: تُريد أن تطلب يدي؟

وضحك الجميع، ليس الجميع تماماً، لا، بل فقط أولئك الذين كانوا على مقربة شديدة منهما ورأوا المشهد وأمكنهم لاحقاً، بعد رحيله، أن يشهدوا أنّ كلّ شيء كان قد خُتم وانقضى في تلك اللّحظة بالذّات. ذلك أنّه، هو، لم يضحك البتّة. نظر إلى ماري جان، بعقد اللّؤلؤ البرّاق على صدرها الممتلئ، وبفستانها الأخضر التّفاحيّ ذي الياقة الكاشفة، وشعرها المصبوغ بلونٍ يتراوح بين الرّماديّ والبنفسجيّ، بهذا الفم الذي يبتسم، لا بل الذي راح يضحك كما لو أنّه وحده الذي بات يشعر بالمفاجأة والدهشة، لا هي. أمّا برنار فلم يكن ينطق ببنت شفة أمامها هي التي كانت تضحك وتبحث بنظراتها عن تواطؤ الآخَرين معها لا سيّما زوجها جان كلود الذي اقترب ما إن سمع زوجته. كانت لا تزال تضحك، أمّا هو، ولكي يتذاكى، وقد خال نفسه ظريفاً وبدا فخوراً وشبه متبجّح، فراح يردّد: حذار، إنّني أراقبك يا صديقي.

ثمّ عَلَت أصوات ردّدت من بعده: «شعلة الحطب»، كن أكثر تكتّماً!

يا له من زير نساء «شعلة الحطب»!

حذارِ، إنّني أراقبك يا صديقي.

ولم يكن يضحك البتّة وهو ينظر إلى جان كلود ويسمع الضّحكات ويلتفت مجدّداً صوب ماري جان التي كانت قهقهاتها تتسبّب في تقافز كسراتٍ من فطيرة التّونة على ثوبها الأخضر التّفّاحيّ.

ثمّ صدرت عنه إيماءة خشنة رغم كونها غير واضحة كتم فيها فمه وربّما عضّ أيضاً على شفته، تحت شاربيه الغليظين الصفراوين الرماديّين. ربّما. الأمر غير أكيد. لأنّ وجهه كان أشبه بقناعٍ أحمر متورّمٍ مثقوبٍ بعينين مائيّتين زرْقتهما متّشحة بالرماديّ وماء المطر. وشاحٌ لم يكن دموعاً، لم يكن شيئاً على الإطلاق، فـ «شعلة الحطب» هو نفسه لم يكن سوى كتلة من الصمت انقبضت على نفسها، ولقد عاود إغلاق يده على العلبة الزرقاء.

ووصلت سولانج.

لا، أخطأتُ التعبير، التفتت صوبه فقط. أجل، هذا ما حدث. كانت قريبة منه. لأنّها كانت قريبة جدّاً. لم يكن عليها إلّا أن تستدير. أن ترفع يدها وتسحبها عن شرشف الطّاولة وتستدير. أن تقترب لترى شقيقها يقف فجأة أمامها.

تركت برهةً من الوقت تمضي قبل أن تتكلّم. لأنّها، في البداية، لم تفهم أنّه تقدّم نحوها ليهديها هذه العلبة التي لم يقدّمها في الوقت نفسه مع الآخرين.

كما لو أنّ من الطبيعيّ ألّا يفعل الأمور كالآخرين. ألّا يكون عليه أن يختلط بهم. ولكنّني ربّما أُسقط عليه نوايا لم تراوده. فقد لا يكون دافعه هو الاحتقار والتعالي وأسلوب الأرستقراطيّ المفلس والأنِف. بل فقط رغبته في أن يقدّم هديّته لشقيقته بشكل أكثر حميميّة وأقلّ كلفةً ممّا لو قدّمها تحت أنظار كلّ المدعوّين وأحكامهم. فلا بدّ أن يكون قد فكّر واعتقـد، عن حقّ، أنّ المدعـوّين سينظرون إلى هديّته بقسوةٍ أكثر من أيّ شخص آخر، فقد يكون راود بعض الأشخاص ثمّ جميعهم السّؤال عمّـا يمكن أن يقدّمه رجلٌ لا يملك شيئاً.

لم يكن عليهم أن ينتظروا طويلاً لمعرفة الجواب.

«عيد ميلادٍ سعيد»، قال. ثمّ، وبيده اليسرى التي مدّها صوب يد سولانج، بأصابعه الغليظة الزهريّة والجافّة والمتورّمة والتي ملأتها الخدوش ونهشها البرد والأشغال التي يقوم بها دوماً بلا قفّازات، أمسك فجأة بيد سولانج وقرّبها من يده الأخرى كما لو لم يكن يريد لأحدٍ أن يرى.

وهذه المرّة تمنّى لها أيضاً عيد ميلادٍ سعيداً ولكنّه كان مبتسماً وتكلّم بصوتٍ منخفض ومرتجف بحيث لم نسمعه تماماً بل خمّناه تخميناً وقد غطّته أصوات المتحدّثين الواقفين أبعد قليلاً، والأطفال الذين يصرخون وهم يلعبون ويركضون، والعجائز الثلاث الجالسات هناك على كراسيّ بلاستيكية رمادية قرب المدفأة يثرثرن وهنّ يرتجفن برداً. ثمّ هذا الصّمت وهذا الاستغراب الذي ساد عندما خفضت سولانج عينيها إلى العلبة ذات الشّكل المعروف وحيث كان يمكن أيضاً قراءة اسم عائلة بوشيه تاجر الذهب والساعاتيّ المعروف من جيلين مطبوعاً بحروف ذهبية.

نظرت إلى شقيقها دون أن تجرؤ على فتح العلبة. ثمّ تركت علامات الارتياب تنتشر على كلّ ملمحٍ من ملامحها وتطبعها طويلاً وعميقاً جدّاً. كانت تبتسم أحياناً (كان ذلك أشبه بالضحك، حتّى عندما كانت تلتفت صوب الآخرين الواقفين قربها مباشرة أو البعيدين، مثلي أنا، الواقفين خلف مجموعة من الأشخاص الذين كفّوا عن كلّ حركة وكلّ كلمة وظلّوا فجأة حاملين كؤوسهم أو سجائرهم دون أن ينتبهوا إليها فعلاً.) هيّا، افتحي العلبة يا سولانج.

أعتقد أنّها في تلك اللّحظة فكّرت في كلّ ما لا بدّ أن يكون قد حصل لتصل الأمور إلى هنا، إلى هذه اللّحظة بالذات التي تمسك فيها علبة مجوهرات -فما من شكّ أنّ العلبة تحوي حليةً- لا تجرؤ على فتحها، لا لأنّها تعرف محتواها ولكن لأنّها تعرف النتائج والشّكوك والمخاطر وحتّى المخاوف التي ستتبع. أنا متأكّد من ذلك، فقد كان يكفي أن نسمع ونرى وننظر كيف كان الصّمت شفّافاً

وسميكاً في الأوان ذاته، ينتشر في صالة الحفلات مخترقاً دخان السجائر وأنفاس المدعوّين.

أمّا برنار فلا بدّ أنّه لم يكن يفكّر إلّا في ما إذا كانت هديّته ستعجبها. ولا بدّ أن قلبه كان يخفق وينبض بجنون أمام هذا السّؤال، هذا السؤال فقط، في حين كان الناس حوله قد بدأوا يستغربون ويمتعضون من الانتظار ويتساءل كلّ منهم في سرّه: أنا أحلم. حلية؟ حلية؟ كيف تمكّن من أن يقدّم لها حلية؟ من أين له أن يُهدي حلية؟ أمّا هي فكانت تفكّر أنّها يجب أن تفتح العلبة وترى، ولكنّها لا تريد لأنّها تعرف، نعم، تعرف ما ستجده على البطانة المخمليّة الزرقاء، تعرف أنّه سيكون عليها أن تكتم قلقها والسؤال الذي يدور في رؤوس الجميع ما عداه هو، هو وحده. ولن يعود لسؤاله الوحيد أيّ معنى: أعجبَكِ؟

أعجبَكِ؟

كان السؤال على طرف لسانه، يتململ في فمه، جاهزاً ليأتي على شكل همسٍ، لا بل صلاة. ولكن في هذه اللّحظة لم يكن هناك إلّا الانتظار الثابت الذي يغوص في عينيها اللّتين لن يرى فيهما بعد قليل إلّا الرّعب وعدم الفهم. ورغم أنّها تردّدت وفعلت كلّ شيء لتوقف اللّحظة وتتراجع، لكي لا... لكي لا تفتح العلبة، ولا تنظر داخلها، وتكتفي بأن تبتسم له وللحاضرين من حولها. أغمضت عينيها ثمّ فتحتهما مجدّداً. عاودت التنفّس. تفوّهت بعبارات متقطّعة، كلمات شكرٍ حرجة لم تكن توجّهها له هو شقيقها بل للجميع. لأنّ الجميع كانوا في انتظار أن تحكي وأن تكفّ عن الابتسام وقول عبارات فارغة بلا معنى: لم يكن من داعٍ، يا برنار. أنا... أنا لا أفهم.

وكان وجهها يشحب وبشرتها البيضاء تحت الماكياج تصير داكنة كما لو أنّ الدّم والحياة والأفكار وكلّ إمكانية المقاومة أمامه تهرب منها، تتبخّر أو تختفي في ثنايا جسمها.

هيّا، افتحي يا سولانج.

نعم. نعم، نعم، طبعاً. نعم، بالتأكيد سأفتح العلبة، يجب أن أفتحها، يا لغبائي! يا لك من ملعون يا برنار، إنّه مجنون. مجنون، أليس كذلك؟ معقول! أنا. أنا.

وانقلبت نظرتها تماماً في اللّحظة التي فتحت فيها العلبة ورأت الدبّوس.

دبّوس زينةٍ كبير من الذّهب المطعّم بالصّدَف. ذهبٌ مصقولٌ وألماسيّ يعلوه نقشٌ صدَفيّ على شكل زهرة.

ثمّ قال كما لو ليدافع مسبقاً أو يفسّر خياره: احترتُ بينه وبين حلية على شكل جُعَل أعجبتني كثيراً. ولكن بما أنّكِ تحبّين دبابيس الزينة قلتُ لنفسي إنّكِ قد تحبّينه.

أجابت بإيماءةٍ من رأسها، وشيء من العجلة أو حتّى الذّعر يبدو في إيماءات وجهها.

وكان يمكن أن نلاحظ أنّ نظرها يفتّش عن عونٍ من حولها، عمّـا يشبه الطّاقة أو القوّة لتجد حلاًّ أو جواباً. ولكنّ السؤال نفسه انتشر على كلّ الوجوه من حولها: كيف أمكنه فِعل ذلك؟

كيف يمكن ذلك؟ بأيّ نقود؟

هو الذي لم يكن يملك مالاً ويتعيّش على الآخرين، كلّ الآخرين من حوله، هؤلاء الذين كانت عيونهم تروح وتجيء بين الدبّوس وبينه، وبينه وبين الدبّوس، ثمّ من الدبّوس إلى بعضهم والبعض الآخر، فيتبادلون نظرات تطرح الأسئلة نفسها وتكشف عن نفس الاستغراب ونفس الغضب.

بقيت سولانج صامتة لا تقول شيئاً. كانت متأثّرة أيضاً لا مذهولة أو مصدومة أو مضطربة فقط، بل كانت قبل كلّ شيء متأثّرة، أعتقد، هذا ما أعتقده أنا، في حين أنّني فكّرتُ آنئذٍ أنّها خائفة، خوفاً غامضاً ومبهماً وملغزاً سببه ما سوف يحصل بعد قليل، لا في هذه اللّحظة بالذات وهي تحمل في يدها هذه العلبة الزرقاء النيلية الصغيرة وتنظر إليها دون أن تجرؤ أن تُخرج منها الدبّوس.

خذيه يا سولانج. جرّبيه.

نعم، نعم، طبعاً.

كنتُ قد اقتربتُ وصرتُ إلى جانبه، قريباً جدّاً منه. فشممتُ هذه الرائحة التي هي مزيج من الصابون ومن النظافة المفرطة التي لا بدّ أنّها خدشت جلده وقشَرته، ومن رائحة الناس الوسخين الغامضة التي هي عبارة عن دوام الوسخ اللّاذع والحامض ونتانة البول الخفيفة.

ورأيتُ أصابع سولانج المرتجفة عندما أمسكَت بالدبّوس. استدارت لتضع العلبة على الشرشف. نزعت دبّوسها الذي كان على شكل إكليل من الغار ثمّ نظرت مرّة أخرى إلى الدبّوس الهديّة. نظرت إليه طويلاً، ثمّ راحت توزّع نظرها بينه وبين شقيقها. ثمّ تطلّعت حولها وأطلقت ضحكةً خرقاء نوعاً ما، أشبه ما تكون بالقرقرة، لتُخفي عن نفسها أنها تحمرّ وتختنق، ولكي تخنق هذه الكلمات وهذا الذهول الذي تخفيه الضحكة. شكّت الدبّوس مكان الآخَر وبقيت جامدة، يجب أن أقبّلك، ثمّ مالت بوجهها صوب شقيقها وتبادلا القبل.

أعجَبكِ إذن. هل أعجبكِ؟

أجل، بالتأكيد أعجبني.

أجابت سولانج بصوتٍ متقطّع وبإلقاءٍ متكلّف وغير مُقنع كما لو أنّ الأهمّ بالنسبة إليها هو أن ينتهي الأمر بأسرع ما يمكن، وأن يرحل الجميع، أن يرحل «شعلة الحطب»، ألّا يكون قد جاء أصلاً، ألّا يكون عليها أن تعيش مجدّداً هذه اللّحظة وكلمة «بالتأكيد» الكاذبة هذه التي لم تكن تعنيها ولا صدّقها الآخرون، نحن مَن كنّا نحيط بها كما لو أنّنا نحيط بنارٍ لا بحثاً عن الدفء والنور بل لأنّ اعتمال مأساة صغيرة يجذبنا، قصّة نخبرها، طُرفة عن رجلٍ مُعدم يُهدي شقيقته على مرأى من كلّ مَن أحسنوا إليه مرّة على الأقلّ، حليةً لا يقدر أيّ منهم أن يهدي مثلها يوماً لأيٍّ كان.

بحثَت عينا سولانج حولها عن عونٍ لم يأتِ، إذ انتبه كلٌّ من الموجودين فجأةً للسيجارة التي عليه أن يشعلها أو يطفئها، أو للكأس نصف الفارغة التي يتعيّن عليه ملؤها فوراً، أو بالعكس شرْبها بسرعةٍ، جرعةً واحدة.

وظلّت سولانج لبعض الوقت على هذه الحال. لم تكن الدموع قد خنقتها بعد ولكنّ ارتباكاً رهيباً ووحشيّاً كان يتضخّم في حنجرتها كما يتضخّم في هذه اللّحظة عدم الفهم في عينيها. أمّا هو، فراح يضحك، نعم، ضحك في البداية، وأدخل يديه في جيبيه ثمّ عاد وأخرج يداً لتمسّد شاربيه كما لو لتمشّطهما، ولتلصقهما على فمه قبل أن تعود لتغوص في الجيب الخلفيّ وتُخرج منه علبة سجائر جيتان. ثمّ استبق كلام شقيقته وقال لها بخجل: لا ينشغلنّ بالك.

لكن يا برنار، هذه ثروة.

لا ينشغلنّ بالك، أقول لكِ.

كيف دفعتَ ثمن الدبّوس؟

أيُعجبكِ؟

ليس هذا هو السؤال؟

ما السؤال إذن؟

وفجأةً انفجرت مشاعرها، هذا الدفّق الذي كان يقبض على معدتها والذي كانت تُعمل كلّ جهدها للسيطرة عليه. فتركت صوتها يتجرّح وينطلق بضحكةٍ حادّة مُبالَغٍ بها ومثيرة للشّفقة نوعاً ما على ما بدا لي. في الواقع، لا، لم تكن ضحكتها وحدها هي التي بدت لي مثيرة للشفقة. بل كذلك طريقتها في عرضها لأنّها كانت تعرف جيّداً ما كان الجميع قد بدأوا يتساءلون عنه ويعلّقون، بالنظرات، بهمسة أو بلكزة كوع، بِيَدٍ توضع على ذراع، بفمٍ يرسم تكشيرةَ ارتيابٍ وحَذر، برأسٍ يتحرّك بطريقة العارف المتيقّن، بحاجبين مرفوعيـن وجبيـن مقطّب، إيماءات وحركات نجعلها تتباطأ على أجسامنا كي يلمحها الآخرون.

نظرت نيكول إليّ، وتسنّى لي أن أفهم أنّها تريد أن تتدخّل من دون أن تعرف كيف، ومن دون أن أعرف أنا بدوري كيف.

واستمرّ الوضع هكذا بعض الوقت.

وهجمـت «البومـة» بمعطفهـا المـزرّر حتّى العنـق وبفـروة السّمور الشقراء والمغبرّة حول كتفيها، لا لتطالب برنار بتفسير، لا، ليس بعد، لا هي ولا إيفلين، أعني أنّ إحدى الشقيقات، إيفلين، هي أوّل من تقدّم في هذه اللّحظة ليرى ويشاهد عن قرب، ترافقها زوجة أخيه جان جاك (والأخير غير مبالٍ على الأرجح، واقف بعيداً، قرب المطبخ يناقش بينجو وشفراوي). اقتربتا أوّلاً ثمّ لحقت بهما ماري جان. نظرت سولانج إليّ من بعيد. أمّا نيكول فبالعكس تراجعت.

بقيتُ هناك، أطيل النّظر إلى ظهور أولئك الذين أراهم يتقدّمون ويقتربون من سولانج دون أن يجرؤوا بعد على أن يقولوا، ولو غمغمةً، ما كانوا يتحرّقون حتماً لقوله. وسرعان ما باتت هذه حالة الآخرين أيضاً، أولئك الذين سبق أن اقتربوا أو كانوا هنا، قريبين جدّاً ومهتمّين جدّاً، الأشقّاء والشقيقات، الأصهار وزوجات الأشقّاء - لكن لا الأصدقاء ولا المعارف ولا الآخرون الذين كانوا هناك بشكل عابر والذين لم يكن حضورهم متوقّعاً جدّاً. ولقد رأيتُ كيف تردّدت سولانج وهي ترفع يديها إلى الدبّوس، وتقرّر صراحةً أن تنزعه، مدّعيةً لا أدري أيّ شيء، لا شيء ربّما، مدّعيةً أنّه لا يتناسب وكنزتها، وأنّه أجمل، أجل، أجمل

من أن يوضع على كنزة مثل هذه، أنت مجنون يا برنار، هذا ذهبٌ، ثمّ بأيّ مالٍ اشترينَه.

ثمّ انتصبَت «البومة» في وجه «شعلة الحطب» وبادرته بنظرةٍ قاتلة: إنّه جميل، فعلاً، إنّه جميل، نعم، هذا صحيح، يمكنك أن تقول ذلك.

ثمّ جاء دور إيفلين بصوت شبه متهدّج، يرتجف كما لو توسّلاً: نحن ساعدناك على قدر استطاعتنا، فكيف أمكنك؟ كيف؟

كفّ هو عن الابتسام وانتصب: هذا لسولانج. لسولانج. لا دخل لأحد.

لاحقاً، في آخر النهار، ستروي باتو أمام رئيس البلدية واثنين من رجال الدّرك، في الصالة الخلفيّة لحانتها، وهي تجلس إلى إحدى الطاولات وتدخّن السيجارة تلو الأخرى، لأنّها ما كانت لتعرف أنّها ستفعل هذا يوماً من أجل «شعلة الحطب»، ستروي بأيّة حالٍ وصل إلى حانتها بعد حادثة الدبّوس.

هذا ما قالته: إنّه لم يفهم. أراد فعلاً أن يقوم بالأمور على أكمل وجه وأمضى أسابيع وهو يفكّر في الهدية. وأخبرتهم أنّه سبق أن تحدّث عن الأمر. ولكن كالعادة كانوا مضطرّين لأن يتركوه يتكلّم، مكتفين بأن يطلقوا بين الحين والآخر كلمة «نعم» صغيرة لا ينتبهون هم أنفسهم إلى أنّهم كانوا يلفظونها.

نعم «شعلة الحطب». دبّوس، نعم. «شعلة الحطب». ستفرح شقيقتك، نعم، هذا جيّد، نعم، دبّوس، هذا حسن.

كانت تقول له هذا وهي تغسل الكؤوس وتخدم الزبائن، عمّـال أتوا ليتغدّوا أو شبّان ليلعبوا البلياردو، فقط لتزيّن خطابه المنفرد: نعمْ يا «شعلة الحطب».

لكنّها لم تكن تسمعه تماماً عندما قال إنّه قصد الصائغ بوشيه.

وكان السيّد بوشيه بنفسه هو من خرج من المستودع حيث كان يعمل بعدما نادته زوجته بإلحاح، حتّى قبل أن يدخل «شعلة الحطب» أو ينطق بكلمة، لأنّها كانت في انتظار أن تنتهي زبونة من الدّفع لتتمكّن هي من الخروج.

ظلّ «شعلة الحطب» مبتسماً لبعض الوقت ويداه تسحقان قلنسوته وتعلو وجهه ملامح خرقاء بل طفولية رغم منكبيه العريضين ونظرته ووجهه وجسمه الذي كان أغلظ من أن يجعل الناظر إليه يفكّر في الطفولة عندما يراه بكنزته

اليقطينية اللّون المملوءة بالثّقوب، أو حتّى فقط بالصّورة التي نتخيّلها عن الطفولة وعن الخجل والارتباك الطفوليّين. وإذا كان صدرَ عنه سلوك صبيانيّ، فهو على الأغلب طريقته في إخراج المغلّف الأصفر الكبير من جيب معطفه ونزع السّلك المطاطيّ الأحمر الذي يحيط به ليفرش على المنضدة رزمةً من الأوراق النقدية من فئة المائتي فرنك.

فيما بعد أخبر الصّائغ وزوجته الدّركَ بكلّ هذا: النقود الموضوعة على المنضدة وصوت «شعلة الحطب» وهو يقول: تفضّلا، أرغب في شراء دبّوس للزّينة.

لا بدّ أنّ الزوجين تبادلا النظرات، ومن دون أن يتفوّها بكلمة تقاسما المهامّ، وأخرجا له كنوزهما من علَبها، مقدّمين له بعض الصّواني المخمليّة السوداء أو الزّرقاء التي تلمع عليها أجمل الحلى، انظر، عندنا من كلّ شيء. وتسرع الزوجة لتُدخل ورقةً من الأوراق النقدية في إحدى تلك الآلات الفاحصة التي تكشف عن الأوراق النقديّة المزيّفة (كلّ تلك الأوراق التي تركها باحتقار على المنضدة، هو المشرّد الفقير، دون أن يعيرها اهتمام)، وقد تكون حكّتها أيضاً، غير مصدّقة، وعاينتها مرّة أخيرة على ضوء المصباح الكهربائيّ، قبل أن ترمي زوجها بنظرة تفهمه فيها أنّه ما من مشكلة وأنّ النّقود حقيقيّة. وقد تكون الشكوك ساورت السيّد بوشيه بدوره حيال «شعلة الحطب» عندما طال تردّده أمام دبّوسين، قبل أن يستبعد في النهاية الجُعَل الذّهبيّ، ممّا أصاب السيّدة بوشيه بالإحباط لأنّها كانت تعرف أنّ نتانة هؤلاء الرّجال تبقى متغلغلة في المكان مثل الرائحة التي تفوح من وبر الكلاب تحت المطر. ولا بدّ أنّها لعنت هذا الجُعَل الذهبي وزوجها الذي كان يُطيل حيرة الرجل بدل حثّه على حسم الأمر والانتهاء، نعم الانتهاء، فليدفع الثمن ويخرج هو ودبّوسه وما يتبقّى من نقوده، ولكن خصوصاً درنه ووسخه، هذه النتانة التي سيلزم بالتأكيد أسابيع، أسابيع لطردها تماماً.

كان الوقت ليلاً، واللّيل في كانون الأوّل يحلّ مع نهاية العصر، ويحدث أن يحلّ قبل نهاية العصر بقليل، باكراً جدّاً، شديد السّواد. في الخارج، كنتُ أرى الثّلج يتراقص على شكل ندفٍ ضخمة زرقاء حيناً وبرتقالية في حينٍ آخر، لأنّ زينة عيد الميلاد كانت تضيء الشّارع بكامله.

قالت باتو للدّركيَّين ولرئيس البلدية ولي أنا أيضاً إنّها كانت بالطّبع على علمٍ بشأن المال.

كانت الحانة فارغة. جان مارك واقف وراء المنضدة. تتوقّف أحياناً سيّارة أمام المدخل ويفزّ أحدهم من جهة باب الرّاكب ويدخل بسرعة وهو يلقي التحية ويتذمّر من الطّقس. يبيعه جان مارك السّجائر وسرعان ما تبتعد السيّارة. ثمّ يرجع هو صوبنا مع الهواء البارد الذي تسبّب الزّبون في دخوله وهو يغادر. لم يكن جان مارك يتفوّه بكلمة. كان أحياناً يهزّ رأسه بالإيجاب عندما ترفع باتو نظرها إليه ليدعمها، وسمعناه يردّد أنّه كان يعرف تماماً، وأنّ باتو كانت تعرف أيضاً، لأنّ «شعلة الحطب» أخبرهما ولم يُخفِ الأمر وهو يسدّد الدين الذي كان في ذمّته حتّى آخر قرش بأوراقٍ نقدية من فئة المائة والمائتي فرنك، مجعَّدة ونتنة، قالت ذلك بالتحديد (نعم، أصرّت على الأمر، أصرّت على أنّ النقود كانت عتيقة). قال إنّه كسب مؤخّراً مبلغاً كبيراً من المال. بقدر ما يمكن أن يسعه التابوت. لا، ليس تابوته هو طبعاً. ليس تابوته هو. صحّحت باتو لنفسها قبل أن أقول أنا فجأةً: أمّه، إنّه مال أمّه.

هذا ما خطر لي. أمّه. وأنّ هذا المال لم يهطل عليه من السماء بل هو من ذهب لجلبه، لأخذه بالأحرى، نعم، من عند أمّه، قبل ثلاثة أشهر عندما ذهبَت سولانج وإيفلين إلى منزل العجوز لاصطحابها إلى دار العجزة، قبل أن يأخذوا الأمتعة القليلة التي رغبت في أخذها معها ولكن خصوصاً قبل أن يقفلوا باب البيت. لا بدّ أنّه أتى في تلك اللّحظة، فهو الوحيد الذي كان لا يزال يسكن بالقرب من المكان، أو ما تبقّى منه، كان سهلاً عليه أن يدخل ويبحث ويفرغ الخزائن ويفتّش عن المال الذي لا بدّ أن تكون خبّأته في مكانٍ ما، في علبة حذاء أو خلف البيت في الهُري، في المَرابط الإسمنتية حيث كانوا في ما مضى يذبحون الحيوانات.

فهناك مخابئ ممكنة. إلّا إذا كانت تخبّئ المال بكلّ بساطة تحت سريرها أو بين ألواح خزانتها.

وعَثر هو عليه.

وكان هذا متوقّعاً منه، أن يسرق مال أمّه كما لو ليسترجع ما يعتبر أنّه قد خسره، في حين أنّه يوم رحيلها حضر إلى المكان وبقي واقفاً على بعد بضعة أمتار دون أن ينبس بكلمة، ليراها تذهب بلا رجعة بين العجزة، بعدما أمضت كلّ حياتها هنا، كما لو بات هو مالك المكان الوحيد، وريث سلالة طويلة - سلالة نهاية القرن، ونهاية العرْق، ونهاية النهاية. كانت نظراته حادّة وفي عزمه وضوح ويقين وثبات وشرّ على قدر عدّة قرونٍ من الطّين والعمل في الحقول، وما يعتبره هو إذلالاً واستغلالاً للجميع من قبل امرأة واحدة، محنيّة الظّهر

ومتّشحة بالسّواد تستوعب بنظرة واحدة زرقاء وباهتة أرضها ومنزلها القديم والعليل والمستودع الذي يواجهه في الجهة المقابلة من الشارع.

رابو؟

نعم، آسف. كنتُ أفكّر في أمّه.

هو يحبّكَ كثيراً.

لا، لا أظنّ.

وأخبرَتهم باتو كيف وصل قبل قليل، بعد حادثة الدبّوس تماماً.

رأوه يقطع الشّارع بلا انتباه، في بداية العصر، ربّما حوالى الواحدة والنصف، أو بعدها بقليل. لم يقل شيئاً عندما دخل إلى الحانة، لم يتوقّف عند منضدة الشّرب ولم ينظر حتّى نحوها خلافاً لعادته. عبَرَ الصالة الأولى ثمّ اختار الجلوس في الخلف، إلى طاولة قرب الحائط وقرب صندوق الموسيقى. تقدّمت باتو منه وقد فاجأها أن تجده هناك في مثل ذلك الوقت. قال إنّه جائع ولم يُجِب عندما سألتْه لمَ لا يبقى للغداء مع الآخرين.

فكّرت أنّه يجب أن يشرب ويأكل لينفكّ لسانه وتنفتح عيناه أخيراً وتنظرا أمامهما وتفتّشا عن واحدٍ يكلّمه حتّى لو ليتفوّه فقط بعبارات تتزاحم في رأسه رأت باتو وخمّنت وتخيّلت كيف تتصارع فيما بينها، وهي تنظر هي إليه يمضغ البطاطا كما لو كانت لحماً طُبخ أكثر من اللّزوم.

ذلك أنّه أكل وشرب بسرعة فائقة.

وفجأةً رغب في قول ما يعتمل في قلبه، هذا القلب الشديد الثّقل، الذي يكاد ينفجر في صدره كما قال عندما بدأ بالكلام. أترين؟ يكاد ينفجر في صدري، قال وهو يملأ كأسه مجدّداً بالنبيذ ويبتلعه بجرعات كبيرة مُزبدة تكفي لتُغرق بطناً أو اثنين من جِراء الهررة. واستمرّ يمضغ وهو يتكلّم، ويأخذ قضمة من الخبز ومن البطاطا والسمك، غير مبالٍ بالمنظر الذي يقدّمه للآخرين عن نفسه، كما لو أنّه هو نفسه لا يراه كذلك، لا يشاهده ولا يعرف كم أنّه بذيء وقذر ومنفّر أن يزدرد الطعام والشراب كما كان يفعل، فيما الدّهن يكسو فمه وذقنه بمادّة سميكة ولزجة ولامعة. لكنّه مع ذلك لم يكن غولاً ولا وحشاً، كان

فقط شخصاً ارتفع منسوب الغضب في داخله وحلّ محلّ عدم الفهم والشعور بظلمِ الآخرين له واحتقارهم وكراهيتهم.

فهو الذي نعرفه سليط اللّسان متعالياً، كان كما لو أنّ زنبركاً قد كُسر فيه من فرط ما جرى شدّه فأصابه نوع من التردّد يمكن رؤيته يرقص في عينيه الزّرقاوين، عندما ينظر إليكَ أو تخاله ينظر إليك دون أن تتأكّد من ذلك تماماً، تتخيّل أنّه ينظر إليك بسبب إلحاحٍ خفيف وثباتٍ موحِش بالرّغم من حركة إغماض الجفنين.

ولا ريب أنّه تحدّث إلى باتو بهذه الشاكلة وروى لها الإرباك الذي شعر به عندما رأى سولانج تنزع الدبّوس، والآخرين، أشقّاء وشقيقات يتحلّقون حولها، كحيواناتٍ كاسرة جذبتها رائحة المال، كلّ هذا المال، كما لو كان ملكهم، وخصوصاً كما لو كان «شعلة الحطب» نفسه ملكاً لهم، هذه الثلّة من الحمقى، من الفلاحين الذين لم يروا باريس يوماً إلّا في الصّور أو على شاشة التلفاز، الذين لم يروا إلّا مياه النهر والمستنقعات اللّزجة كالمازوت التي تشرب منها الأبقار عندما كانوا صغاراً.

نعم. احتقاره. احتقاره لهم وغضبه.

ورَوَت باتو كيف كانت أحياناً تضطرّ للقيام لخدمة أحد الزبائن عند منضدة الشّرب أو في الصالة، فكان برنار يسكت ويروح يشرب القهوة ثمّ الكحول ثمّ النبيذ ثمّ الكحول مجدّداً ثمّ المزيد من النبيذ، ثمّ يبرطم وينظر من النّافذة الزّجاجية ليرى الخارجين من صالة الحفلات وقد انتهى تناول المقبّلات ولا بدّ أنّهم مدّوا الطاولات وجهّزوها للغداء الذي بدأوا على الأرجح بتقديمه.

ثمّ وقف وتقدّم صوب منضدة الشّرب وهو لا ينظر مباشرة أمامه بل يميل برأسه صوب الخارج، صوب الجهة المقابلة من الرصيف فلا يرى إلّا الباب وفوقه الواجهة الكبيرة المطليّة بالأصفر. هذا ما كان ينظر إليه. وعندما تناول سيجارة: هلّا صببتِ لي المزيد؟ نبيذاً أحمر.

ثمّ أردف: لطالما قتلتْهم غيرتهم!

وعندما قال رئيس البلدية إنّ برنار لا بدّ أن يكون قد خطّط لكلّ شيء، هذا الاستفزاز وهذه المسرحية، قالت هي لا، أقسم لكم، أنا واثقة من هذا، والأسوأ أنّه كان مقتنعاً بأنّ كلّ هذا عاديّ ولا يمكن أن يستدعي استهجان أحد.

حتّى إنّها تابعت بالقول إنّها باتت ترتاب بأنّها هي نفسها من كانت السبب في كونـه استشاط غضباً بسـرعة. صحيح أنّه كـان على وشك الانفجار بسبب مقدار الكحول الذي شربه والذي كان يستأنس أكثر بشربه كلّما أتعبه أن يسمع نفسه يقول لها ما يعتمل في قلبه. كأن يصف بالكلمات الإهانة التي تعرّض لها والتي لم تشهدها هي، عندما نزعت سولانج الدبّوس وعندما تجمّع أشقاؤه وشقيقاته؛ حسناً صحيح، ليس كلّهم، ولكنّهم كانوا فعلاً في المقدّمة ثمّ أتى آخرون ليحيطوا بهم وآخرون أيضاً لازموه ليروا ويسمعوا التوبيخ الذي سيوجَّه إليه، توبيخ شقيقته الصغرى إيفلين مثلاً وهي تبكي وتنتحب: بعد كلّ ما فعلناه من أجلك!

وكانت هي أوّل من تحدّث عن العجوز. أوّل من قال: الوالدة.

رحتَ لتسرقَ العجوز.

وتنهّدت سولانج: كفى.

وكرّرت:

اسكتوا.

أمّا هو فتراجع دون أن ينبس ببنت شفة. تركهم يتكلّمون. كالعادة، تركهم يفعلون ما يشاؤون. كما في كلّ مرّة تتلبّد فيها الأجواء. وثمّة دوماً أسبابٌ لذلك. هذا ما فكّر فيه ولم يقله، ليس بعد على الأقلّ، واكتفى بالتراجع، يداه في جيبيه، شاقّاً لنفسه ممرّاً بين النّظرات والأجسام المعادية من حوله، أو الغبيّة لا غير، أجسام بلهاء أتت لتشاهد. ولمّا خرج، عبَرَ سريعاً الطريق ليدخل في حانة باتو في الجهة المقابلة من الشارع.

نظرَت باتو إلى جان مارك عندما قال الدّركيّان إنّ الأمر خطير. فهي في النهاية كانت تريد أن تبتسم وتصبّ المزيد من النبيذ. وكما لو لتُغيّر الحديث، سألتني: قل لي يا رابو، منذ سنوات وأنا أريد أن أسألك، لماذا يناديك بالأستاذ؟ أثمّة قصّة بهذا الشّأن؟ [2]

ورأيتُ يدها ترتجف وهي تملأ الكؤوس حتّى الحافّة. اكتفيتُ بالابتسام، نعم، هناك قصّة.

قصّة بيني وبينه غير ذات أهميّة. كنتُ أتمنّى أن أتابع تعليمي المدرسيّ وكان هـو يعتبر الحصـول على البكالوريـا ضرباً من الغطرسـة. ففي ذلك الزمن، كان الحصول على البكالوريا أمراً غير اعتياديّ. في محيطنا خصوصاً، هنا، ومن قبَلي تحديداً، أنا ابن عمّه. لا يمكن تخيّل الأمر. بالطّبع لم أنل البكالوريا. لم تتسنَّ لي فرصة التقدّم للامتحان. لكنّه ظلّ يجد أنّ مجرّد تفكيري في الأمر مسألة مسليّة.

ولكنّي قلتُ لباتو: إنّها دعابة بيني وبينه.

لم تعلّق، فهي طرحت السؤال لمجرّد أن تقول شيئاً. الأرجح أنّ الفكرة المزعجة نفسها كانت تلحّ عليها، فكرة ستظلّ تلوح في ذاكرتها كلّما استعادت ذلك النهار: أنّها أذكت كرهه عندما أرادت أن تُفهمه مدى الاستفزاز في ما فعله، وأنّه لا يمكن لأيّ منهم، خصوصاً أشقّاءه وشقيقاته، أن يفهموا أنّ الأمر مجرّد سذاجة من قبله.

أرادت فقط أن تُفهمه وقع المفاجأة عليهم أوّلاً وفكرة أنّه سرق مال أمّهم، هم الذين عندما طُرحت مسألة كلفة إيوائها في دار العجزة ونوقشت فيما بينهم، ارتضوا جميعاً أن يدفع كلّ منهم أكثر ممّا يتوجّب عليه لكي لا يكون عليه هو أن يدفع. وها هم يرونه بعد ثلاثة أشهر يرمي المال من النافذة، نافذتهم هم، مالهم هم، تحت نظرهم هم.

هذا ما فعله.

يجب أن تفهمهم يا «شعلة الحطب». فباستثناء واحد منهم أو اثنين، لا يملك أغلبهم الكثير من المال.

أمّا هو فلم يُجِب وخرج. بقي صوت باتو معلّقاً في الهواء، هكذا، مثلما تذوب جزيئات كيميائيّة غير مرئيّة وتصبح هباءً في الهواء الطلق والسماء الزرقاء. راقبوه من الباب الزجاجيّ. كالعادة بصق على الرصيف وهو يعبر متمايلاً، ثملاً أكثر ممّا اعتقدوا. ومثيراً للريبة أكثر. ولا بدّ أنّهم في تلك اللّحظة شعروا بقليل من الخوف. وبالتأكيد أكثر ممّا أقرّوا به للدّركيَّين ولرئيس البلدية ولي أنا بعد ذلك بثلاث ساعات.

ولكنّهم قالوا في أنفسهم على الأرجح: «شعلة الحطب» يبقى «شعلة الحطب»، إنّه سكران، لا يمكن تغييره، هذا أمرٌ عاديّ، لا شيء جديد.

إذن، عندما دخل، أعني ليس تماماً في اللّحظة التي عبر فيها عتبة الباب، ولكن عندما فهم الجميع ورأوا أو بدأوا يرون، حلّ نوع من الصمت، رعشةٌ في الصمت وضحكات أيضاً، بضعٌ منها. وكالعادة كان هناك مَن لم ينتبهوا واستمرّوا في فعل ما كانوا يفعلونه.

لم تكن سولانج هناك، كانت في المطبخ. مشى «شعلة الحطب» باتّجاهنا مترنّحاً. لا بدّ أنّه شرب كثيراً ورجع مثل مدمن على الكحول يظنّ أنّه أتى ليشرح موقفه، بينما لا يفعل في الواقع إلّا أن يزيد أفكاره وأفكار الآخرين تشوّشاً. رأيتُ «البومة» تلكز جان جاك بكوعها، وقد هالها على الأرجح أن يكون شقيق زوجها قد تجرّأ على الرّجوع، فما كان من جان جاك إلّا أن همس متردّداً: ولكن ما تريدينني أن أفعل؟

ثمّ قامت إيفلين. مشت بسرعة دون أن تلتفت إلى أيّ منهم، رأسها منخفض، وتطرطق بحذائها ذي الكعب العالي على الأرضية الخشبية وتشدّ طرف كنزتها بلون عصير الشمّـام أو بلون السلمون إلى الأسفل، لتشغل يديها وتمنح نفسها ما يكفي من الثّقة لتعبر بمحاذاة المنبر وتذهب إلى المطبخ لتُعلمَ سولانج.

ولكنّه كان قد وصل باتّجاهنا.

انتصب في وسط الصالة - لا ليس في وسطها بل قرب المنصّة، في النقطة المركزية التي تشكّل فيها الطاولات الثلاث حرف U وبقي واقفاً هكذا بضع دقائق، مجاهداً لكي لا يقع، ساقاه مقوّستان، أو بالأحرى متباعدتان، نظره ثابت وشفّاف وبعيد ومستهزئ وقد بدا عليه أنّه يريد استفزازنا وينتظر منّا أجوبة على أسئلة بقيت معلّقة منذ قرون.

طبعاً كانـت العيـون مركّزة عليه. وطبعاً كانـت قد بـدأت تُسمَع وشوشات. وبقي كلّ واحد منّا ينظر إليه وهو يشرب كأس النبيذ أو يعيد ملأها أو بالعكس يفرغها بجرعة واحدة. وسُمعت قهقهات.

أصوات هامسة، وشوشات: أتى ليلفت النّظر.

يكاد يقع.

لا تعيروه اهتماماً. لا تفعلوا.

ومنهم من راح يمرّر الملح أو البهار أو الماء أو النبيذ لجاره حول المائدة. ومنهم من راح يمسح يديه بالمحارم الورقية. وآخرون كانو ا يمضغون قطع

الخبز ثمّ يتطلعون إليه بطرف عيونهم. لا تعيروه اهتماماً. هذا بالتحديد ما يريده «شعلة الحطب». لا تنظروا إليه. ثمّ سألتني نيكول: ولكن ماذا تفعل سولانج؟

كانت «البومة» على كرسيّها تضرب الأرض بقدميها توتّراً. وأصوات العجائز في طرف الطاولة. وإذا بشقيق دائم الصّمت عادةً ويكاد لا يتكلّم أبداً، قادم من الحقل حيث يمضي وقته في زرع اللّفت والذّرة، يصرخ فجأةً: «شعلة الحطب»، كفى، تعال اجلس!

أمّا هو فلم يكن يترنّح بل يرتجف فقط، مترجّحاً من طرف قدميه كما لو كان يؤدّي رقصة بحركةٍ صغيرة جدّاً من أخمص قدميه فيروح ويجيء إلى الأمام وإلى الخلف، وفي عينيه الازدراء نفسه. نظر إلى شقيقه الذي تكلّم ولم يُجب. كما لو أنّ الصوت لم يصله إلّا عبر شيء غير السّمع أو العقل. ثمّ أصابته لحظة تردّد، فنفخ صدره وعنقه ورأسه وقال «نعم» غير أكيدة. قالها في البداية بصوت منخفض بحيث لم تكن الكلمات المتمتمة والملفوظة جزئيّاً لتُفهَم لو لم يسبق أن سمعناها وهي تتردّد في عيٍّ كما يكرّر السكارى الكلمات نفسها والهواجس عينها.

بدأ الأمر بكلماتٍ مسلوخة، مكشوطة بالأحرى، مكتومة، على شكل موجةٍ بلا منحنيات، بلا حروف ساكنة أو مصوّتة يمكن أن تشكّل أصواتاً قابلة للتشخيص، ولكنّهم كانوا يعرفون، وكنتُ أنا أعرف لكوني سمعتُ في الماضي، دوماً - لا، ليس دوماً - مناجاته التي يغمغم بها بين شفتيه: آه، إنّهم يكلّمونني إذن، يكلّمونني، نعم، لا بدّ أنّ ثمّة أناساً كثراً، إنّهم هنا جميعاً إذن، آه، لا، ليس الأموات منهم، الأموات لم يأتوا، هذه نقطة جيّدة على الأقلّ، الأموات، هذا أفضل، على الأقلّ، ريْن والأموات الصّغار لم يأتوا، للأسف، فالأموات الصغار وحدهم يستأهلون، أجل، وشقيقتي، أين هي سولانج، شقيقتي، أين هي؟

ثمّ يسكت صوته فجأة وينكسر في نظرة احتقار باتّجاهي: إذن الأستاذ هنا. برفقة الأستاذة.

ويطلق ضحكة، أو ما يشبهها، فُواق أو صوات سرعان ما يخنقه.

ثمّ الصّمت من جديد.

ثمّ صوته القويّ جدّاً الذي عاد من داخله ربّما ليثير الخوف، ولكن أيضاً وخصوصاً لتسمعه سولانج التي كانت تتأخّر في القدوم: ماذا تفعل سولانج في

المطبخ؟: الحفلة على شرفها وهي في المطبخ، ألا تستحيون من تركها تحضّر كلّ شيء وحدها في المطبخ، يا لكم من كسالى! وأنت يا أستاذ ما رأيك؟

وصار يتكلّم بصوتٍ يزداد قوّة، صوتٍ مرتجف ولكن ليس فيه أيّ تذبذب، لم يتردّد للحظة عندما تعلّق بحروف اسم شقيقته مستقياً منها القوة للتشبّث ومعاودة الصعود بصوته المكسور رغم قوّته كما لو كان يتشبّث بيديه، بملء يديه: سولانج، أين سولانج؟

لم تكن سولانج قد أتت، تأخّرت، هذا صحيح، وعندما أتت، عندما تقدّمت صوبنا كان يرافقها بانجو وشفراوي، واحد يحمل النبيذ والآخَر طبقاً من الإينوكس فيه لحم مشويّ. تقدم برنار إلى مدخل المطبخ. ببطء وثقة. شفراوي يحمل طبق الإينوكس. الأطباق التي استعاراها هو وسولانج من مطعم المدرسة الابتدائيّة حيث عملا طوال سنوات في تقديم الطعام للأطفال.

ثمّ.

لأنّ شفراوي ظهر فجأة أمامه، هكذا في حقله البصريّ. مثل صورة مستحيلة جاءت تعكّر الواقع. أكان شفراوي يبتسم أم لا، سيّان. لا يمكننا أن نعرف. فنحن نعرف من قبل. نعرف منذ البداية. أعني، وهذه مسألة أخرى، منذ زمن طويل. مسألة مثل هذه تأتي لتتسلّل إلى هذه اللّحظة من تاريخنا وتعكّرها، حيث تظهر هكذا فجأة، مثل حسابٍ عمره أربعون سنة يجب دفعه، أربعون، بعمر رجلٍ صار قادراً أن ينظر إلينا ويقول: لا، لم ينته الأمر، كنّا نعتقد أنّه انتهى ولكنّه لم ينتهِ.

ثمّ صوت «شعلة الحطب» يقول لسولانج بصوتٍ جهوريّ: هو، هو، يمكنه أن يكون هنا. يحقّ له أن يكون هنا، هذا الـ... يحقّ له هو، أمّا أنا...

أفلتت سولانج ما كانت تحمله على الطاولة، وسُمع صوت ارتطام الإينوكس على اللّوح السميك الذي ارتجّ على ركيزته: برنار، توقّفْ.

هو يمكنه أن يكون هنا. هو، الـ...

توقّفْ.

هو، هذا المغاربيّ القذر!

ولم تدعه سولانج يكمل، قفزت صوبه وصرخت اسمه: برنار، برنار، لن أسمح لك بأن تُكمل، اخرج فوراً، اخرج. وكانت الدموع تملأ عينيها وصوتها منكسر، انكسر في حين لم يتفوّه شفراوي بكلمة، وبقي حائراً، واستدارت هي صوبه مُحرَجةً ومضطربة.

سعيد، لا تعره اهتماماً، الأمر غير مهمّ.

لم يُجب شفراوي. واكتفى بوضع الطبق في وسط المائدة وناول الملاعق لأقرب شخص لكي يتمكّن من أن يصبّ لنفسه، وهذا كلّ شيء تقريباً.

لم يتحرّك وجهه. ولم نلمح عليه أيّ تعبير.

ولوهلةٍ اعتقدنا أنّ المسألة انتهت عند هذا الحدّ وأنّ «شعلة الحطب» سيتراجع.

ولكنّ جسـده اندفـع إلى الأمام وذراعيـه المنبسطتين امتدّتا بعيداً، مشدودتين، ولم تكـن يداه قـد انضمتّا لتصيرا قبضتين بعـد بـل كانتا مفتوحتين مثل حيوانين جائعين لا يمكنه السيطرة عليهما، وكان يُريعه هو نفسه أن يرى يديه طليقتين وقويّتين تتصرّفان بهذه الشاكلة وتطولان حتّى تصلا إلى شفراوي الذي تراجع من هول المفاجأة، ورأينا انزعاجه وغضبه، واستمرّ بالتراجع، ليس قليلاً هذه المرّة بل أكثر من متر، بشيء من الاشمئزاز، لكي لا تمسّه يدا برنار، المُقرف، برائحة الرّماد المعشّشة تحت أظافره السوداء، «شعلة الحطب» - يستحيل أن تنبعث رائحة دخان الحطب من أحدهم بمثل هذه النتانة - وهذا الوسخ، هذه الأظافر، هذا الجلد الورديّ السحنة، المتشقّق حتّى اللّحم الحيّ، وهذه القذارة التي تكاد تكون في هذه اللّحظة أكثر إثارة للخوف من اليدين اللّتين تقتربان منه. والنظرات أيضاً. والجسد المندفع إلى الأمام.

والكلمات: مغاربيّ حقير. من سنوات وأنا أرغب في أن أقول لك شيئاً. سأقوله. أرغب في تحطيم وجهك. مغاربيّ حقير.

كفى.

كفى.

لكنّه لم يعد يسمع شيئاً. وإذا بسولانج تتوسّط بين الرجلين دافعةً «شعلة الحطب» بلا تفكير: هذا يكفي، اخرج الآن، برنار، اخرج، رابو، ساعدني.

وفي الخلف أصوات، أصوات أخرى لنساء ورجال، للأشقّاء والأقرباء، لا شيء إلّا أصوات نحفظ عن ظهر قلب جرسها وإيقاعها ولكناتها، تتطاير فوق المائدة لتضع حدّاً للمشكلة وتنزع الفتيل وتهدّئ النفوس: أوقف ترهاتك يا «شعلة الحطب»، هنا ما من عرب قذرين!

عندنا، أتفْهم يا «شعلة الحطب»؟

«شعلة الحطب»!

أنتَ لم تكن تبصق عليهم في الماضي، هؤلاء العرب القذرون.

وكمَن استفاق فجأةً، انصرف عن شفراوي ليفتّش عمّن تكلّم: من قال هذا؟

وعندما أدار رأسه كرّر: من قال هذا؟

الأقدام السّود [3]، الأقدام السّود ليسوا عرباً.

دام الأمر ثانية واحدة. ولثانية حلّ صمتٌ غريب أشبه بالحياء في لحظة اكتشاف جسدٍ عارٍ: الرّجفة في صوت «شعلة الحطب» وصورة المرأة التي أحبّها ذات ماضٍ بعيد قبل أن يتحوّل من برنار إلى «شعلة الحطب».

لم يكد الأمر يدوم ثانية واحدة.

بعدها تردّد مرّة ثانية، استجمع أنفاسه، تطلّع حوله، بحث عن متّكأ، مترنّحاً مثلما يفعل سكران عندما يفكّر فيتمايل في عقله أكثر ممّا في جسمه. برهة من الحيرة، نوعٌ من العودة للذات ربّما. ثمّ فجأة، ظهرت أمامه سولانج وفي يدها العلبة الزرقاء الصغيرة.

خذ هذه وارحل.

لا.

خذ، خذها، برنار، لم أعد أريد أن أراك.

ولوهلةٍ ظنّ أنّها تمزح.

تجرّأ لوهلة أن يظنّ أنّه لن يصل بها الأمر إلى حدّ أن تأمره بالرحيل. ولكنّها فعلت. شفراوي لم يتحرّك. بقي على مسافة. أمّا أنا فمشيت باتّجاههما بضع

خطوات. نيكول أيضاً. وآخرون. جان جاك و«البومة». وإيفلين التي كانت قد بدأت بالبكاء.

عندها نظر «شعلة الحطب» إلى العلبة الزرقاء التي لوّحت بها سولانج في يدها أمامه، ليأخذها، ليسترجعها، ليمسكها مرّة وإلى الأبد ويخفيها وننسى أمرها ولا نعود إلى ذكره أبداً.

والمال؟ أستقول من أين أتيت به، هذا المال؟

هذا ما قالته «البومة» صارخةً تقريباً، في اللّحظة التي لم نكن ننتظر فيها إلّا رحيله. فقد كنّا نشعر أنّه استسلم وتراجع وأنّ السّدود في داخله ستنهار وتتركه فارغاً من عدائيته ومن حاجته لأن يضرب أحداً. ولكن جاء صوت «البومة». ودخل على الخطّ أولئك الذين ما كانوا حتّى تلك اللحظة قد قالوا شيئاً، وقد أغضبتهم مسألة المال والدبّوس أكثر من فضيحة الشّتائم، فرفعوا أصواتهم مطالبين بأجوبة: ممّن سرقتَ هذا المال يا «شعلة الحطب»؟ ممّن؟ من أين؟ أجِب، عليك أن تقول، عليك ذلك.

ولكنّه لم يُجِب.

لمن هذا المال؟

كان ينظر إلى شقيقته.

أجِب.

كان ينظر إلى العلبة الزرقاء.

أجِب حالاً.

كان ينظر بعينيه الفارغتين والباردتين اللّتين لم يرَ عبرهما يوماً إلّا صحراء وحدته. وبقي برهة دون أن يقول شيئاً، جامداً، ثمّ فجأةً رفع رأسه وتطلّع إلى كلّ واحدٍ من الموجودين كما لو كان يجيبهم فرداً فرداً بإيماءة من رأسه، رافعاً ذقنه، لا يجيبهم بغير الاحتقار. ثمّ حصل كلّ شيء بسرعة، مدّ ذراعه وتناول أوّل ما وقعت عليه يده، كأس نبيذ، ممتلئة تقريباً، أمسك بها ورماها أمامه، سكب محتواها فقط في البداية محتفظاً بها في يده، قبل أن يرميها بعيداً إلى أقصى الجهة المقابلة فتحطّمت الكأس طبعاً - ولكن أشدّ وقعاً من شظايا

الزّجاج كانت شظايا الأصوات وكيف استقام الجميع ورأوا النبيذ وبقعه المتناثرة على شفراوي وكذلك على سولانج، على كنزتها ذات اللّون الأبيض والأصفر التبْنيّ.

ثمّ تسارع كلّ شيء. ركض الرجال صوبه.

بقيت سولانج حائرة لبرهة، وحيدة وسط مدعوّيها، غارقةً في وسطهم ومضطربة طوال بضع دقائق إضافية، قبل أن ترانا، أنا (وقد بقيتُ على مسافة، جسدي يرفض بوضوح أن يتقدّم، مستحيل أن أمدّ يدي على «شعلة الحطب»، مستحيل بالنسبة إليّ)، والآخرين، بعضاً منهم، أقرباء وأصدقاء، بوجهها الشّاحب وعينيها الدامعتين وهيئتها المفجوعة وتعابيرها المنهزمة وكنزتها المبقّعة، المثيرة للشّفقة والتي ستذهب لتبديلها لكي تكون وحدها وربّما لتبكي أيضاً وفي نفس الوقت تستعيد رباطة جأشها وتعود وتبدأ من جديد، رغم كلّ شيء، رغم هذه اللّحظة العصيبة التي رأتهم فيها جميعاً متجمّعين حول «شعلة الحطب» لإرغامه على الخروج بالقوّة، فيما هو يقاوم - ولكن بلا صراخ، وبلا أدنى كلمة، مكتفياً بتوجيه اللّكمات، تاركاً جسده يهبط على الأرض بينما يشدّونه من ذراعيه وسترته، يقاوم بتشبّثه بالأرض وباللّكمات، بعض اللّكمات التي تصيب دون أن يجرؤوا على ردّها، فهو متين البنية وعنيد وهم يعرفون أنّه لن ينسى وأنّه سيتعرّف على كلّ من وجّه له لكمة، لذا كانوا يخشونه، فيما راحوا يخرجونه ويرمونه ويقفلون الباب خلفه ليتركوه وحيداً عند المدخل بوجهه القبيح وجسده الضخم وعنقه الغليظ وانطوائه واحتقاره لنا حتّى آخر لحظة، اللّحظة التي استقام فيها عند المدخل ونظر إلينا من دون حراك، ومن دون قول كلمة.

ثمّ رحل.

بعد ذلك حلّ وقتٌ متذبذب غابت سولانج خلاله حوالى نصف ساعة. وجرى هذا الشطر من الوليمة من دونها. وأخيراً، عادت هي وغادر شفراوي وبانجو.

ثمّ في آخر النهار، أي عندما حلّ المساء، وصلوا.

كان اللّيل قد حلّ والثلج عاود السقوط بغزارة أكثر من الأربع والعشرين ساعة الأخيرة. جاء رئيس البلدية يصحبه دركيّان. أرادوا رؤيتي أنا. أوّلاً لأنّني عضو في المجلس البلديّ وكذلك في نادي قدامى المحاربين الفرنسيّين في أفريقيا

الشماليّة، وأعرف الجميع هنا، شفراوي وزوجته، ثمّ خصوصاً لأنّني ابن عمّ «شعلة الحطب».

لكن كيف أمكنهم أن يتخيّلوا وهم يطلبون منّي ذلك، شاعرين بالحرج من مقاطعة غداءٍ عائليّ، أقول أن يتخيّلوا أنّه يمكنني الاستماع إليهم دون أن يرفّ لي جفن وأصدّق أنّ الأمور بلغت حقّاً هذا الحدّ: لا، ما هكذا ينبغي أن تُروى القصة.

ما هكذا وقعت الأحداث على كاهلي وما هكذا واجهتُها عندما اقترح رئيس البلدية أن نذهب للجلوس في المطبخ لنتحدّث.

ولكن ماذا يسعني القول؟

أأقول نعم، هذا متوقَّع فعلاً من «شعلة الحطب»، أن يمضي مستقلاً درّاجته النارية، غاضباً وسكران في الآن ذاته، وربّما صاحياً أيضاً وشاعراً بالعدوان والوخز من جرّاء البرد والثلج يصفع وجهه، وهو ينتهج الطريق الصاعدة باتّجاه منزله ويبطئ عندما يلمح في البعيد، في المنقلب الآخَر من الحقول على هضبة المينيي، المنازل الثلاثة أو الأربعة الجديدة ومن بينها منزل شفراوي؟

أأقول نعم، سيّدي رئيس البلدية، هذا ما حصل على الأرجح؟

أرى المنْظر جيّداً، أبيض بالكامل، ولكنّه بياض باهت، ضارب إلى الرماديّ مثل خبزٍ بائت لا شكل له، ومنازل مغمورة بسماءٍ ملبّدة وطريّة وتحتها السّهول والغابات الصلبة والحادّة مثل الرّخام، والمثلّث الطويل من الآجرّ المغطّى بالأبيض يتّجه صعوداً صوب المينيي وفي أسفله منزل العجوز ودخان المداخن يخلط لون الوقود الرماديّ بلون الغيوم المغبرّ، ثمّ هو، في البرد، بوجهه الأحمر الضارب إلى البنفسجيّ، وبكتفيه البيضاوين والخوذة والدرّاجة النارية، كلّ شيء، والنظرة التي جمدت لبرهة في الجهة المقابلة. هذا ما يجب رؤيته. ما كانوا يريدونني أن أراه. أن أرى «شعلة الحطب» متردّداً. وأن أقول لنفسي: توقّفَ بدرّاجته النارية، في جزء من الثانية، أو خلال بضع ثوانٍ مرميّةٍ في الهواء، لا بدّ أن يكون شعر برغبة مبهمة في الانتقام. هذه هي الفكرة التي أرادني رئيس البلدية والدّركيّان أن أسمعها.

قلت لهم: مهلاً، مهلاً. أريد أن أفهم. أخبِروني من البداية. أهذا ما تعتقدونه؟ أن يكون قفل عائداً وقصد منزل شفراوي؟

أتعتقدون أن فكرةً مثل هذه يمكن أن تخطر له على بال؟ لا إطلاقاً.

هذا ما حصل.

لا.

هذا ما أقوله لكم.

إنّه مجنون ولكن ليس إلى هذه الدرجة.

وأخبروني كيف استدار راجعاً بدرّاجته النارية وهبط مجدّداً صوب المفْرق الثلاثيّ، رأوه من منزل روندو، تعرفه، قالوا لي، روندو، هذا الذي يمضي حياته واقفاً إلى النافذة، رآه في منتصف الطريق، في الأعلى، صاعداً باتّجاه منزله والثّلج ينهمر بغزارة، قبل أن يتوقّف فجأة، وحده، هكذا، بلا سبب، ثمّ استدار وقفل عائداً نزولاً، مارّاً من أمام منزل روندو تحديداً، لا لكي يرجع إلى القرية بل لينتهج المفْرق الآخَر باتّجاه المنازل الجديدة. رآه روندو يعبر، يتردّد قليلاً قبل أن يلتفّ عائداً ويتطلّع ليرى إن كان ثمّة واحدٌ قادماً. كلّ الأشياء تتطابق. فضلاً عن تلك القصّة، ما حصل بعد الظهر يا رابو.

أيّة قصّة؟

قصة الحلية أو شيء من هذا القبيل.

من أخبركم بهذا؟

شفراوي. رابو، أنت لن...

لا، لا، في الأمر خطورة. ولكن مع ذلك مهلاً.

لماذا مهلاً؟

ثمّ قال الضابط مينار: ما حصل هو أنّ شفراوي حضر إلى المخفر في نهاية العصر.

وروى مينار أنّه عندما وصل إلى المخفر، وجد شفراوي جالساً ويداه على ركبتيه على كرسي مقابل مكتب الاستقبال. كان جامان يطبع تقريراً تافهاً كما

لو كان معتاداً، في مدينة من أربعة آلاف نسمة، أن يرى رجلاً يدخل مسرعاً إلى المخفر، مرتبكاً وشاحباً ومصعوقاً لا يصدّق تماماً ما رآه وأتى ليخبره.

لذا عندما رآه مينار جالساً بكلّ هدوء، أو بالأحـرى بكلّ انصياع وتسليم وهو يعيد ويكرّر أنّ الله وحده يمكنه أن يعلم ما كان يمكن أن يحصل لو لمْ يكن قد وعد ابنته بالعودة باكراً إلى البيت لمشاطرتها حلوى عيد ميلادها، بينما يتابع جامان طباعة محضر غير ذي أهميّة كان يمكن، لا بل كان يجب تأجيله، لم يستطع احتمال الأمر في تلك اللّحظة. وكان هذا كافياً ليشعر مينار بالغضب تجاه جامان وكذلك تجاه شفراوي وإن بقدرٍ أقلّ. وما كاد مينار يسأل جامان هل سجّل معلومات شفراوي الشخصية، وهل قدّم له كوب ماء أو قهوة أو أيّ شيء، وأبلغ عن وجوده وقام بما يجب القيام به (وهنا لا بدّ من الإشارة إلى تبرّم مينار من الوقت الذي استغرقه جامان على الأرجح قبل أن «يزعجه» كما قال، «آسف لإزعاجك في وقت استراحتك سيّدي، ولكنْ ثمّة شخصاً يُدعى... إلخ.») حتّى قام شفراوي وتقدّم باتّجاه مينار، معتذراً لإزعاجه في يوم سبت. أجل، معتذراً لهذا السبب، هو، في هذه اللّحظة بالذات.

يا لهدوء شفراوي!

وصوته وهو يقـول لي أن آتي. أن آتي حالاً. أن آتي، قـال مينار، يجب القبض على المجنون.

وكان عليه أن يفهم كلماتٍ تُلفظ فقط لتذليل الخوف لا ليفهمها مينار، بشاربيه الصغيرين وخدّيه المجوّفين قليلاً وتسريحته المنتصبة، ومنصبه رئيساً للدّرك ورُتَبِه وشعاراته الرسمية وجمهوريّته وزنازينه التي لم تُستخدم يوماً إلّا لإزالة سُكْر بعض الرعناء الذين يمنعهم سكرهم من القيادة حتّى منازلهم، أو لاحتجاز بعض المراهقين الذين قُبض عليهم وهم يحاولون فتح بوابات فيلّات صيفية ممنوعة على الزوّار؛ أن يفهمها لا ليردّ عليها أو ليغيّر بشأنها شيئاً، وبشأن الخوف الذي كان شفراوي يعرف أنّه يتلبّسه مثل وجهٍ ثانٍ بدلاً عن وجهه.

مهلاً، لا أفهم.

ما الذي لا تفهمه يا رابو؟

تقول لي إنّ «شعلة الحطب»...

أخبرني شفراوي بحادثة بعد الظّهر. كيف سكر ابن عمّك والفضيحة التي أثارها. نريد أن نعرف إن كنت تؤكّد هذا الكلام.

مهلاً، إن كنتُ أؤكّد. إن كنتُ. أن. تريدون أن. منّي أنا، أن أقول. وأن أؤكّد نعم، هنا، ما جرى هنا. لن نتكلّم بهذا هنا، ليس هنا، هذا مستحيل. لن نفعل.

كلّا.

اقترحتُ أن نكمـل الحديـث في حانـة باتو. وهناك جلسـنا وتابعنـا الحديث. طلبنا قهوة، لم يجرؤ باتو وجان مارك أن يسألانا لمَ كنّا هناك، أنا والدركيّان ورئيس البلدية، في تلك الساعة، القلق على محيّانا وهيئتنا على الأرجح تثير الخوف.

ولاحقاً، عندما اتّفقنا على ما يجب عمله طلبنا من باتو أن تنضمّ إلينا. ولكن كنّا آنئذ نتحدّث بهدوء وبصوتٍ يكاد يكون خفيضاً. كنّا نتحدّث، وكنتُ أستمع إلى مينار يروي كيف استقلّوا سيّارة الدرك وتوجّهوا إلى المكان. وكان يمكن أن نستشفّ في صـوته الانزعاج البـاقـي والغضب المكتوم تجاه شفراوي لأنّه، وبصورة غريبة، لم يُبدِ، لا، تعاوناً كبيراً من فرط تكتّمه وبقائه صامتاً لا يفعل سوى أن يعيد ويكرّر قصّة الحظّ تلك، الحظّ، وعيد ميلاد ابنته الذي لولاه لما رجع باكراً.

وأنا، قال مينار، غضبتُ منه في السيّارة وطلبتُ أن يتكلّم، أن يحكي، أمّا هو، فلم تصدر منه إلّا همسة كما لو كان خائفاً ممّا يقوله.

ركضتُ، حاولتُ إيقافه.

كان هناك دم، رأيتُ دماً.

واضطرّ مينار لأن يروي كيف أنّه عندما دخل المنزل لفحته رائحة «شعلة الحطب» منذ المدخل. كانت هنا، تلك النتانة، حتّى إنّه عندما خرج سأل شفراوي بأيّ وسيلة يتدفّأ الرّجل. وبقي الأخير صامتاً بعض الوقت قبل أن يتكلّم وتفلت منه جملة واحدة: إنّها رائحته.

وتكلّم مينار. كان صوته يـروي لا ما رآه هو، بل ما وجده شفراوي عندما وصل إلى منزله عائداً من صـالة الحفلات. روى كيـف دخـل شـفراوي باحة منزله باتّئاد لأنّ فتحة البوّابة لم تكـن واسعة بما يكفي خصوصاً عندما تُثلج. ثمّ خلف صفوف شجيرات التويا وخلف البوّابة البيضاء التي موّهها بياض الثّلج، رأى

الباحة، تلك الباحة البيضاء هي أيضاَ، وفي آخرها، رأى درّاجة «شعلة الحطب» ملقاةً بالقرب من أسفل الدّرج.

تردّد شفراوي لبرهة، لا بالنزول من سيّارته - فهذا لا بدّ أن يكون حصل بسرعة لأنّه لم يتوقّع أن يجد الدرّاجة هناك. ولكنّ تردّده كان بخصوص الخطوة التي يجب اتّخاذها وما يجب فعله. هل يصعد إلى المنزل راكضاً، يفاجئ «شعلة الحطب» على غفلة ويهجم عليه بقوّة، بكلّ قواه، بذراعيه وظهره المشدود، وينحني على السكّير بلا نقاش، يمسكه من ياقته ويسحبه صوب الباب ثمّ يرميه خارجاً حتّى لو وقع من أعلى الدّرج وتحطّم وكسر رأسه وعظامه وانتهى في الأسفل، في الباحة حيث سيتكفّل الثّلج بإيقاظه تماماً وتبديد سكْره أو قتله؟ هل يفعل هذا دون أن يفكّر هل سيلقى من «شعلة الحطب» مقاومة، فهذا الأخير قويّ ويمكنه أن يقاوم حتّى لو كان ثملاً، ولكنّه قد لا يفعل إذا ما أتاه على حين غرّة؟ أو ربّما عليه بالعكس أن يكون حذِراً ومتنبّهاً.

ولكنّه لن يتخيّل ما هو أسوأ، هذا ما فكّر فيه شفراوي على الأرجح ليُطمئن نفسه، قال لنفسه إنّه أمرٌ مزعج لا أكثر، لا يمكن ولا يجب أن يكون أكثر.

لا بدّ أن تكون الدرّاجة التي لم يتكبّد برنار عناء إبقائها مستندة إلى دِعامتها والتي وجدها شفراوي واقعة ومستلقية على خِرجها، عجلاتها ثابتة لا تدور في الفراغ، متوقّفة تماماً، وقد غطّاها الثّلج بطبقة محبّبة رقيقة من نثارٍ شديد البياض وغير متناسق، لا بدّ، راح يفكّر، أنّها دليلٌ على تعجّله وارتباكه بسبب الكحول لا أكثر، ولا دخل لها بجنون رجلٍ وعِناده وتصميمه، رجل يعرف ماذا يريد أن يفعل وسيفعل ما يريد بسرعة ومن دون وازع.

وصعد شفراوي إلى منزله، لا عبر الطابق السّفليّ كما كان يفعل عادةً ولكن من المدخل الرّئيس، مستخدماً الدّرج كما فعل الآخَر على الأرجح، وفي اللّحظة التي بدأ فيها بصعود الدرج الذي ارتقاه «شعلة الحطب» قبله، شعر شفراوي بخوف صار يتزايد مع كلّ درجة، وبضغط الدم يعلو في رأسه وحرارة الخوف الغريبة تصطدم بالبرد في الخارج، إلى أن وضع يده على مقبض الباب.

قلبه الذي دقّ وخبط وضرب، ثمّ الصّمت. أنعشه هذا الصمت. عندما فتح الباب. ودهشته عندما اكتشف أنّ الباب مقفلٌ من الداخل. واضطراره لإخراج المفتاح من جيبه وفتح الباب. والرجفة التي اعترته ورؤيته لنفسه وهو يقوم بوضع المفتاح في القفل ويُديره ثمّ يُعيده إلى جيبه (هو الذي لم يكن يستخدمه تقريباً أبداً). كان يمكن أن ينادي زوجته أو أطفاله أو حتّى الكلب فقط. وفوجئ وهو ينظر إلى المفاتيح بكونه يعجز عن ذلك. دخل ببطء، ببطء شديد رغم

ـَ

رائحة الحطب المحروق القويّة والحرّيفة، رائحة الفحم التي تلفح الأنف فوراً مخلوطة برائحة الكحول النتنة.

بقي للحظةٍ ذاهلاً لا يتحرّك. جامداً ومستقيماً. حبس تنفّسه لثانية ثمّ مشى.

الرِّواق أوّلاً. والصّمـت. تكّات السّاعـة في المطبـخ، والمطبـخ، هنـا، مباشرةً إلى يمينه، حيث لم يدخل ولكنّه اكتفى بإلقاء نظرةٍ سريعة لاحظ فيها أنّ المكان نظيف والصحون المجلوّة مُنشَّفة ومرتّبة وحمّالة الأواني فارغة جافّة، الشرشف لامع على الطاولة حيث الصحون الصغيرة والعلبة التي توضع فيها شموع أعياد الميلاد، والرسائل على البرّاد، وانعكاسات قوس قزح قناني الكحول والعلامات الدائرية التي تركتها خرقة التنظيف على الأثاث.

ودائماً، الصمت.

والصمـت أيضاً وهو يمرّ من أمـام باب الدّرج المفضـي إلى الطابـق السفليّ. وأكمل. انعطف عن يساره، دون أن يُسرع، ودون أن يسمع الصوت الداخليّ الذي يقول له أن يركض ويصرخ بأسماء أولاده وزوجته، والصوت الآخَر الأكثر انخفاضاً والذي لا يستسلم للفزع ولكن الأكثر تفاجؤاً ربّما لكنّ الكلب لم يأتِ لملاقاته ولم ينبح. كان يمشي ببطء وصدى خطواته يرنّ في داخله مثل الأفكار التي تعبر أمام عينيه، رجراجة كالثّلج في الخارج.

كان بابا الحمّـام وبيت الراحة عن يساره مُغلقيْن. كذلك كان باب غرفته قبالته شأنه شأن باب غرفة ابنته.

وحده باب غرفة الصبيّين كان مفتوحاً.

وهناك وجدهـم ثلاثتهـم. البنـت جالسـة على طـرف السرير تحتضن الصبيّ الأصغر بين ذراعيها. بينما يقف الكبير مديراً ظهره ومتطلّعاً من النافذة. ركض صوبهم وارتموا ثلاثتهم بين ذراعيه - لا، ليس ثلاثتهم، فالابن الأكبر بدرت منه حركة التفافٍ خفيفة ثمّ عاد فوراً لينظر بعيداً صوب الحديقة، إلى نقطة محدّدة لا يفارقها، لم يستطع أن يفارقها بينما كان شقيقه وشقيقته يركضان صوب والدهما.

البنت - أتمّت سنتها الثالثة عشرة أمس - حرون وعنيدة، تعجز عن ترك شقيقها الصّغير والكفّ عن تمسيد شعره كما لو لتطمئن نفسها، وعن الهمس بأنّ كلّ شيء بخير، كلّ شيء بخير، سيرحل، سيخرج، وماما: ماما،

وأفلتهما شفراوي دون أن يسمع صوت الصغير وهو يهمس أنّه خائف بينما تربّت شقيقته عليه بشكل خانق ولجوج وتؤرجحه كما في صلاة: لا بأس، كلّ شـيء على ما يرام، كلّ شيء بخير، سيرحـل، سيخـرج، وماما،

ماما!

واقترب شفراوي من النافذة، وفجأةً، في اللّحظة التي اقترب فيها وقبل أن يتمكّن من أن يرى أو حتّى أن يلمح فقط ما كان ابنه ينظر إليه بإصرار، سمع صوت الدرّاجة في الباحة - كان يُسمع الجهد وضربات الدوّاسة لحثّها على الانطلاق ولكنّها، في هذا البرد، لا تستجيب.

وبلا تفكير أو حيرة، ركض شفراوي صوب الباب وارتمى في الخارج بلا تردّد غير آبهٍ بالبرد أو ببياضه وانعكاسه الذي أبهره للحظة، لبرهة قصيرة من الوقت كان «شعلة الحطب» خلالها في أسفل الدرج منحنياً على درّاجته التـي كان قـد رفعها وركّزها على عكازهـا فكانـت تقف بتوازن، فيما عجلتها الخلفيّة مرتفعة وتدور في الفراغ، وهو منحنٍ إلى الأمام يدوس ويدوس وهو شبه واقف حتّى يشتغل المحرّك والبنزين، حتّى نسمع المحرّك يفرقع قليلاً ويخرج الدخان من العادِم. ولـمّـا رفع «شعلة الحطب» رأسه ورأى شفراوي يطلّ عليه من أعلى درج المدخل ثائراً هذه المرّة، ينظر إليه، انطلقت الدرّاجة تاركةً مسندها ومنزلقة على الثلج، وقد نسي «شعلة الحطب» أن يشدّ الكابح، فدارت العجلة بسرعة وقوّة شديدتين ومسّت الدرّاجة الأرض فيما دفعتها العجلة الحرّة بسرعةٍ قويـة في خطٍّ متذبـذب، و«شعلة الحطـب» يحاول بذراعيه الممدودتين وصدره المشدود للخلف أن يستعيد السيطرة عليها، ولكنّ شفراوي كان قد وصل إلى مستواه تقريباً لامساً ذراعه والدم الدبق يلتصق بيده، ثمّ خبط «شعلة الحطب» قدماً على الأرض دافعاً بعقبها ليُطلق المحرّك الذي كان يتلكّأ ويُبطئ ويتعتع غائصاً في الثّلج والحفَر فيما الحجارة تتطاير وبعضها يصطفق كالرّصاص على حديد السيّارة، الدخان الأبيض خلف العادِم ويد شفراوي المطبقة على ذراع «شعلة الحطب» وصرخاتٍ يكتم بعضَها ضجيج المحرّك، والاندفاع بات أقوى و«شعلة الحطب» بات أقوى كذلك وهو منحنٍ على درّاجته الناريّة بحيث يشكّل زاوية مستقيمة ليزيد من سرعته، ممّا أرغم شفراوي على أن يركض، أن يمدّ ذراعيه ويحاول ركل جنبي الدرّاجة ليهزّها أو يُفقدها توازنها أو يوقعها أو يغيّر مسارها ولكن من دون جدوى.

ولم يفهم إلّا لاحقاً كيف دخل «شعلة الحطب» في البداية إلى المنزل من المدخل، دون أن يطرق الباب، ليجد نفسه لبرهةٍ وحيداً مع رائحته النتنة وهي

تجتاح المكان حوله. كما لو أنّه لمس المساحة بكاملها واستولى عليها.

ثمّ ظهرت زوجة شفراوي. لا. فهمت بالأحرى أنّ أحداً دخل إلى منزلها بلا إشعار، دون أن يدقّ الباب، شخصاً سمعت صوت درّاجته النارية وخطواته على الدرج يرافقه البرد وصوت تنفّسه قبل رائحته النتنة. فكّرت فوراً بزوجها ثمّ قالت لنفسها: لا، ليس هذا زوجها.

فوجود شخص غريب مسألة نعرفها بالحدس، نخمّنها.

قالت للأولاد أن يبقوا في الغرفة وألّا يتحرّكوا. ولم يتحرّكوا. حتّى عندما سمعوا صوت أمّهم تسأل الغريب عمّـا يفعله هنا، وسمعوه يجيب بعد لأيٍ، فهو لم يُجب على الفور، بل بقي ساكتاً لا يقول شيئاً، لا يتكلّم، مفسحاً لها المجال لتُفاجأ أكثر.

ومن الغرفة، لا بدّ أنّ الأطفال فكّروا أنّ الرجل لم يأتِ ليتكلّم، بل أتى لأمرٍ يجهلونه ولكنّه سرعان ما أثار خوفهم، لا سيّما الصغير لأنّ شقيقته وشقيقه أمسكا به عندما أراد اللّحاق بأمّه وقالا له: لا، لا تتحرّك،

فيما ارتأت الشقيقة أن تضع يدها بقوّة على شفتيه. ثمّ تكلّم الرّجل ولم يفهموا في البداية ما يقول صوته. صوتٌ مُبهم بلا مقاطع صوتيّة. صوتٌ متقطّع اللّفظ يرتفع حيناً ويغضب ويصرخ ثمّ ينهار فجأة ويبدو أنّه ينطفئ أو يهبط في ضحكةٍ هازئة طويلة وكئيبة ومستكينة.

دام الأمر طويلاً جدّاً. ظنّوه دهراً، لأنّ الصمت كان يحلّ أحياناً، مثل لحظات ميتة، زوايا ميتة، لا شيء سوى الصمت، العدم، فجوة، كما لو أنّ الأمر انتهى ولم يبدأ أصلاً.

ثمّ كان صوت الرّجل يستأنف هديره. أو صوت الأمّ. أو لا هذا ولا ذاك، بل تنهيدة أو حركة أو جسم يتنقّل كانوا يعرفون فوراً أنّه ليس جسم أمّهم بل شيء ما سميك وعنيف. بدا الزمن طويلاً جدّاً، بلا انتهاء. لم يتفوّهوا بكلمة ولم يكد الأخ البكر والأخت يتبادلان النظرات أو يفتّش الواحد منهما في الآخَر عن أجوبة لأفكاره أو عن تأكيدٍ لها، هذه الأفكار التي سرعان ما كان يمحوها صراخٌ يأتي ليوقفها فوراً. فيصيخون السّمع ويتساءلون صوت من هذا، من هو هذا الغريب، وماذا يريد، قبل أن يتّخذ صوت الأمّ مدىً أوسع ويصل إليهم في الغرفة ليُدفئهم قليلاً ويطمئنهم. لأنّهم سمعوا الباب يُفتح.

هيا، اخرج فوراً.

آنئذٍ تخيّلوا أمّهم منحنية على الغريب بل ممسكة به لتدفعه خارجاً، لأنّ الباب بات مفتوحاً، سمعوه يُفتح حتّى أنّ البرد تسلّل إلى الغرفة ليخز أقدامهم في الأخفاف ويصل إلى وجوههم، إلى يد الفتاة الموضوعة على فم الأخ الصغير. ثمّ صوت الباب الذي يغلق أخيراً. وصوت المفاتيح وهي تقفله. واليد التي تفكّ قبضتها. الأصابع التي ترتخي. وعلامات الأصابع على بشرة الأخ الصغير المحمرّة. ثمّ أمامهم أمّهم، غاضبة ومنهارة في الأوان ذاته، وراضية لأنّها نجحت في إخراج الدّخيل، ولا تزال متفاجئة، لا مرعوبة بل غاضبة.

من كان هذا؟

لا جواب. نظرها ضائعٌ على أطفالها. على رأس الصغير الذي جاء يلوذ بها. وصوت ابنتها: من كان؟

وصوت ابنها البكر: من كان؟

لم تُجِب فوراً وفتحت عينيها على سعتهما، وارتسمت على وجهها ملامح القلق والحذر مثلهم.

اسكتوا.

ولكنّ الصغير كان يمدّ يديه ويلتصق بها متمتماً وباكياً، فيما أخته تقول له أن اسكتْ، انتهى الأمر، انتهى، وتضيف هي: هس! اسكتوا.

والأخ البكر يتطلّع إلى أمّه ثمّ يلتفت وينظر من النافذة ويرى الكلب، الكلب الذي أسرع صوب الطّابق السفليّ.

اسكتوا. إنّه هنا.

لم يرحل.

وآنئذٍ نبح الكلب.

بلا هوادة. بلا توقّف. أمرت زوجة شفراوي الأولاد أن يبقوا ثلاثتهم هناك ولا يتحرّكوا.

لم يرحل.

ذهبت إلى المطبخ، ومن هناك، من شبّاكه، رأت الدرّاجة النارية مطروحة أرضاً، والثلج يرقص في السماء الرمادية. سكون الثلج وهذا البطء وفي المقابل الكلب ينبح ويصير أكثر فأكثر تهديداً.

ثمّ سمعوا ضجيجاً، وصوت الباب وهو يُفتح.

وفجأةً صوت حديد وخشب وأدوات تتلاطم وتقع. الحديد والخشب على الإسمنت. والكلب مستمرّ بالنباح والرّفس وقد ثارت ثائرته فجأة. هذا ما فكّرت فيه: أنّ الكلب هائج وأنّه على وشك أن يعضّ. لم تقدر أن تفكّر في ما يجب عمله. كانت تتخيّل الرّجل في الأسفل. كما لو أنّ نتانته ألغت كلّ إمكان للبحث والتفكير والفعل. دام الأمر على الأرجح وقتاً طويلاً. كم من الوقت بقيت في المطبخ لا تتحرّك؟ تنظر إلى الثلج يغطّي الدرّاجة النارية. وتسمع نباح الكلب والأشياء التي تقع وتغادر أماكنها.

وفجأةً كفّ نباح الكلب، وحلّ محلّه أنين مرعب، حادّ وطويل، طويل إلى درجة أنّه عندما كفّ استوعبت الأمّ أنها لم تعد تسمع شيئاً، ولا أيّ صوت، ولم تنتبه للغضب الذي تصاعد فيها وللكره الذي انفجر فجأة فاندفعت من دون تفكير خارج المطبخ وأسرعت صوب باب الدرج، وأشعلت الضوء وقامت بالحركات المعتادة كأن تقفل الباب خلفها وتنزل لا مواجهةً تماماً وجهها في مقابل الدرجات بل مواربة، إلى جنب، ببطء، يدها اليمنى على الدرابزين الحديديّ وهي تنظر إلى قدميها وإلى الدرجات، ولا تعرف بعد أنّ الكلب في الأسفل عضّ «شعلة الحطب» في يده لأنّه أراد أن يُسكته، أن يسدّد لكمة إلى خطمه، فما كان من الكلب إلّا أن عضّه. فانهال «شعلة الحطب» عليه ضرباً ولم يعد الكلب يحاول العضّ دفاعاً عن نفسه بل ليهرب وليتفادى اللّكمات التي يتلقّاها. وسرعان ما قادته اللّكمات للخروج من الباب الخلفيّ. لأنّ «شعلة الحطب» تناول لوحاً خشبياً أو آلةً، شيئاً ما ثقيلاً لم يتطلّع إليه وهو يضرب ويضرب حتّى يتوثّب الغضب في داخله فرحاً إذ يرى نفسه وقد أُثيرَ وكوفئ أخيراً بعد انتظار طويل جدّاً، والكلب على وشك أن يخمد نهائيّاً، طريحاً أو بالأحرى خائراً على الثلج، في الخارج، قبل كومة الحطب بقليل.

لم يمت الكلب.

ولـمّا تركه «شعلة الحطب» في الخارج ولم يعد يعيره أهميّة، لم يرَ من نافذة الغرفة في الأعلى نظرة الولد وكيف تراجع خطوةً في اللّحظة التي رفع فيها «شعلة الحطب» رأسه ونظر إلى يده الدامية، متفاجئاً، جامداً، يده مفتوحة وأصابعه متباعدة وجامدة هي أيضاً قبل أن يمسحها بكمّ سترته الأيسر. لم يرَ

الولد ولكنّ الولد عاود الاقتراب من النافذة وبقي كلّ الوقت الذي سبق دخول والده إلى الغرفة، واقفاً هكذا لا يتحرّك، ولا يقول لشقيقه الأصغر أو لشقيقته إنّ كلبهم الهرم كان في الخارج، في الأسفل، قرب كومة الحطب ممدّداً على الأرض يتنفّس بشكل قويّ، قويّ جدّاً، كما لو أنّه يحشرج، ينازع، وإنّ الدم يغطّيه، يغطّي شدقه وجسمه، هذا ما كان الولد يظنّ أنّه يراه من النافذة حيث رأى الرجلَ ذا اليد الدامية.

ولكنّ الرجل لم يبقَ في مكانه. دخل إلى الطابق السفليّ. نزل مجدّداً والولد سمع مثله مثل الرّجل صوتاً، صوت باب يُفتح، باب الطابق السفليّ تفتحه أمّه.

فتحت الباب ورأته - لم ترَه يهجم عليها أو ينقضّ أو يركض أو أيّ من كلّ هذا، لا شيء سوى ومضة، صورة رمادية، رائحة، الرجل ضخم رغم سواده، أجلْ خيالٌ أسود في الممرّ الرّماديّ الضيّق، والضوء الرماديّ الآتي من الباب الذي دخل منه. ولم يكد يتسنّى لها الوقت لتتكلّم حتّى أحسّت بأصابعه تغلق على معصميها. فتراجعت إلى الخلف لكنّ هذا لم يكفِ، كان هناك الأظافر السوداء، البشرة المتجعّدة، الدم، القبضتان المغلقتان، فراحت تشدّ على قبضتيها وأسنانها، الصرخة، عيناها تغمضان، هذه الصرخة لا تكفي، وتراجعت حتّى الدرجة الأولى، صعدت بضع درجات هكذا، راجعةً إلى الخلف، رغم الرجل الذي كان يشدّ أصابعه بشكل قويّ جدّاً، يشدّ أصابعه ويديه على معصمي المرأة وهي تتمتم، مكفهرّةً، بكلمات، بأفكار، الرعب في عينيها ولكن ليس على شفتيها والدم يسيل بين أصابعها من يد «شعلة الحطب» اليمنى، الدم يسيل على جلدها هي أيضاً، رأته، أوشكت أن تصرخ، ولم تصرخ، لم تصوّت أو تصيح، لا شيء، فقط حبست خوفها خلف عينيها، عقلها، برودة أعصابها، عليها أن تحافظ على برودة أعصابها، أن تحتفظ بكلّ شيء، هدوء، برودة أعصاب، سيطرة، التفكير، المقاومة، أن تحبس صراخها في حلقها، نعم، هذا جيّد، هذا ما يجب فعله، هذا ما عليها فعله ربّما بسبب الأطفال، لا تعرف في هذه اللّحظة لماذا تمنع نفسها من الصراخ ولا تحاول الفكاك من قبضته، تسحب يديها وهي تنفض مرفقيها بقوّة، كلّا، لا شيء تقريباً، تفكّر في قدميها اللّتين يجب أن تصعدا إلى الخلف، بضع درجات، تفكّر، ألّا أن تقع، ألّا أجرّه معي أثناء الوقوع، ألّا أدعه يقع عليّ بكلّ ثقله فيبقى حرّاً مسيطراً عليّ، يلمسني، يـ...، وما يمنع الصور المجنونة من أن تنهمر عليها فجأةً وتحملها وترفعها حتّى الغثيان؟ تفكّر في الأولاد، في فكرة الاغتصاب، صورٌ تعزلها، لسان الرجل، رائحته، عرقه وعرقها ممتزجين، جلداهما أيضاً وخوفهما، هما الاثنان، والاثنان بدرت منهما إيماءات سريعة وحادّة، تقطعها أصوات ونظرات، ثمّ صوتها هي الذي سكت.

وفي لحظة، فكّرت أنّه سيتردّد، وربّما يعي ويفهم ما هو بصدد فعله، ما ينوي ارتكابه، ووجهها المرتبك، ويداها اللّتان ارتفعتا إلى صدرها وآثار أصابعه على معصميها، والدم أيضاً، على معصمه الأيسر الذي لطّخ ثيابها. رأى أنّه ينزف بشدّة، وربّما انتبه إلى أنّه يتألّم وأنّ العضّة تؤلمه عندما سمعت بدورها، باستثناء تنفّسه القويّ، وتنفّسهما معاً، هنا، عند أسفل هذا الدرج الإسمنتيّ الرماديّ، مثل صوت مكتوم لباب سيّارة سرعان ما تلته دعسات أحدهم يصعد درج المدخل، دعسات يرجع صداها عبر المنزل ويصل إليهما، هناك في الأسفل، من الدرج المقابل تماماً الذي أتت تموّجاته لتقول لهما إنّ الأمر اختلف الآن، إنّ شيئاً ما تبدّل، ثمة شخص، شخص قادم.

تبادلا حينها نظرة خاطفة. هي وقد استعادت ثقتها فجأة ولو بشكل طفيف، طفيف جدّاً. وهو وقد تراجع فيما يسمع صوت دعسات ذاك الذي في الأعلى، يمشي في الأعلى، داخل المنزل.

سرعان ما سيكون هنا، أمامه.

وفجأةً ابتسم «شعلة الحطب» وهو ينظر إلى زوجة شفراوي، نعم، ابتسم ابتسامة غريبة، ابتسامة ميّتة، مستحيلة، لكي يهرب من فكّرت أنّه ربّما أراد للحظة أن يضع يديه على صدر المرأة العارم.

وعندما لاذ بالفرار، لم تتحرّك. لم تنادِ.

انهمرت دموعها تلقائيّاً مثل الأنفاس في الصدر.

كان بعيداً عنها بُعد ارتجاف يديها. بعيداً عنها بُعدَ الآثار على معصميها، وطريقتها في فتح أصابعها وإبعادها بعضها عن بعض ثمّ إغلاق قبضتيها مجدّداً لتجري فيهما الدماء. ولم تكد تسمع حينئذٍ صوت الدرّاجة النارية وهي تنطلق.

وهنا فكّرت في الأولاد، وبأنّها يجب أن تنهض وتذهب لغسل يديها وغسل دماء «شعلة الحطب» ودموعها هي.

ولكنّها لم تتحرّك فوراً.

استقامت إذ سمعت ركضاً في المنزل. وعندما سمعت صوت الباب يُفتح وصوت ارتجاج كذلك، أجل، هذا ما سمعته، فهمت أنّ أحداً ما يركض على الدرج، هناك، في الخارج: والخوف لا شيء إلّا الخوف هو ما دفعها للنهوض.

مشت في الطابق السفليّ دون حتّى أن تفكّر في إشعال الضوء. رأت الفوضى، طاولة العدّة، الأدوات، ألواحاً خشبيّة والدرّاجات مقلوبة ومرميّة.

مشت صوب باب الطابق السفليّ، وعندما وصلت إليه رأت الباحة وما عـاد فيها أحد. لا شيء. وحدها البوّابة المفتوحـة والسيّارة. ورائحة وقود الدرّاجة النارية تنتشر في الهواء. ثمّ سمعت صوت أنفاس زوجها وخطواته وسرعان ما ظهر طيفه في فتحة البوّابة.

دخل الباحة، نظر إلى زوجته، لم ينبسا بكلمة، ثمّ صعدا لرؤية أولادهما.

المساء

وماذا تنوون أن تفعلوا؟

لم تطرح باتو سؤالها علينا بل تركته يحوم حولنا، بينما يسحقنا ضوء النيون على طاولة البلياردو، ضوءٌ شديد البياض، يبيّض كلّ شيء حتّى الأخيلة.

تطلّع مينار إلى رئيس البلدية، ثمّ إلى ساعته. ثمّ التفت إليّ. تبادلنا النظرات دون أن يقول أيّ منّا شيئاً. ونظر إلى باتو.

استقام رئيس البلدية في جلسته ونظر إليّ بوجهٍ تعلوه تعابير الندم والأسف، وقال:

ما من خيار آخَر.

قالها كما لو كنتُ أنا من طرح السؤال لا باتو. أمّا هي فقالت:

ماذا تقصد؟

التفت أخيراً إليها ولكنّه لم يكرّر كلامه ولم يقل شيئاً، بل استدار صوبي كما لو ليحثّني على الكلام. فقلتُ:

لا يا باتو، ليس لديهم خيار آخَر.

فهزّتْ كتفيها كما لو لتبيّن لي أنّ ما قلتُه لن أجرؤ على تكراره. أو أنّني ببساطة عندما سمعتُ نفسي أقوله فكّرتُ: لا يمكنني قول هذا. فهذا عبث. وكما لو لتستبق ما تتخيّل أنّني أفكّر فيه، قالت بإصرار:

ماذا تقصد بقولك أنْ لا خيار لديهم؟ رابو، إنّه ابن عمّك، يجب أن تدافع عنه، كان ثملاً، ربّما لن يقيموا دعوى، ربّما لن يفعلوا. هو كما هو، «شعلة الحطب». لقد ارتكب حماقة.

تسمّين هذا حماقة؟

نعم، حماقة.

إنّها أكثر من حماقة، عقّب مينار، أكبر بكثير من حماقة.

وإذا بالدركيّ الآخَر الذي كان قد بقي صامتاً يحتسي كأسه ببطء، إذا به يرفع عينيه ويحرّك ذقنه السّمين مثل ذقن ديكٍ عندما يستيقظ ويقول:

إنّها صدمة بالفعل، صدمة للجميع.

نعم، إنّها لَكذلك، تابع رئيس البلدية.

رابو، من الأفضل أن ترافقنا.

ثمّ ارتأينا أنّ الوقت متأخّر ولا جدوى من الذهاب إلى بيته، فبسبب الثلج كانت الطريق مزدحمة بالسيّارات. كما أنّنا لسنا واثقين من كوننا نرغب في التحرّك بسرعة. بالعكس، قلنا: فلنترك اللّيل يمرّ وفي صباح الغد نقصد منزله. في حوالى الثامنة أو التاسعة.

نظرتُ إلى الساعة، وفي تلك اللّحظة تمنّيتُ ألّا أكون مضطرّاً لقبول موعد صباح الغد في ساحة الكنيسة. سنكون بانتظارك، ولن نكون وحدنا، أبلغني مينار، فنحن لا نعرف ماذا يمكنه أن يفعل أو كيف ستكون ردّة فعله. ظلّ رئيس البلدية صامتاً كما لو أنّ الأمر لا يعنيه. أمّا أنا فبقيت جالساً بضع ثوانٍ إضافية كانت كافية لتخطر على بالي جملة عدائيّة مفاجئة، لم أقلها، تدحرجت في فمي ولم أفهم لمَ خطرت لي عندما قاموا ثلاثتهم. هذه الجملة تحديداً وهذه الكلمات التي حبستُها وانفجرت في رأسي:

سيّدي رئيس البلدية، أتذكُر المرّة الأولى التي رأيتَ فيها عربيّاً؟

ولكنّني لم أقل شيئاً من هذا القبيل. ولم أنظر إلى رئيس البلدية إلّا قليلاً لأتأكّد ممّا كنتُ أعرفه أصلاً، عمره، نعم، كم كان عمره في تلك السنوات؟ هل ذهب إلى هناك؟ هل رأى؟ وهل كانت تلك هي المرّة الأولى التي يخرج فيها من دفء منزله العائليّ؟ هل غاب عن عائلته أو عن خطيبته لشهورٍ وشهور؟ هل خاف؟ هل تضايق؟ هل أمسك بندقيّة وعرف معنى تعرّق اليدين على البندقية والحرارة الخانقة؟ نعم، أعرف كلّ هذا.

أعرفُ أنّه أصغر من أن يكون عاش هذا كلّه.

كانت باتو تحدّق بالدركيَّين وبرئيس البلدية بنوعٍ من القسوة والاستياء عندما أخرج هذا الأخير محفظته فقالت إنّهم ضيوفها. ثمّ أضافت بالنبرة ذاتها ولكن بصوتٍ أرقّ هذه المرّة:

أتظنّ أنّهم قد لا يقيمون دعوى؟

سأحرص على أن يفعلوا. أرسلتُ طبيباً ليعاين الزوجة. الأولاد مصدومون وهي أيضاً مصدومة، لا يمكن السكوت عمّـا حصل.

تكلّم مينار بهدوء، بهدوء شديد، ولكن بنبرةٍ حاسمة. وطبعاً لم تُجب باتو على الفور. ذهبت خلف منضدة الشرب دون أن تنظر إلى مينار أو إلى رئيس البلدية، أخرجت سيجارة وأشعلتها، ثمّ جلست إلى جانب زوجها قرب المنضدة. وقمتُ أنا وانضممتُ إليهما. وضع مينار يده على مقبض الباب، وتمهّل قبل أن يفتح. فقالت باتو:

أعرف جيّداً أنّ هذا غير ممكن. أعرف جيّداً أنّه لا يمكن الدفاع عنه. كنتُ متأكّدة من أنّه سيقوم بحماقةٍ يوماً ما. كان يمكن أن يحصل الأسوأ. أعني...

أعرف ما الذي تقصدينه، قاطعها مينار، ولكن لا تظنّي أنّني سأغضّ نظري عمّـا جرى.

وفي هذه اللّحظة فقـط بدا رئيس البلديـة مهتمّـاً بحقّ أو معنيّاً، في اللّحظة التي كانوا يهمّون فيها بالمغادرة، عندما رمى، هكذا، بشبه لا مبالاة، أو لا، فلنقل بنبرةٍ من يقول شيئاً يثير الإجماع والتواطؤ والاتّفاق، شيئاً لا إشكال حوله، نوعاً من بديهيّة مفادها أنّ السكّيرين والمخمورين ومحبّي اللّذة، المعطوبين والطّفيليّين، أولئك الذين يعيشون على حسابنا، إذ البلدية والمواطنون يدفعون، تعرفون؛ ثمّ هزّ كتفيه قليلاً، ليس عندنا متشرّدون كثر ولا شحّاذون، لحسن الحظّ، بدا كما لو أنّه يقول، ثمّ أضاف: هيّا، تعرفون ماذا يعني هذا الأمر أليس كذلك؟ نعرف جميعاً. ونظرت إليه باتو بفتور ولا مبالاة واكتفت بالنهوض لتطفئ سيجارتها وتركته يحكي ولم تُسكته ولا حتّى تكبّدت عناء النّظر إليه وهو يقول إنّ كلّ هذا كان مخطّطاً له، قصّة الدبّوس، هذا الاستفزاز، هذه المسرحيّة، أليس كذلك، مستحيل أن يكون الأمر غير ذلك، فهو ليس على هذه الدرجة من الغباء والجنون والجهل واللّاواقعية حتّى لا

تخطر في باله الفضيحة التي يمكن أن يتسبّب بها، فراح اشترى حليةً كهذه، صحيح أنّه أخبل ومعتوه ولكن أتُعقل هذه القصّة بصراحة؟

رابو، أجِبني، أليس هذا صحيحاً؟ ألستُ محقّاً؟ أعني أأنت موافق؟

فرفعتُ يديّ مسلّماً مرّة إضافيّة بأنّ هذا صحيح، أمّا باتو فلم تجلس بل انتصبت أمامنا وقالت:

لا، هذا غير صحيح.

وأخبرتنا أنّها كانت برفقته قبل الحادثة وأنّهما، هي وجان مارك (وبدرت عنها حركة سريعة التفتت فيها صوب زوجها تلتمس تأكيداً جاءها على الفور على شكل إشارة من رأسه وكلمة «نعم» أشبه بصرخة، مبالَغ بها)، حتّى هما كانا يعلمان منذ أسابيع، فـ «شعلة الحطب» كان يحضّر ضربته منذ أسابيع، لا أقصد عن عمْد مسبق أو تدليس، لا، فالأمر الوحيد الذي خطّط له كان أن يقدّم لأرملة، يمكنكم أن تفهموا هذا، أقول يقدّم لها هديّة كما يفعل سائر الرّجال، كما تفعلون أنتم مع نسائكم. نعم، أعرف، ستقول لي، إنّها شقيقته لا زوجته. مهلاً، فهذا ما فكّر فيه طويلاً؛ هذا ما خطّط له. كان يقول لنفسه إنّها ليس لديها مَن يقدّم لها هذا النوع من الهدايا. حلية. أمّا هو، فقد فكّر في الأمر. فكّر في الأمر، وأرى أنّ هذا أمرٌ حسنٌ من قِبله، ألا توافقني الرأي يا حضرة رئيس البلدية بأنّه أمر حسن أنّه فكّر في أخته وهو يقول لنفسه أنْ لا أحد سواه سيقدّم لها حليةً بمثابة هديّة إذ ليس لديها مَن يفعل ذلك؟

ثمّ غادر رئيس البلدية والدركيّان دون أن يجيبوا بصراحة على سؤالها مكتفين بإشارات من رؤوسهم تعني أنّهم يفهمون أو ربّما لا يفهمون أو أنّهم لا يعرفون بماذا يفكّرون. أو فقط ليشكروها على الضيافة ويودّعوها.

أردتُ أن أقترح أن نعود إلى صالة الحفل، ولكن ما إن خرج الرجال الثلاثة حتّى راحت باتو تقول إنّه يجب الدفاع عنه، لأنّه تصرّف كمجنون، كيائس، كأخرق، أكيد أنّه أحمقٌ سكّير وصموت وعصبيّ، صحيح، وجلّ ما أردتم، وكيفما أردتم، ولكنّه ليس رجلاً شرّيراً؛ لا، ليس شرّيراً، راحت تكرّر لي وتعيد بينما كنتُ أنا أنظر إليها وإلى زوجها وهو مثبّتٌ نظره على إيماءات زوجته وهي تسحق سيجارتها؛ السيجارة التي لم تدخّنها حقّاً، انكسرت نصفين، وأظافرها المطليّة بأحمر سميكٍ ولامعٍ وقرمزيّ، ورماد السيجارة وبياض ورقها وأثر أحمر الشفاه

على عَقِبها الأصفر التّبْنيّ بينما كنتُ أنا وزوجها ننظر إليها، وفي رأسي تدور الجملة نفسها:

يا حضرة رئيس البلدية، أتذكُر المرّة الأولى التي رأيتَ فيها عربيّاً؟ أتذكُر يا سيّدي؟ أتذكُر؟ هل يذكُر واحدٌ؟ أيّ واحد؟ أثمّة من يذكر هذا؟

كنتُ لا أزال أسمع هذه العبارة، عندما بدأتُ أشعر بجزءٍ منّي ينهار ويقع ويتهشّم. جزء خفيّ ومكمّم، أو حتّى نائم لا أدري، وقد استيقظ هذه المرّة كما لو بوثبة، وبعينين مفتوحتين على سعتهما وجبينٍ مهموم ورأس ثقيل. استيقظت كومة العظام القديمة النائمة في رأسي عندما تساءلتُ لماذا قفزت هذه الجملة في صدري هذه القفزة - ذلك أنّني شعرتُ بحركة القلب هذه كما لو كانت قلق انتظار، انتظار موعدٍ آخَر، لحظة شبيهة بنهار امتحان، والغضب كذلك، والفضيحة في داخلي حيال رغبتي في إسكاتهم، الشرطيّان وميناء بتوصيفاته والتفاصيل، وأنا أضيف إليها عندما سمعتُ هذه الكلمات، عندما اخترعتُها، عندما استدعيتُ الوجوه والمخاوف والصّور، وكلّ ما قاله، وهذه الحركة أيضاً، هذا الانقلاب المفاجئ والسبب الذي جعلني أرغب في الدفاع عن «شعلة الحطب» بتوجيه هذه الكلمات لرئيس البلدية:

أتذكُر يا سيّدي؟

وشعوري العنيف بالعار من هذه الجملة، ومن كونها خطرت ببالي. العار الذي كان شديداً إلى درجة أنّ الكلمات لم تخرج ولم تقدر على الخروج. والعُدوان الذي كانت هذه الكلمات تبتغي توجيهه إلى رئيس البلدية والدركيّين حلّ محلّه الاندهاش والذهول من فكرة أن أسمع في رأسي هذه الكلمات التي خرجت من لامكان وانتظمت بمثل هذين الوضوح والإطلاق، لا على شكل فُتاتِ أفكار أو صور أو شيء مُبهَم ولكنّ هذه الجملة الواضحة والصريحة وخلفها اليقين أيضاً والانزعاج الذي فاجأني أنا نفسي، كموجة، كاندفاع، كهجوم للقول «كفى!» والدفاع عن «شعلة الحطب» لا بدافع القرابة ولا بباعث الصداقة أو الاحترام، لا ولا حتّى لنوع من التعاطف أو الحاجة للدفاع المجّاني، هكذا، من دون سبب، عن شخصٍ مُخطئٍ نعرف أنْ لا أحد سيدافع عنه.

أقول هذا الآن ولكن في لحظتها كان الأمر مشوَّشاً جدّاً. أستعيده الآن لأنّني أذكر الاضطراب الذي اعتراني من جرّاء هذه الأفكار والذي بسببه كنت أنظر إلى باتو.

وبدل أن أجيبها، بدل أن أقول شيئاً، بقيتُ واقفاً أمامها أنظر إلى السيجارة المكسورةِ نصفين في المنفضةِ السوداء اللّامعة المطبوعة عليها علامة

مارلبورو بأحمرَ قانٍ كأحمر طلاء أظافرها.

كأساً أخرى؟

لا، سأخرج.

توجّهتُ صوب الباب، أمسكتُ المقبض ثمّ استدرت. عدتُ إلى منضـدة الشّرب وبادرتُ بالهجوم، هكـذا بلا إنـذار، بصوتٍ مرتفـع انكسرت نبرته من تلقاء ذاتها عندما رحتُ أتنحنح وأسعل وأخبّئ وجهي خلف قبضتي المغلقة رغم أنّني قلت:

لا يا باتو، لطالما كان «شعلة الحطب» شخصاً غريب الأطوار، فأنتِ لا تعرفينه كما أعرفه. لستُ واثقاً من أنّكِ ستفهمين. فأنا يمكن أن أخبرك الكثير عنه، عن حياته وشـبابه وزواجه وطفولته، أجـل طفولته، يمكننا البدء من هنا لو أردتِ. ولا أعني فقط تفاصيل من نوع تعذيب الحيوانات أو حماقات كبيرة لا تعني شيئاً كقطْع ذيول العظاءات أو ربط الضفادع بأثقال ورميها في الماء والتفرّج عليها وهي تغرق أو تعريضها للدخان حتّى تنفجر أو إطلاق النار على العصافير والدجاج من بندقية رصاص - وكلّها ألعاب صبيان الريف - لا أعني هذا.

أتحدّث عمّـا بعد، عن المراهقة.

تعرفين قصّة شقيقته، رَيْن، وموتها. ربّما لا تعرفين شيئاً عن الموضوع، أمّا أنا فلا يمكنني النظر إلى «شعلة الحطب» من دون التفكير في الأمر، وهذا فقط من سنوات قليلة، فقبل ذلك ما كنتُ قادراً عليه قطّ. فكلّما التقيتُ به ورأيته مثلما رأيته ذلك اليوم قرب جدار الغرفة، بحيطانها المطليّة بالكلس الأبيض، والشّموع والسرير القفص المنخفض الذي كانت ممدّدة عليه وهي تنازع وتنزف بينما تحيط بها نائحات القرية المسنّات، وفيما تفوح رائحة الشمع المخلوطة بروائح الغرف المغلقة والكولونيا وكتاب الصلوات على الطاولة الصغيرة، وقفّاز الاستحمام الرطب على جبينها ورائحة التراب وغبار الطّلع المتطاير في الخارج والصّمت، والصليب على السرير، وشراشف الدانتيل التي تغطّي الأثاث ومسابح الصلاة، والمعانقات والنواح، لا يمكنك تخيّل المغص يلوي الأحشاء والرغبة في الصفع التي تنتاب المرء آنئذ. في تلك الأيام، لم يكن قد بُنيَ بعدُ في القرية أيّ منزل جديـد، كانت كلّها منازل حجريّة سيّئة البناء وضيّقة وغليظة ومُعتمة، يمكن القول إنّها متحذلقة ومغلقة مثل يدين

حريصتين على أسرارهما وخرقاوين بشدّة. كانت الرائحة نتنة في الداخل، لا زلتُ أذكر جيّداً رائحة المياه الآسنة والصابون والجلْي وطنين الذّباب وهديره خلف زجاج النافذة وشرشف الطاولة المشمَّع ببقع النبيذ عليه. وأتذكّره هو أيضاً وحده في الزاوية قرب النافذة، مسنداً ظهره إلى الجدار، تعلو وجهه علامات الاشمئزاز، صارماً ومستقيماً مثل الفضيلة أو العدل أو ما تشاؤون وهو ينظر إلى أخته وهي تنازع والمهد إلى جانبها.

مهلاً، فلأشرحْ لكم. فأنا أحكي بسرعة.

وفاة الأخت الصغيرة تاركةً خلفها طفلاً بلا أب ولا أمّ، طفل ليس لـه إلّا جسـمه ودهشـة وجـوده في هـذا العالم. دهشته هو والآخرين، جميعهم، العائلة كلّها، والعجوز التي ستعنى بالطّفل بينما يكتفي الآخرون بالكلمات والوشوشات يظلّون يتهامسون بها على مدى ثلاثين عاماً أو أربعين كي يتمكّنوا من تخطّي ما حصل. ولكن كان هناك برنار - لم يكن قد أصبح بعد «شعلة الحطب» - بعنقه الممدود إلى الأمام ورقبته المتصلّبة لاعباً بنصل سكّين جيب ينظّف به أظافره ولا ينظر حوله عندما يبكي الآخرون أو يضعفون، ولا يحيد بنظره عن أظافره ورأس النّصل وهو يتمتم بكـلام لا معنى له. أقسـم لكم، كرّرتُ لباتو وجـان مارك، ليـس لطيفاً كما تعتقدون وتقولون، ليس مجرّد صبيّ ضائع حطّمته الحياة، لا، ليس فقط ذلك، حتّى لو أنّ الحياة حطّمته بالفعل، بل هناك أيضاً تصلّبه والقسوة التي كانت في عينيه عندما كان واقفاً هناك، يوم ماتت أخته المراهقة، صدّقوني فأنا لا أخترع شيئاً. لا زلتُ أتذكّرها جيّداً بشعرها البنيّ، جميلة وخجول وقد ماتت من مضاعفات الولادة وكذلك من العار والسّخط والألم وهي تسمع من خلف إرهاقها ودمها النازف صمتَ أخيها الواقف بحذاء الحائط الكلسيّ، بنظرته التي يستحيل كسر قسوتها، بارداً، تخرج منه الكلمات بلا غضب، بوضوح وبطء شديد، أشبه بالهمس ليقول إنّها عاهرة، أذكره يقول عاهرة عندما دخلتُ الغرفة، يقولها همساً ويعيدها ببرود، عاهرة، حتّى توجّب إرغامه على الخروج لأنّه هزّ كتفيه بلا اكتراث، هذا لا يُنسى، أتفهمان؟ لا يمكنني أن أسامح أموراً كهذه، لأنّه كان شرساً وبارداً ومُصمِّماً.

ما تريدون؟ أنا لا أتحدّث عن جِراء القطط التي كان يقذفها لحظة ولادتها على الجدران ليتسلّى. ولا أخبركم عن حماقاتنا وخبَلنا نحن أبناء الأرياف. ففي تلك الأيّام لم نكن قد رأينا شيئاً ولم نكن ننتظر شيئاً - لأنّنا في الرابعة عشرة كنّا نذهب إلى الحقول ونحلم برخصة القيادة ومرافقة ابنة الجيران إلى الحفل مساء السبت، إلى المعرض الموسميّ، إلى الملاهي يومي أحد الفصح والاثنين، هذا تقريباً كلّ شيء.

وساد الصمت بعدما تكلّمتُ. كنتُ مرهقاَ. اقترب جان مارك وصبّ كأس كونياك ووضعها على الطاولة. أخذتها على الفور ولكنّني لم أشرب منها. أطلتُ النظر إلى الكأس وإلى السائل العنبريّ في داخلها.

وتابعتُ الكلام.

أفهم حبّكم له فقد اجتذبكم بالعواطف. حدّثكم عن ضواحي باريس وعن السنوات التي أمضاها هناك، وأنتم تحبّون هذا، فتىً من هنا يعرف منطقتكم. ليس فقط برج إيفل وما شابهه، بل الشوارع والجادّات. أن يتمكّن فلاّحٌ من إثارة اهتمامكم بقصص لا نفهمها نحن، فقد أفرحكم هذا، الدائرة الحادية والعشرون وما شابهها من عبارات لا يفهمها إلّا المطّلعون، يكرّرها على مسامعنا، على مسمعي أنا أيضاً، بطريقته المواربة في احتقارنا نحن أبناء هذه المنطقة. وأنتم وجدتم هذا جيّداً وأنا أفهمكم. شابّ من هنا يعرف أصولكم كلّكم، يعرف ماذا يعني الحزام الكبير ويعرف أيضاً أن يقول المواصلات وبيّانكور. ربّما بسببٍ من كلّ هذا، ولكن دعوني أقول لكم شيئاً: أنا لم أرَه هناك، في ضواحي باريس، لمّا كان عاملاً بالزيّ الأزرق، في المصنع، في تجميع السيّارات، ولكنّني رأيتُه هنا لمّا عاد.

يمكنني أن أحكي طوال ساعات عن جسمه الذي كان يزداد بدانةً والذي كان يتسكّع في البلدة لرؤية هذا وذاك، ولا أعني فقط الأصدقاء القدماء، آل فابر ومِعازهم التي كانت تسرح في الحقول طوال النهار، أو رفاق الطفولة، رفاق بلدة الميني أو القرى المجاورة، أو الجيران، ما تبقّى منهم، أولئك الذين لم يهجروا مزارعهم ولكنّهم تركوا فيها الشيوخ يُنهون قصّة قديمةً قدم الحجارة وقد فاجأهم هرب الأبناء. لا، لقد فاجأه هذا هو أيضاً، لا بل صـدمه إلى حدّ ما أن يرى أنّه لم يكن الوحيد الذي رحل من عندنا، عندما رجع متوقّعاً أن يجد الأبناء مكان الآباء، والبنات مكان أمّهاتهنّ. إلّا أنّه في غيابه، حسناً، تعرفون القصّة، لا داعي لتكرارها، تعرفون ونعرف جميعاً كيف نبتت المنازل المنفردة بجوار المصانع، منزل سولانج كان من الأوائل، ومن الأكبر، ويقع في سهل.

رابو.

لم يكن هناك شيءٌ في هذا المكان من قبل. كانت لاباسيه عبارة عن سهول وأصداف قديمة تعود لا أدري إلى أيّة حقبة.

رابو.

لذا عندما عاد بعد كلّ هذه السنين، كانت مفاجأة تامة بالنسبة إليه أن يجد عالماً مغايراً تماماً ومقلوباً رأساً على عقب، ولكنّني متأكّد أنّ ثمّة شيئاً آخر صدَمه، وهو أنّه كان يظنّ نفسه قويّاً وحاذقاً لأنّه تمكّن من الرحيل - كلّا، سأصحّح ما قلت، لا لأنّه تمكّن من الرحيل. بل لنقلْ لأنّه تمكّن من البقاء هناك. لأنّ الرحيل بالتأكيد لم يكن قراراً عائداً إليه.

رابو.

بالأحرى بعدما أقام في «البلاد» [4] -نعم، هذا ما هو عليه الأمر، نعم، ثمّة مَن يستهزئون ويضحكون قائلين: فلنذهب إلى هناك - تجرّأ على ألّا يعود وعلى أن يفعل ما يشاء، هذا العنيد، وهي ذي النتيجة.

رابو.

رابو. لماذا تقول كلّ هذا؟ لا داعي لصبّ الزيت على النار. يكفيه ما هو فيه. لا؟ ألا تظنّ ذلك؟

لم أُجب جان مارك.

رفعتُ كأس الكونياك وقرّبتها من شفتيّ. فجاءت رائحته لتداعب أنفي وتدفئني ولكنّني لم أشرب. وضعتُ الكأس وتابعتُ باتو بنظري. كانت قد خرجت من خلف منضدة الشّرب، ومن دون أن تقول شيئاً بدأت ترفع الكراسي وتضعها مقلوبةً على الطاولات. جان مارك هو من تكلّم:

اسمع يا رابو، إنّه ابن عمّك، بالرّغم من كلّ علاّته، عندما يتحدّث عنك لا يذكرك بالسّوء. يسمّيك الأستاذ ويضحكه الأمر هو وحده، هذا كلّ شيء. حسناً، لن أنكر، يحصل عندما يكون ثملاً جدّاً أن يبالغ بالكلام ضدّ العرب أو العالم أجمع، ولكن فليكـن، ما الذي يمكـن أن يحصل، يوبّخونه؟ يرمونه في السجن؟ ما سيغيّر هذا في الأمر؟ ينبغي أن يكون الواحد منهاراً تماماً لكي يقتحم منزلاً بهذه الشاكلة، لا أفهم، لقد فقدَ عقله. غداً ربّما يكون الأوان قد فات، ربّما، في خاتمة المطاف...

سكت فجأةً تاركاً جملته معلّقة ونظرته على الباب الزجاجيّ: كانت نيكول في الخارج وتتردّد في الدخول.

كانت تبدو ضئيلة الحجم في معطفها، وعلى ملامحها علامات الدهشة والقلق وشيء من الغضب لرؤيتي هناك، خلف منضدة الشّرب، في يدي كأس الكونياك الذي عجزت عن شربه والذي راقبتُ لونه العنبريّ بينما كان جان مارك يتحدّث، كما لو لإيجاد ملاذٍ، مكانٍ أجمع فيه أفكاري المشتّتة. ثمّ توجّب إيقاف نيكول عندما بدأت تطرح عليّ الأسئلة:

ماذا يريد الدّركيّان؟

ما يريدون هما ورئيس البلدية؟

ما الذي يريدونه ولا تقدرون أن تقولوه أمامنا؟

ما الذي يجري؟

ونظرتُ إلى جان مارك وباتو بحثاً عن جـواب. ولكن لم تكد هذه الأخيرة تبدي أيّة ردّة فعل حتّى رفعت نظرها. استمرّت بوضع الكراسي على الطاولات ثمّ ذهبت لتجلب مكنسة.

فأخبرتُ نيكول.

سـولانج. يجـب إخطـار سـولانج. هذا ضـروريّ. واتّصِلوا بسـعيد للاطمئنان على زوجته، والأولاد، أرجو أنّه لم يؤذِ الأولاد. يا للقلق في صوت نيكول ونظرتها التي كانت على شفير الهلع قبل أن أقول لها أن تطمئنّ من هذه الناحية!

لقد رأوا الطبيب ولا أدري ما الذي سيحصل، لا يريدون إبلاغ الدّرك ولكنّ رئيس البلدية والدّركيّان مصرّون. يريدون دفعهم للإبلاغ، سيعودون لرؤيتهم غداً لكي يقوم شفراوي بإقامة دعوى، يجب أن يفعل، يجب ألّا يخاف، هذا ما يقولونه، إنّه خائف.

كما أنّهم يريدون أن أرافقهم عند «شعلة الحطب» غداً صباحاً. يريدون الاستماع إليه وإعلامه بأنّهم لن يتركوا الموضوع يمرّ مرور الكرام.

ولم أتمكّن من إكمال كلامي، لأنّني، في تلك اللّحظة، ولسبب لا أعلمه، عادت إلى ذهني تلك الجملة، هكذا، عبرت كومضة، كهجمة، كبرق تخلّصتُ منه بشرب كأس الكونياك جرعة واحدة وأنا أقول لِباتو وجان مارك بنبرة قويّة بشكل مبالغ فيه:

حسناً، سأبقيكم على اطّلاع.

ولِنيكول:

هيّا، فلنذهب.

في الوقت الذي كنتُ أقول فيه لنفسي:

رابو، ما هذا؟ ما الذي أصابك؟ أيّ كدرٍ هو هذا؟ أنت الذي من المستحيل أن تسامح «شعلة الحطب»، لماذا، خلف الكره والاحتقار وهذا الشعور القديم الذي لم يهدأ الذي تكنّه له، لماذا يُستشفّ شيء آخر؟ لماذا تشعر بشيءٍ آخَر؟ بحَراكٍ آخر، سحيقٍ أكثر وعميق كالخوف يطلع إلى السطح ويهمس لك كلماتٍ سيّئة كالخوف، ما هذا؟ ما هذه الجملة التي لا تنفكّ تلحّ عليك؟

حضرة رئيس البلدية، أتذكُر المرّة الأولى التي رأيتَ فيها عربيّاً؟ أتذكُر يا حضرة رئيس البلدية؟ أتذكُر؟ هل نذكُر جميعنا؟ هل يذكر واحدٌ؟

أتذكرون الأمر؟

ماذا؟ ماذا تقول؟

هل بينكم من يذكر؟

ماذا تقول؟

لا شيء.

وفي هذه اللّحظة، ما تذكّرته -لا، ليس ذكرى، ليس بعد، ولكنّ صورة أمامي، تكاد تكون حقيقيّة وواقعيّة كالبرد والثّلج: ذات صباحٍ ربيعيّ - ربيع 77 أو 78 -، صورة الناس مندهشين في أسواق أنترمارشيه وقدً توقّفوا فجأة عن التبضّع، لا لشيء إلّا لأنّهم فوجئوا برؤية رجلٍ وامرأة على مقربة منهم، تكمن غرابتهما كلّها في جلابية خضراء ومنديلٍ أزرقَ فاتح ويدين مُحنّاتين.

لا أكثر.

كانت تلك هي المرّة الأولى التي نرى فيها غرباء ههنا. لم نتصوّر هذه الهنيهة من الدهشة التي اعترتهم جميعاً، كلّ نسائنا وأهالينا وأصدقائنا الذين انتظرونا شهوراً وقرأوا رسائلنا وتفرّجوا على صورنا وتساءلوا كيف كان هؤلاء في الحقيقة، كيف كانت أشكالهم في الجهة الأخرى من البحر.

أجل، كانت الأيّام والشهور الأولى مشغولة بهذا الاكتشاف الغريب وهذا الفضول.

أمّا نحن، فكان الأمر بالنسبة إلينا أشبه برؤية الموتى أو الأشباح تنبعث من جديد مثلما تجيد العودة أحياناً في اللّيل. حتّى لو لم نكن نقول ذلك، نعرفه جيّداً، كلّنا، عندما نرى زملاء آخرين لنا من قدامى محاربينا في الجزائر، من طريقتهم في تفادي الكلام عن هذا وسواه. فنتكلّم عن أشياء غير مهمّة، عن سلّة الأطعمة السنوية، عن تنظيم اليانصيب وعن المأدبة المقبلة و«المشويّ». ذلك أنّنا، كلّ سنة، كنّا نقيم حفلة «مشويّ».

ولكنّنا لم نقل كلمة عن شفراوي عندما وصل مع عائلته الصغيرة بكاملها، ولم نسأل حتّى من أين أتى، أهو قبائليّ أم غير ذلك، لا شيء، لم نسأل. كان بوسعنا أن نسأل. كان بوسعنا حتّى أن نكلّمه، أن نتجاذب وإيّاه أطراف الحديث،

آه، أجل، أعرف هذه المنطقة، ما أجملها!

كلّا، حتّى هذا لم نفعله.

إلّا أنّنا كنّا نفكّر فيه بالتأكيد ولكن كمثل فكرة تستوجب الشعور بالعـار، وكـان العـار بالفعـل هو مـا نشعر به لرؤية جانبٍ منّا يظهر من جديد، قصّة شبابنا القديمة.

ولكن لا بدّ أنّ كلّ واحد قد طرأت عليه أفكار سيّئة نوعاً ما في السرّ، بينه وبين نفسه، فاعتقد أنّه الوحيد الذي ظلّ يجترّها سنوات، وحده تماماً، أفكار مختبئة جيّداً بين طيّات الذكريات، في الزوايا والظلال والمستنقعات والمياه الآسنة أو فقط بين الأصدقاء في لحظات الثمالة:

أرأيتم الجزائريّ؟ إنه في مثل سنّنا، أجل، نحن.

إلّا أنّه...

أتعرفون أين كان من قبل؟ من أين يأتي؟

وحتّى في البداية لم نكن واثقين من كونه جزائريّاً، كان يمكن أن يكون مغربيّاً أو تونسيّاً.

ولكن في النهاية أوقنّا من كونه جزائريّاً.

البرد، عندما خرجتُ أنا ونيكول. البرد، عندما اجتزنا الطريق، شبه راكضين. دخلنا بسـرعة صالة الحفلات حيث الضـوء شديد البياض وشديد البرودة. استقبلَنا الصمت والصالة شبه الفارغة بعدما تركنا عند الباب كلّ الأفكار والصور والذكريات، لم يبقَ سوى نبض قلب قويّ واسم ووجه: سولانج.

كانت الشراشف قد انتُزعت عن الطاولات التي لم تعد تمثّل إلّا ألواحاً ما عدا واحدة، في الوسط، اجتمع حولها ما تبقّى من المدعوّين. كان ذلك كما لو أنّهم صاروا يشكّلون دائرة ضيّقة، شبه مغلقة حول سولانج. ولكنّ الأمر لم يدم طويلاً. فقط ما يكفي لتفهم، لتحبس رغبتها في البكاء وتترك الغضب يجتاحها، عندما اكتفت بالقول: سننهي كلّ هذا الطعام في الغد، من أراد المجيء أمكنه ذلك. كانت هذه أيضاً طريقة لتطلب من الناس الرحيل، ولتقطع الطريق على كلّ النقاشات التي لم تكن هي تجهل حول ماذا كانت ستدور أو بالأحرى حول مَن.

وهذا ما لم تكن تريده.

لم تكن تريد أن يرموا على «شعلة الحطب» كلّ كرههم وأحقادهم التي تسري في العائلة وفي الحياة وهنا وفي كلّ مكان، لأنّها هذه المرّة لن تتمكن من الدفاع عنه. حتّى أنّها لن تحاول. لن تقدر أصلاً - لكن يكفي ألّا ترضخ وألّا تذهب في الاتّجاه الذي لطالما أرادوا فرضه عليها منذ الطفولة، لأنّه من ذلك الوقت والجميع يلومون أخاها، هذا الأخ، لكونه صبيّاً غير مرئيّ، بطريقته الماكرة والحقود في الاختفاء في غابة الحصان الأبيض أو في حقول الذرة والقمح حيث كان يغيب لنهارات كاملة مع أصدقائه آل فابر، الذين كانوا شديدي الاتّساخ وأغبياء كالمِعاز التي يرعونها. كانت المعاز تقرّر الطريق الواجب انتهاجها، وهُم، بوجوههم التي لوّحتها الشمس أو شفاههم التي شقّقها البرد، لا فرق، يتبعونها مصفّرين على حوافّ الطرقات وفي حقول هذا وذاك، التي كانت المعاز تخرّبها تماماً فتقلع الشتول والبراعم بهدوء ولَا مبالاة. أمّا أمّه العجوز وأبوه فلطالما كانا كالجميع دائمَي الغضب منه.

كان كالمجبر على احتمال غضب الآخرين كلّه من دون اعتراض.

ولم يكن يردّ، أبداً.

وهـا قد صـار الأمـر مختلفاً. لا رغبـة لديـه في أن يتّفق والآخريـن. الآخرون الذين لم يكونوا ينتظرون إلّا مثل هذه الفرصة ليهجموا عليه مرّة واحدة. ولأنّها تحبّه، شَحُب لونها ولم تتمكّن من التفوّه بكلمة؛ ولأنّهم يعرفون تماماً أنّها لن تحتمل أن تسمعهم يذكرونه بالسوء قاموا جميعهم ولبسوا معاطفهم الواحد تلو الآخر واتّجهوا صوب الباب بهدوء بعدما شكروها بسرعة ثمّ اختفوا من دون قول كلمة تقريباً.

ومع ذلك فهذا لم يمنعني من أن أتكلّم فجأةً ويُفلت منّي كلامٌ حبستُه طويلاً، دون أن يردّ عليّ أحد، بل فوجئوا فقط من صوتي المرتفع ومن كوني عدتُ بالزّمن بعيداً جدّاً في هجومي، إلى اللّحظة التي عاد فيها برنار، ولم يكن قد صار بعد «شعلة الحطب».

ابتعدتُ عن الطاولة وذهبتُ أستند إلى المدفأة، يداي خلف ظهري لأدفئهما. تكلّمتُ وفيما أتكلّم كانت الطاولة تفرغ. نظرتُ إلى نيكول وهي تلمّ الأشياء عن الطاولة ولا تقول شيئاً، إلى سولانج التي كانت تمرّ من أمامي متصنّعةً عدم الانتباه إلّا للكؤوس بين يديها والفناجين وقناني المياه التي كانت تحملها إلى المطبخ، في الجهة المقابلة، وهي تنظر أمامها بثبات، لا تسمع ما أقول، بينما أشعر أنا أنّني عاجزٌ عن إيقاف طوفان الكلام:

سولانج، تذكّري. نيكول، لا بدّ أنكِ تذكرين. أتذكران؟ لا زلنا نحن الثلاثة نذكر، جميعنا، لا زلنا نذكر هذا، لقد رجع من حوالى عشرين سنة أو أكثر.

في عام 76.

كيف تذكرين هذا؟

الحرّ.

أجل، في 76، ربّما، أجبتُ سولانج التي تكلّمت دون أن تنظر إليّ، ودون أن تنتظر جواباً، وقد غرقت في أفكارها. ذلك أنّ شفراوي لم يكن قد استقرّ هنا بعد، ما يعني أنّه عاد قبل ذلك بقليل، في 75 أو 76.

أجل، أجل. كان يجب أن نذهب لجلبه من المحطّة وتكفّلت أنا بذلك، لأنّ أيّاً من إخوته لم يشأ الذهاب - لا زلتُ أراني في «السيتروين آمي 8» وأكياس الإسمنت ملقاة على المقاعد الخلفيّة، إذ كنتُ أنهي وضع بلاط للحديقة، أمّا هو، فعندما صعد إلى السيّارة مع متاعه المكوّن من حقيبة خشبيّة قديمة وكيس بلاستيكيّ كبير حشر فيه كنزاتٍ سميكة عتيقة لم تسعها الحقيبة، أذكر أنّه حيّاني بسرعة كما لو أنّنا لم نغب أحدنا عن الآخر إلّا أمس.

ستبقى وقتاً طويلاً؟

اكتفى بإلقاء نظرة إلى الخلف معبّراً عن دهشته لرؤية أكياس الإسمنت ثمّ قال مغمغماً:

لا أدري. ربّما. على الأرجح.

ثمّ الصمت. لا شيء سوى الصّمت. بعد خمس عشرة سنة. وأنا أتردّد وأنتظر وأحاول دفعه للكلام من جديد:

وميراي؟

لم يكن يُسمع إلّا هدير محرّك السيّارة.

حتّى ملامحه باتت أكثر قسوة. منذ عودته وأنا أقول لنفسي إنّ ثمة شيئاً غير سويّ، شيئاً مكسوراً، في عينيه الزرقاوين جدّاً، شبه الشفّافتين، الفارغتين، وشاربيه الشبيهين بشاربَي أبيه وهيئته الفظّة كهيئة الشيوخ هنا.

تذكرون بلا شكّ كيف كان منذ لحظة عودته، لا يجيب على سؤال، حتّى بخصوص ميراي ولماذا تركها، هي زوجته، كما ترك ولديه الصغيرين. لا شيء، ولا كلمة حتّى لكِ أنتِ يا سولانج عن ابنيه، حتّى لك لم يقل شيئاً عن ولديه، تركهما ورحل ولم يحكِ قطّ عن الأمر. ولكنّه احتفظ بتعاليه خلـف تجاعيده وبشرته الشديدة البياض والجفاف. شعره المسرّح إلى الخلف وسخٌ وطويل يغطّي عنقه. ورائحة تعرّق طفيفة كما عندما ننام بملابسنا.

قلتُ لنفسي إنّه لا بدّ أن يكون ترك منزله منذ بضعة أيّام، وإنه تردّد طويلاً قبل أن يقرّر الرجوع إلينا ومواجهة الناس هنا ومواجهة ماضيه: أعني والدته.

أعرف أنّ سولانج لم تكن تسمع. كانت تفكّر في ما ستفعل، ما يجب أن تفعله حسب ظنّها.

وقرّرت أن تعود إلى منزلها وتتّصل بشفراوي.

فرافقناها. بعد أقلّ من عشرين دقيقة كنّا في منزلها، أنا ونيكول جالسين في المطبخ وصوتها يأتينا من الممرّ.

كنّا نراها من الخلف، ننظر إليها واقفة، مقوّسة الظّهر، رقبتها محنيّة على الهاتف بينما تقبض يدها عليه بشدّة. كان علينا ألّا نحيد بنظرنا عنها، لندعمها ونُجيب على توقّعاتها عندما تلتفت صوبنا بحثاً عن مساعدة، كما لو كنّا نسمع جواب سعيد شفراوي في حين أنّها منذ بدء المحادثة انطوت على نفسها قليلاً لتستمدّ الشجاعة للاتّصال وسماع رنين الهاتف. استمرّ الهاتف بالرنين طويلاً، كنّا قد جلسنا في المطبخ ولا زلتُ أراني وأنا أسكب الماء لنيكول، ثلاث كؤوس أو أربعاً، والقنينة من البلاستيك الرقيق تنسحق تحت ضغط أصابعي، وصوت سولانج ونظرتها وطريقتها في الالتفات إلينا بعينيها المفتوحتين على سعتهما وصوتها المرتعش عندما صار عليها أن تحكي:

نعم. نعم، أيمكن أن أكلّم أباك من فضلك؟

أجل سعيد، أنا سولانج،

كيف الحال؟ الأولاد وزوجتك، قل لي، كيف حالكم؟

أأنتَ متأكّد؟ أكيدٌ طبعاً،

جاء دركيّان ورئيس البلدية وأخبروا ابن عمّي. يقولون،

أجل سعيد، أعرف. أنا شديدة الـ...

زوجتك وأولادك، هل يا ترى خاف أولادك؟ من منهما هو الذي ردّ على الهاتف؟ وزوجتك، أيمكننا أن نفعل شيئاً، أأنت متأكّد من أنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام؟ متأكّد؟ لا أفهم. لا أدري ما الذي أصابه ليقوم بهذا، لا أدري ما خطر له، أنا حقّاً، تعرف، أردتُ...

لا، لا يا سعيد. لا أدري، سعيد، أنا...

قالوا إنّهم في كلّ الأحوال يذهبون إلى منزله صباح الغد، وأنا قرّرت مرافقتهم، مع رابو كذلك، سنذهب لرؤيته إذ يجب أن يقول شيئاً وأن يعتذر؛ لن

أهادن في هذه المسألة، حتّى لو كان أخي، فلا يمكنني أن أقبل بهذا، لا، لا أريد، أنت تفهم، هذا ليس طبيعيّاً،

سعيد، أعرف أنّك لا تريد أيّة مشاكل، لستَ أنت من تفتعل المشاكل،

هذا لطفٌ منك يا سعيد، ولكن في هذه الحالة، ماذا تريد، أجل، أطفالك، قل لي، هل هم بخير؟ لم يلمسهم، صحيح، وإلّا لكنتَ أخبرتني، أليس كذلك؟ لكنتَ أخبرتني، نعم،

وزوجتك. نعم. إنّها تبكي. إنّها تبكي الآن. أنا،

لا أدري ماذا أقول. لا، هو من افتعل المشكلة وليس أنت، لماذا،

لا، لا، لا.

لا.

سعيد،

نعـم، كما تشـاء، ولكنّني أريـده أن يعتـذر. أن يأتـي لرؤيتك أنـت وزوجتك، يجب أن،

أجل، أعرف.

الدركيّان ورئيس البلدية يريدون أن تقيم دعوى. سيعودون لرؤيتك ليحاولوا إقناعك، وأنا بصراحة لا يمكنني أن أقول لك ألّا تفعل، لا يمكنني، أنا أتألّم على برنار ولكن لا يمكنني...

ثمّ حلّ صمتٌ طويل.

وقتٌ طويلٌ تردّدت خلاله قبل أن تغلق الخطّ. ثمّ لزمها كذلك وقت طويل وعسير للعودة إلينا والبقاء أمامنا تنظر إلينا ولا تجرؤ أن تقول كلمة أو تأتي بحركة، هي التي عادةً لا تهدأ حركتها والتي لم نكن نراها تجلس إلّا لتقوم بسرعةٍ وترتّب وتحرّك الأدوات وتشعل التلفاز وترفع الصوت وتغيّر القناة. ولكن هنا، لم تشغّل التلفاز. بقيت واقفة أمامنا لا تقول شيئاً، ذراعاها متدليّتان، ثمّ بدأت تهزّ رأسها كما لو لتقول «لا»، كما لو لتقول «لا» لنفسها، كما لو أنّ شيئاً ما في داخلها كان يريد أن يقول «لا»، ثمّ تمكّنت، بهدوء في

البداية، من دون حركة سوى نفحة خرجت من بين شفتيها، قالت «لا» كما لو أنّها نجحت في أن تفتح في الجلد شقّاً رفيعاً وودقيقاً وصغيراً يكاد لا يُرى.

ثمّ قالت: أذكر في البداية، عندما وصل سعيد إلى هنا، أذكر أنّنا عندما اشتغلنا معاً، في البداية، لم يكن الناس يقولون شيئاً. كانت الأمور تسير بشكلٍ جيّد، ثمّ، ذات يوم، توجّب انتخاب ممثّلي موظّفي البلديّة أو شيء من هذا القبيل.

أذكر أنّ أحداً لم يشأ أن يرشّح نفسه. كنّا في البلديّة. في اجتماع. كلّ موظّفي البلديّة كانوا حاضرين. كنّا نعرف بعضنا بعضاً ولا أحد شاء أن يرشّح نفسه، لأنّ الجميع يعلمون أنّ مهمّة تمثيل العمّـال تتطلّب وقتاً ويجب القيام بها بجدّيّة. وأذكر ردّة الفعل عندما تقدّم سعيد للمنصب. أذكر تلك اللّحظة بين الناس، لا أعرف كيف أصفها، الارتباك والصمت، حصل شيءٌ ما بين الحاضرين، في نظراتهم أو بالأحرى في الجوّ، عبّر عنه طبّوش [5] بابتسامته الصبيانيّة ووجهـه المستدير والتّهدّلات حـول عينيه وتحت ذقنه عندما قال ما يفكّر فيه الآخرون دون أن يقدر أيّ منهم أن يقرّ به فعلاً، كما لو كانوا لا يفهمون تماماً ما يحصل.

صوتُها في اللّحظة التي روت فيها أنّهم ما كانوا يريدون شفراوي ممثّلاً لهم.

أمّا هـو، فبـدأ بالاعتراض قليلاً والتعبير عـن استيائه وعن دهشـته خصوصاً، ثمّ أخذ يعيد ويكرّر بنبرة راحت حدّتها تخفّ شيئاً فشيئاً، وبثقة بالنفس تقلّ تدريجيّاً، كما لو أنّ الأمر انتهى به إلى التساؤل هل هو المسؤول فعلاً عن الصمت والارتباك المخيّمين، كما لو أنّ الشكّ تسلّل إليه هو أيضاً، كما لو أنّ قربه منّا يمكن أن يجعله هو نفسه يفكّر مثلنا إلى درجة أن يبلغ به الأمر بالإقرار أنّه من غير الطبيعيّ أن يترشّح لمنصب ممثّل العمّـال وينوب عنّا هنا، وكأنّما من غير المجدي ومن الخطأ والفظاظة أن يقول إنّه يعمل هنا مثله مثل الآخرين ولا فرق بينه وبينهم وإنّه يسدّد الضرائب مثلنا جميعاً.

تردّد ثمّ كفّ تماماً عن الكلام. وبقينا نسمع الصّمت الذي كان يقطعه صوت الطباعة على الآلة الكاتبة لموظّفة الاستقبال في البلديّة.

بقينا هكذا ثلاثتنا وبيننا بالطّبع صورة شفراوي و«شعلة الحطب» وبين الصورتين أضيفت سريعاً صورة الدبّوس في علبته الزرقاء.

ماذا فعلتِ بالدبّوس؟

إنّه على طاولة غرفة الطعام.

أجابت سولانج على سؤال نيكول دون أن تنظر إليها فعلاً، وقد أرهقها الاتصال وصوت شفراوي، كما أرهقها النهار والجهد الذي كانت تبذله لتفهم ولتعرف كيف تتصرّف. وفي تلك اللّحظة تحدّثت عن فكرة الذهاب إلى الصاغة لمعرفة الطريقة التي دفع بها برنار ثمن الدبّوس. وهنا اضطرّت لذكر الآخَرين، أي أفراد العائلة، والاعتراف بأنّهم كانوا محقّين بعدم إخفاء غضبهم. هذا ما لم تتمكّن سولانج فجأة من الامتناع عن قوله. كيف أنّ برنار، من خلال الدبّوس، أقرّ بالازدراء الذي لطالما شعر به نحوهم وكيف أنّها كانت تعرف ذلك وترفض دوماً الاعتراف به لأنّهم لطالما عبّروا لها عن ذلك.

أليس كذلك يا رابو؟ لطالما قلتَ ذلك أنت.

نعم، قلتُه، هذا صحيح، هذه حقيقة شقيقك، تعرفين تماماً حقيقته.

وفكّرتُ، ما تريدين أن أقول وأكرّر أو نكرّر جميعاً؟ فكّرتُ كم صدمني عندما عاد للاستقرار هنا في خربة عمّ أبوينا، في الأعلى. كم صدمني حقّاً أن أرى بين الصور القليلة المعلّقة في إطاراتها على الجدران، بدل صور ولديه، وحدها صور الفتاة الصغيرة التي كان يلاعبها في الجزائر - إلهي، أن يعود كلّ هذا، أن أتذكّر الفتاة الصغيرة بشعرها المرفوع واسمها العربيّ الذي نسيته، وبخفّيها وردائها المزرّر حتّى أعلى العنق والصور التي نراها فيها بتعابيرها الجادّة والمجتهدة، لا سيّما واحدة منها حيث تقف في منتصف الصورة وخلفها نافذة منزل (يمكن أن نرى الحديقة الكثّة والجدار المقشّر، والستارة في الداخل والنافذة المفتوحة، والفتاة على درّاجتها الصغيرة تدير وجهها بشكل خفيف إلى يمينها حيث يغطّي ظلّها الحصى. أذكر المكان جيّداً، والدرّاجة البسيطة والفتاة الصغيرة الخجول الرصينة)، كانت هذه الصورة بين بضع صور أخرى. ولكنّ هذه كانت قد كُبّرت، مع أخرى، نرى فيها الفتاة الصغيرة تقود درّاجتها هذه المرّة، نراها جانبيّاً، وجهها منحنٍ وبرنار يمسك بكتفيها بيدٍ ظاهرة فيما لا تظهر الأخرى في الصورة. يعتمر القبّعة العسكرية ويساعد الطفلة بفائق التركيز. لا زلتُ أذكر جيّداً المبنى في الخلفيّة وجانب التلّة والدّغل والسماء الصافية والأرضيّة الإسمنتية التي يتقدّمان عليها وخيالي في أسفل الصورة، رأسي ويديّ والكاميرا، هذه الأشياء المتلاحمة كلّها بحيث تشكّل هيئةً واحدة شبيهة بحيوان زاحف.

كلّ تلك الصور الصـفراء التالفة العريضـة الأطـراف، لم يكن بينها صورة واحدة لطفلَيه. هذا ما صدمني. ولا أيّة صورة لزوجته أو لولديه في حين كان لديه صورة لأصدقائه في الجزائر، صورة تجمعه بإيدير. نراهما معاً في الصورة

التي لم تُكبَّر والموضوعة في إطار معدنيّ صغير لامع حيث يقف برنار في ساحة مع إيدير بينما تغطّي الأعلام الفرنسية بألوانها الأزرق والأبيض والأحمر السماء الوهرانية البيضاء. أجل، كنتُ مصدوماً لرؤية كيف تجرّأ برنار أن يؤطّر هذه الصور ويعلّقها على الجدران وهي تخلو من أيّة صورة لزوجته وولديه. وحتّى لو غضضنا النظر عن غياب صورة لزوجته كيف يمكن أن يصل الأمر بالواحد إلى ازدراء ذرّيته؟ هل تحدّث عن ابنيه؟ هل قال عنهما كلمة واحدة؟ لا، طبعاً لا. ظهر فجأةً هنا ذات يوم دون أن يُبلغ أحداً أو يتكرّم بتفسيرٍ عن السبب الذي حدا به لترك الضاحية الباريسية، لماذا هجر زوجته وولديه. فأن يتمكّن رجلٌ من فعل هذا وأسوأ - ولكن لا يمكننا أن نتكلّم عن الأمر لأنّ الكلمات التي كنّا سنقولها، التي كان يمكن أن نقولها، الكلمات التي ربّما كنّا مُلزمين بقولها - لا، يكفي، هذا غير مهمّ - صورٌ وذكريات - لم يكن هناك شيءٌ ليُقال، وكان كلانا يعرف ذلك عندما عاد هو منذ أكثر من عشرين سنة وعندما رأيتُ في منزل عمّ أبوينا صوره في الجزائر.

ورغم ذلك تجرّأ على تأطيرها وتعليقها على الجدران وعرضها، هنا، من دون الكلام عنها، أو قول أيّ شيء، كما لو كانت صور العطلة، دون أن يقول شيئاً لي أنا، أنا الذي كنتُ أراه هناك غالب الوقت، أنا الذي تقاسم معي - حسناً، فلنقل إنه تجرّأ وقبِلَ بأن نلتقي بعد كلّ تلك السنين ونترك بيننا صوراً معلّقة على الجدران، صوراً تتطلّع إلينا صامتين، في حين كان يمكن أن أسأله بشكلٍ طبيعيّ:

ألا زلتَ تعاني من الكوابيس؟

ولكنّي لم أسأله شيئاً لأنّني انتبهتُ إلى أنْ ليس هناك أيّة صورة لولديه، ولا أيّة صورة حديثة، لم يكن في الإطارات سوى أماكن ومشاهد أعرفها: صورٌ كنتُ التقطتُ بعضها بنفسي وأشخاصٌ عرفتهم أنا أيضاً، هناك. إيدير الواقف مزهوّاً ببذلته العسكرية في الساحة مع الأعلام الفرنسية ذاتَ رابع عشر من تموز، والذي سيموت بعد وقتٍ قصير في المكان ذاته دون أن يكون وراءه العلم الفرنسيّ.

ولا حتّى صورة واحدة لولديه.

لم أجرؤ على أن أقول له شيئاً، في حين حصلنا له على فراش وشراشف وأغطية وبضع قطع من الأثاث، بالإضافة إلى المرجل العتيق لتسخين الماء. لم أجرؤ رغم ذلك على أن أسأله ولا حتّى سؤالاً من قبيل:

لماذا عدت؟

لماذا لا تحكي شيئاً عن ولديك؟

وزوجتك؟ لقد عرفتُها هناك في وهران في الفترة نفسها التي عرفتَها فيها. يمكنك على الأقلّ أن تخبرني ماذا جرى لها، ميراي.

ولكنّني كنتُ واثقاً من أنّه ما كان ليجيبني.

بقي هنا، هادئاً، ساكناً، يُصلح منزل سلفنا قدر استطاعته. يجلب الإسمنت لتدعيـم الجدران والسـقف، والسطح قد أوشك على الانهيار تماماً. يريد أن يستقرّ هنا، في هذا المكان المنعزل، البعيد عن الكلّ، إلّا عن منزل والدته والمينيي. لكنّه لا يقول شيئاً عن هذا أيضاً. يعمل كلّ يوم على إصلاح بيته وسرعان ما صرنا نراه يحوم حول منزل أمّه، ساعياً لزيارتها، ينتظرها، يتطلّع إليها، مترقّباً اللّحظة التي سترضى فيها بالتحدّث إليه. نعرف أيضاً أنّها سرعان ما ستبدأ بالخوف منه قليلاً، وتدّعي أنّها تسمعه يجوب حول المنزل ليلاً.

ولكنّها لم تشأ التحدّث إليه يوماً.

وأنتِ يا سولانج، أنتِ، لهذا السبب بدأتِ تحمينه وتساعدينه. ولم تعيري بالاً لأحد عندما صرنا نقول لكِ إنّه مجنون حقّاً، وإنّه بدأ يشرب وإنّ بعضهم يدّعي أنّه رآه في الغابة حاملاً بندقيّته. (وأنتِ كنتِ تُجيبين وتستبسلين في الدفاع عنه:

وماذا كانوا يفعلون هم في الغابة ليلاً عندما رأوه؟)

وكان يمضي نهارات وأمسيات بكاملها متشبّثاً بمنضدة الشرب، مترنّحاً، يمضغ التبغ ويحرّك لعابه تحت شاربيه ويتفاخر بأنّه قتل عرباً، تخلّص منهم لتحريرنا، كان يقول: تحريرنا من العرب؛ حتّى أنّه تكلّم عن شفراوي عندما جاء ليستقرّ هنا، مدعياً أنّه سيخلّصنا منه.

هكذا كان يقول برنار. ثمّ أصبح «شعلة الحطب».

ادّعينا جميعنا أنّنا لا نسمع. جميعنا ادّعينا أنّه كان يحكي مثلما يحكي السّكّيرون المتآكلون من الكحول والحقد والكره. أمّا هو فكان يحمل فوق ذلك مرارة شخصٍ مغرورٍ اضطرّ إلى أن يتخلّى عن كلّ ادّعاءاته الواحد تلو الآخـر وقد راحت تتساقط مثل أقنعةٍ عجـزت عن البقاء ثابتة على وجهه.

ولكن لم يتخيّل أحدٌ يوماَ أنّه يمكن أن يكون خطيراَ. هذا على الأقلّ ما كان الآخرون مقتنعين به.

أمّا أنا، فكنتُ أقول لنفسي، أو كنتُ أخمّن، أجل أعتقد أنّني كنتُ أخمّن خلف إيماءاته ما يشبه الدليل على العنف. ولا أعني فقط العنف في ما رواه لي فيفرييه بعد سنوات من عودتنا، يومَ جاء لرؤيتنا أنا وبعض الأصدقاء.

لذا، فإنّ ما يحصل اليوم...

رابو. عندما رجع، لم تشأ العجوز حتّى أن تراه.

أجل، سولانج، أعرف.

ابنها الذي لم تره منذ خمس عشرة سنة.

أعرف. تزوّج من جديد ولم يُبلغ أحداً سواكِ.

كـان يمكنهـا أن تسامحه. كان يجـب أن تسامحه. الابن يبقى ابناً. من جهتي، لو أنّ أحـد أبنائي... تعـرف ماذا يعني الابن بالنسـبة إلى الأمّ. صحيح يا نيكول؟

أجل.

أجل، هذا هو المهمّ وحتّى العجوز، حتّى هي، كانت تعيسة بسبب هذا الوضع. عندما مات الأب، لم يحضر الدّفن. كيف تريدها أن تسامح أمراً كهذا يا رابو! لم يعرّفنا يوماً على زوجته وولديه، نحن عائلته، أتدرك هذا؟

أنتِ محقّة يا سولانج، ولكنّه بالرغم من ذلك عاد. استقرّ هنا لأنّه أراد رؤية والدته والعودة والبدء من جديد، هنا. ثمّ، ربّما...

ما الذي تسعى إليه يا رابو؟ انتهى الأمر. كلّ هذا انتهى...

لا يا سولانج لم ينته. عندما عاد، لا زلتُ أذكر كما لو كان ذلك بالأمس، لا بل كلّما مرّ الوقت وكلّما صارت القصص قديمة باتت أكثر وضوحاً: لم يقل كلمةً لأيّ منّا. اكتفى بترميم منزل عمّ أبوينا.

أذكر الهُريَ - تذكرين الهُريَ جيّداً أليس كذلك؟ بالطبع تذكرينه، حفل زفافك، حيث تركنا جميعنا أجهزة قديمة، درّاجات هوائية وأخرى ناريّة، حتّى سيّارة أبي الآروند لا تزال هناك؛ وهو كان يمكنه أن يفرغ المكان ويتخلّص من كلّ شيء، ولكنّه لم يفعل كما لو أنّه رجع ليعاود البدء من حيث توقّف قبل خمس عشرة سنة، عندما أُرغم على ترك كلّ شيءٍ معلّقاً هنا، لا سيّما نقوده، هذه النقود التي ذهبت تماماً بعقله كما كان يقول فيفريبه. أتذكرين فيفريبه يا سولانج؟ أتذكرينه؟ هذا أيضاً كان من زمنٍ طويل، في نهاية الستينيّات، أتى ولم نره بعد ذلك. أجل، مالُه وأمّه هذا ما كانَ يتحدّث عنه عندما وصل إلى الجزائر، ولا حتّى عن البذلة العسكرية أو الرحلات الطويلة في القطار طوال ساعات، والتنقّل بين الثكنات، في البحر وفي المراكب، ووجودنا قرب البحر على بعد حوالى عشرين كليومتراً، أنا في المدينة وهو وفيفريبه يحرسان بهدوءٍ غابة من خزّانات الغاز أو النفط لم أعد أذكر، عند أسفل التلال، كان كما لو أنّه لم يكن يرى شيئاً من كلّ هذا، والسبب أنّه كان مهووساً بالمال الذي ربحه في اليانصيب واضطرّ ليتركه بين يديّ أمّه وظلّ قلقاً لاعتقاده أنّها ستجد بلا شكّ طريقة لتنفقه. كان يشعر بالسخط. كان منذ ذلك الوقت يحمل غضباً هائلاً لا تعادله إلّا رصانته عندما كان فتىً يذهب إلى القدّاس ويحمل كلّ الأمور على محمل الجدّ، صلباً وعاجزاً عن تلطيف مبادئه ولو قليلاً.

رابو، هذا غير صحيح.

بلى، هذا صحيح يا سولانج. هذا صحيح، فأنا لا زلتُ أذكر أنّي رأيته، حتّى ميراي يمكنها أن تشهد على هذا، لأنّنا التقينا للمرّة الأولى في وهران، لا زلتُ أذكر الحانة وميراي وجيزيل وفيليبير وغيرهم. أذكرُ الناس، أذكرُ كلّ شيء، أذكر كيف كانت ميراي عندما تعرّفنا إليها.

عمَّ تحدّثني؟ ما دخل كلّ هذا؟ لا شيء.

بلى.

لا. لم يكن هكذا في السابق. أن يبقى رجلٌ بلا امرأة لوقتٍ طويل، لا يمكنك أن تفهم معنى هذا، تحكي وتحكي، ولكنّ هذا لا يمكنك أن تفهمه.

سولانج، لا أقول إنّني لا أفهم الوحدة.

لا يا رابو، لحسن الحظ أنّك لا تقول ذلك.

أعرف يا سولانج.

لا، لا تعرف.

وخرجت نيكول من المطبخ. اتّجهت صوب غرفة الطعام ثمّ عادت من دون أن تقول شيئاً وهي تحمل بين يديها العلبة الزرقاء التي كانت تمسكها ولا تجرؤ أن تنظر إليها. حلّ الصمت قبل أن تنتبه سولانج إلى ما أنظر إليه بين يدي نيكول. ثمّ سألت نيكول:

أسَبقَ أن حدّثتني عن فيفرييه؟

جاء لزيارتنا مرّةً، مرّة واحدة، في المنزل، قبل سنوات. بقي طوال الوقت يحكي عن الليموزان، منطقته. رجلٌ طويل يحمل نظّارتين.

ممكن، كان هذا من وقت طويل. كان هو السّبب في أنّكم...

أجل، أنا فقط. أمّا هو وبرنار فقد كان الأمر لهما أسوأ بكثير.

ثمّ حلّ الصمت من جديد. لم أعرف ماذا أفعل. أخفض نظري ربّما. أو ابتسم. أو أصبّ كوباً آخر من الماء.

أرِني.

مدّت لي نيكول العلبة الزرقاء. فتحتُها ونظرتُ إلى الدبّوس. كان بالفعل دبّوساً جميلاً. أخرجتُه من علبته دون أن ينبس أحدهم بكلمة، والعيون مثبّتة على الدبّوس وعلى العلبة التي أرجعتُه إليها، دون أن أقول شيئاً، تاركاً بياض النور المنبعث من مصباح النيون يرتجف فوقنا، وفي الخلف البرّاد.

ثمّ تكلّمت سولانج، ببطء، وبينما هي تتكلّم استعادت العلبة وأمسكتها بعناية دون أن تفتحها ودون أن ترفع نظرها عنها، أو حتّى تنظر إليّ، واكتفت بالسؤال:

ماذا لو تقدّم سعيد بشكوى؟

طرحَتِ السؤال كما لو لم يكن سؤالاً بل مجرّد خاطرة، خوف بدأ ينمو في داخلها وسرعان ما سيجتاحها ويقضي عليها، كنتُ واثقاً من هذا. ولهذا السبب لم أكن أجرؤ على الرحيل رغم رغبتي في العودة إلى منزلي. ونظرات نيكول الثاقبة. نظراتها التي تطلب ألّا أطيل تلك اللّحظة لأنّنا نعرف كيف ستكون، وكيف ستكبر بسرعة ما إن يتقدّم اللّيل، أكثر عمقاً وصمتاً تحت الثّلج؛ اللّيل الذي ينتظرنا في منازلنا، اللّيل الذي نرغب في أعماقنا في تأجيله قليلاً، فنقبل بفنجان أعشاب مغلّاة، نعم، ندفئ أيدينا ونحن نقبض بقوّة على فنجان الأعشاب لنشعر بحرارته ونشمّ رائحة النعناع أو نبات رعي الحمام.

هل أنت جائع؟

لا.

يمكنني تسخين بيتزا إذا أردت؟

لا، فنجان أعشاب يكفي.

كان الأهمّ هو ألّا نبقى وحيدين، كلّ مع أسئلته وذكرياته، حتّى نقنع أنفسنا بأنّنا نحن الثلاثة قادرون على إيجاد حلّ بالكلمات وحدها في حين لا تفعل الكلمات إلّا تغطية صوت اهتزاز مصباح النيون الكهربائيّ وغليان الماء في الركوة وصوت البرّاد وسيّارة باتت بعيدة في جادّة ميتران وكلاب تعوي في أثرها، عندما رمقتني سولانج شزراً تاركةً الحقد الآسن في داخلها منذ وقت طويل ينفجر فجأةً:

رابو، قل لي يا رابو!

ماذا؟

ماذا فعل لكم برنار لتكرهوه جميعاً إلى هذه الدرجة؟ قل لي! أتعرف السبب على الأقلّ؟

لا شيء.

لا تعرف؟

لا، لا شيء.

أيعرف أحدكم السبب؟ أيمكن أن يخبرني واحدٌ عن السبب الذي منعكم أنتِ والآخرين، كلّ الآخرين، من النظر إليه أو رؤيته عيناً بعين؟ والدتي خصوصاً. العجوز، آه العجوز، كان برنار في نظرها هو الأسوأ. أتذكُر يا رابو كيف كانت تنظر إليه؟ لم تتمكّن يوماً من تحمّله. اختارت ألّا تحبّه بالطريقة التي اختارت فيها أن تحبّ هذا أو ذاك، مثلما كانت تحبّ الآخرين، بدرجات متفاوتة واختلافات ومفاضلات بلا شكّ، كما في كلّ العائلات، سوى أنّ ما كانت تقوله عن ابنها كان أسوأ من الإعدام. كانت تصفه باللّص وبالحقير أمام أشخاصٍ تكاد لا تعرفهم دون أن يسبّب لها الأمر حرجاً. وحتّى في حضوره، كانت تنظرُ إليه وتستفزّه بانتظار أن يردّ على استفزازها فتجد الذريعة التي تبحث عنها لتقنع نفسها بأنّها محقّة.

سكتت سولانج بضع ثوانٍ ثمّ نظرت إليّ بإصرار.

حتّى أبي لم يكن يحبّه كثيراً. حتّى هو، اللّطيف بشدّة، لم يكن يدافع عنه - لا أفهم، لا أفهم هذا.

أعني لا أفهم ماذا فعل حتّى تتعاملوا معه جميعكم بهذه الطريقة، بهذا الارتياب. ليس أسوأ إخوتي. على الإطلاق. هذا ما لا أفهمه. كلّ ما في الأمر أنّه في فتوّته كان يجيد العراك ويحبّ المشاجرة، هذا صحيح، صحيحٌ هذا، وربّما كان يحبّ أيضاً تأنيب الآخرين ووعظهم، ربّما كان صريحاً أكثر من اللّزوم، يقول كلّ ما يخطر بباله كما تقول، ولكنّ هذا كلّ شيء.

لا يا سولانج، هذا ليس كلّ شيء. ألا تذكرين أختك؟ ألا تذكرينه وهو ينظّف أظافره بنصل سكّينه فيما هي على فراش الموت؟ ألا تذكرين ما كان يقول، وهو واقف هناك، يقول إنّها عاهرة وإنّها تستأهل ما جرى لها و...

لا يا رابو، توقّفْ، رابو.

وهبّت سولانج واقفةً تاركةً الماء يغلي في الركوة دون أن تنتبه، فقامت نيكول وأطفأت النار قبل أن تسكب لنا مغلّى الأعشاب. ثمّ أسرعت سولانج صوب غرفتها في آخِر الرّواق. نظرتُ إلى نيكول وهي تحني رأسها فوق الفناجين التي تملأها وتحدّق بالماء في عمق الفنجان وبكيس الأعشاب الذي ينتفخ في الفنجان فيما يُسمع صوت الماء الذي ينسكب في الفناجين مثل مياه الينابيع، والبخار وصوت المعدن عندما أرجعت نيكول الركوة على الطبّاخ، وتنهيدتها، ونظرتها صوب الباب وصوب سولانج التي سمعناها بعدما دخلت غرفتها تفتح إحدى الخزائن وتفتّش في كومة من الأوراق.

لم تعثر على ما كانت تبحث عنه. عادت إلينا وعلى وجهها علامات الخيبة، لم تكن غاضبة لكنّها كانت شاحبة وحزينة وقد أتعبها بشدّة أن يكون عليها الاستمرار في الكلام في حين كان يمكن لرسالةٍ أن تقول كلّ شيء.

ولـمّـا عادت كانت تتمتم:

إنّه الوحيد من بين إخوتي، الوحيد من بين إخوتي وأخواتي كلّهم.

قالت:

كم من مرّةٍ كتب ليعبّر عن ندمه لكونه صدّق ترّهات الكهنة عن الزواج وكلّ تلك الأمور. لم يكن يعرف ما هي الحياة. لم يكن يعرف شيئاً عن الحياة، لم يكن قد فهم بعد، كتب لي ذلك، أكثر من مرّة. ريْن، أجل. من أجل ريْن عضّ أصابعه ندماً لأنّه تمنّى موتها وقال أشياء مؤذية بحقّها. لو تعرفون كم من الأشخاص كانوا يفكّرون بشكل أفظع وإن لم يقولوا شيئاً. هؤلاء، صدّقني يا رابو، ينامون أفضل منك ومنّي لأنّهم يعتقدون أنّ طفلة تموت في السابعة عشرة بهذه الصورة لا بدّ أنّها تستحقّ ما حصل لها؛ وفي ذلك العهد، كانت الأمور هكذا، هذا ما سيقولونه - لماذا نتحدّث عن هذا الأمر، لماذا أحدّثك عن هذا. لا أريد التحدّث بالأمر - ما نفع استعادة الماضي؟

رابو، قل لي، ماذا ينفع أن نتحدّث بكلّ هذا؟ برنار هو برنار، إنه الوحيد الذي لم يتخلَّ عنّي.

لا أدري يا سولانج. لا أدري لماذا نتحدّث عن هذا.

تكلّمتُ وأنا أخفض بصـري، علّني أكسـب مهلةً ولا أرغمهـا على الدفاع عنه بعد أكثر، هو، شقيقها، فإذا بنيكول تستلم الكلام وتقول:

نعم، ولكن الآن انظري ما فعل وما يتهدّده.

لم تُجِب سولانج، ليس بعد. لم تقل كلمة وكانت تترنّح وعلى وجهها طيف ابتسامة. ثمّ انفرجت أساريرها وقالت:

أجل، هذه عائلة مجانين، لطالما كانت كذلك، أليس كذلك؟ رابو، ما رأيك؟

ثمّ حلّ الصمت مرّة أخرى، وهذه الكلمات مرّة أخرى، والانتظار مرّة أخرى.

والغضب والعجز عن الفهم. أن نفكّر أنّنا هنا ننتظر في المطبخ، أن نفكّر أنّ ثمة برداً وليلاً في الخارج وأنّه بعيداً من هذا المكان وهذا الطقس، بعيداً جدّاً، ثمة أسباب وروابط وشبكات وأشياء خفيّة تؤثّر علينا ولا نفهم منها شيئاً.

كأن نفكّر أنّ «شعلة الحطب» ينتظر قدومنا، ببندقيّته وقنّينة الكحول إلى جانبه على الطاولة كما أتصوّر. أجل، لا بدّ أنّه ما إن عاد إلى منزله حتّى بدأ يشرب وهو ينتظرنا، مدركاً أنّه سينتهي الأمر بواحدٍ منّا إلى المجيء لرؤيته. ربّما ظلّ ينتظر ويشرب. أو يبقى ساكناً لا يفعل شيئاً، ينظر إلى اللهب في المدفأة أو يكلّم نفسه أو كلابه، ويستمرّ باجترار رغبته في الانتقام. أو ربّما جعل يفكّر في ولديه وزوجته والسنوات التي أمضاها هناك قرب باريس ويقول لنفسه إنّ ولديه هناك في الضاحية الباريسية ما عادا يفكّران فيه إلّا كشخصٍ ميت وإنّ هذه الفكرة تحميهما من القلق عليه. أو أنّهما نسيا وجهه ولا يكادان يذكران صوته ونوبات غضبه إزاء ميراي. نحن لا نعرف ولديه ولا نعرف ماذا يفعلان وهل سيأتيان إلى هنا ذات يوم للاطمئنان على أهلهما أو لمطالبته هو بتفسير.

فنحن أهلهما، نحن الباقين، حتّى لو لم يعرفا ذلك أو لم يشاءا معرفته أو لُقِّنا أن يرفضانا.

فأنا لا أظنّ أن ميراي جازفت بالحديث أمامهما عنّا.

لاحقاً، في السيّارة، في طريق العودة، كانت اللّحظة الوحيدة التي تكلّمنا فيها أنا ونيكول هي عندما عبّرتُ عن غضبي من سولانج بباعث من تلك الفكرة التي خطرت لي: مهلاً، ذهبَتْ تبحث عن رسائل، رسائل كتبها لها قبل سنوات.

ظلّ طوال سنوات يكتب لسولانج.

وعندما عاد بعد خمس عشرة سنة من رجوع الباقين كان يتصرّف كما لو أنّ الحرب انتهت للتوّ. ذلك أنّني أذكر أيضاً كيف عدنا الواحد تلو الآخَر. وكيف أنّنا عاودنا العمل سريعاً جدّاً لكي نكفّ عن التفكير في ما جرى، فكلّ ما كنّا نريده هو معاودة الحياة بحماسةٍ غريبةٍ من فرط فرحنا بالتخلّص من المناطق

القبيحة ومن الحرّ والعطش والغبار والخوَذ التي كنّا نحوّل استخدامها فنغسل فيها الملابس، وفُرَش الأسنان العتيقة التي ننظّف بها ياقات القمصان، والثقوب في الجوارب، وأصابع الأرجل الدامية، ذلك العالم العفِن، وفكرة أنّنا سنتمكّن من أن نبدأ من جديد. كنّا نريد تعويض الوقت الضائع هناك، وما ساعَدَنا، ما ساعدني أنا خصوصاً، هذا ما أعرفه اليوم، كان أن علمتُ ذات يوم أنّه لن يعود إلى هنا أبداً.

اكتفى بإرسال برقية إلى والديه يبلغهما فيها أنّه لن يعود.

وبالفعل، ساعدني هذا على تركيز اهتمامي عليه وعلى ما يمكن أن يقوله الآخرون عنه، لأنّهم كانوا يعرفون أنّه التقى هناك بابنة أحد المعمّرين [6] البالغي الثراء وكان يريد الزواج منها. وكنّا نتخيّله في أحياء باريس الراقية وقد صار ثريّاً ونسي حتّى أسماءنا، ولم يخطر في بال أحدنا أنّ والد ميراي قد خاصم ابنته وأنّها لم تحصل منه على مهر، فقد انتهت هذه العادة مع نهاية الاستعمار.

إلّا أنّني تمسّكت بهذه الفكرة وبالهدايا القليلة التي قدّمتُها لوالديّ وشقيقاتي: حلويّات، طقـم فناجين قهـوة عربيـة وصليـب من أغاديز لنيكول. إذ أنّنا، نعم، كنّا محمّلين بالهدايا وبنفحةٍ من الغرائبيّة، نفحة من أماكـن أخرى، وببطاقات بريديـة. وكانت عيوننا تلمع عندما نقول لأنفسنا: عسى ألّا نعود نسمع الشيوخ يغمغمون:

ولكنّها ليست فيردان!

فضلاً عن أسئلة تتنافس في غبائها ولم يشأ أيّ منّا الإجابة عليها، تدور حول الطقس والزراعة والنساء:

كيف هنّ النساء تحت الحجاب؟

والنكات التافهة التي كانت تثير غضبي:

أصحيح أنّ المسلمات يحلقن شعر العانة؟

وأشياء من قبيل:

والصحراء، أرأيتَ الصحراء؟ والجِمال؟ ما أطول قاماتها!

إلخ.

لذا كان الحديث عن «شعلة الحطب» مناسباً حتّى لا أضطر للكلام عن كلّ شيء.

أمّا الباقي، فقد روته لنا سولانج: زواجه في الضاحية الباريسية واستقراره هناك.

كان يجب الانتظار بضع سنوات - لا أدري كم بالتحديد، أقل من عشر بكلّ الأحوال، سبعٌ أو ثمانٍ - قبل أن تبلغنا أخبار فيفرييه. كان فيفرييه قد قرّر القيام بجولةٍ على الرفاق. أراد أن يسلّم عليهم، على أولئك الذين لا يزال يتذكّرهم ولم ينقطع عن الاتّصال بهم، أي القلّة القليلة. وعندما جاء لتمضية يومين عندي، أخبرني كيف رأى برنار وميراي معاً في منزلهما.

أجل، فيفرييه هو الذي أخبرني، عندما جاء لزيارتي يوم احتاج إلى أن يأتي لرؤية الرفاق القدامى رغبةً منه في إنهاء شيء ما، كما قال، شيء ما يثقل على صدره.

ويا لهول ما أخبرني به فيفرييه ولم أكن لأتخيّله.

ولكن في السيّارة كاني غضبي موجّهاً إلى سولانج: لطالما كانت تتهرّب، ولقد ظلّت طوال هذه السنوات تومئ برأسها بغموض لتقول إنّها تعرف أنّه يعمل في أحد مصانع رونو، وأنّه أنجب ولدين ويعيش في مسكن مخفّض الإيجار [7]، وأنَ أيّاً منهما، هو وزوجته، لم يعودا يكلّمان عائلتيهما ولم يعد لهما أصدقاء وأنّ أحوالهما كانت عسيرة أحياناً ولكن لا بأس!

لكنّ الأغلب أنّ الأمور لم تكن على ما يُرام وأنّه لم يخبر سولانج بالأمر. لأنّها هي أيضاً فوجئت لمّا رأته راجعاً ذات يوم من دون أن يشرح شيئاً.

حاولنا كلّنا أن نفهم.

أمّا أنا فتذكّرتُ فيفرييه وهو يخبرني بأمور غير معقولة عن ميراي، وكيف أنّها في تلك الشقّة المخفّضة الإيجار لم تعد تلك الشابّة المتعالية والواثقة من نفسها التي عرفناها في وهران، تشرب عصير البرتقال وتدندن أغاني ساشا

ديستل وداريو مورينو جالسةً خلف طاولة تنتظر أو تطلي أظافرها أو تعضعض ذراعَي نظّارتيها الشمسيّتين الخضراوين الكبيرتين.

لا، تبدّلت تماماً حسبما شرح لي فيفرييه عندما جاء لزيارتي فالتقينا في وقتٍ متأخّر من اللّيل وبدأنا نشرب ونسكر بما يكفي لنخون التعهّدات الصغيرة التي قطعناها لأنفسنا بألّا نقول شيئاً عمّـا كان عليه الواقع هناك. انتهى به الأمر إلى الحديث عن برنار وميراي - وإخباري أيضاً بكلّ ما كنتُ أجهله عن الحال التي وجدهما فيها، عاشقَي وهران، في الضاحية الباريسية، وقد بهت جمالهما وخفّت نضارتهما، وباتا متعبين وحزينين يتبادلان النظرات القاتلة والكلمات البذيئة، يتّهم واحدهما الآخَر بكلّ شيء. آه لو رأيتَهما، قال فيفرييه، لا سيّما هي، خائبة ومريرة وحاملاً بطفلهما الثاني!

كانت قد أصبحت امرأة أخرى غير تلك الشابّة المثيرة التي كنّا جميعنا نحسد برنار عليها: وأنت يا رابو ألم تحسد ابن عمّك أنتَ أيضاً؟

انتبهْ لطريقة قيادتك، إنّك توشك على الخروج من الطريق. أنت تُسرع كثيراً، انتبه.

نعم، لا بأس، لا بأس!

أبطأتُ قليلاً. كانت نيكول قد تكلّمت عالياً وقد شاب الخوف صوتها فجأة لأنّها شعرت بالسيّارة تميل إلى اليمين بسرعةٍ شديدة. لقد وضعت يدها على المقود لتعيد تقويمه.

لا بأس، قلتُ.

لم يكن أمامنا إلّا ضوء مصابيح السيّارة. لا أحد ولا سيّارة في اللّيل. وحدها على الجانبين منازل صارت تقلّ ويتباعد واحدها عن الآخر تدريجيّاً. ثمّ بضع مستديرات والثلج الذي ينهمر بندَفٍ رقيقةٍ وعنيفة، أشبه بذرّات غبارٍ أو سحابةٍ من الذّباب في الصيف تحت المصباح، تطوّح بها الرياح في كلّ الاتّجاهات. ثمّ ضجيج المحرّك وصوت تنفّسنا في السيّارة. والصمت، لأنّنا أخيراً توقّفنا عن الكلام بينما كانت نيكول تنظر إلى اليمين، إلى انعكاسها ربّما، أو إلى اللّيل والثلج، وذراعاها مكتّفتان، في حين كنتُ أنا أنظر مباشرةً أمامي وأتخيّل ما يمكن أن يحصل غداً صباحاً، عندما يحين موعد لقاء سولانج والدركيَّين في

ساحة الكنيسة للذهاب عند برنار: ما الذي يمكن أن نقوله، أن نفعله، كلّنا، معاً، قبل أن نقصد منزله.

ورحتُ أتخيّل كيف أنّنا، أنا وسولانج، سنصل قبل الموعد.

وقد تتّصل بي قبل اللّقاء لتسألني هل وجود الدركيَّين ضروريّ. إذا لم نتمكّن نحن الاثنين. أو حتّى إذا لم تتمكّن هي وحدها من أن تحصل منه- على أيّ شيء؟ لا تدري. وستمتلئ المكالمة الهاتفية بلحظات الصمت. وسأسمع في صوتها المتقافز في حنجرتها الشكوك والتردّد وتعب اللّيل البالغ القصر، الذي كان عليها هي أيضاً مقارعته لتبقى في الصباح فزعةً تماماً تحاول شرب فنجان قهوة تلو الآخر في محاولة لاستعادة هدوئها. سترغب في أن تصدّق أنّ اللّيل يأتي بالحلول وأنّ الحلّ سيكون واحداً للجميع: ألّا يفعلوا شيئاً، أن يهمل الدّرك الموضوع، أن ينسى شفراوي كلّ شيء وحتّى أن يأتي برنار بنفسه للاعتذار.

هذا ما تريد تصديقه، ما ستحاول تصديقه، ما ستتظاهر بتصديق أنّه ممكن.

وبينما كنتُ أقود السيّارة، رحتُ أستعيد صورة سولانج وهي ترافقنا صوب الباب، وكيف أنّها بقيت واقفة في الخارج في أعلى الدرج بينما نحن نقول لها أن تدخل فالطقس بارد. بقيتْ هناك تنظر إلينا نمشي صوب السيّارة أمام منزلها.

رأيناها والضوء الأصفر يتوّج جسمها بهالةٍ من نور تحت مصباح الشرفة، وشاحها يغطي كتفيها وذراعاها مضمومتان على صدرها. كانت تنظر إلينا ولا ترانا على الأرجح، وقد حملتها أفكارها ومخاوفها وانتظارها بعيداً بينما تركناها نحن وحيدة في هذا اللّيل البهيم الممتدّ أمامها قبل أن تذعن إلى الدخول وإطفاء الضوء في الخارج وإقفال الباب.

في السيّارة كنتُ أتساءل ما ستفعل سولانج في هذه اللحظة، هل تعود إلى طاولة المطبخ حيث تركت العلبة الزرقاء وتقوم بإبعادها وإزاحتها بظاهر يدها أو تكتفـي بأن تشيح نظرها عنها أو تمتنع عن لمسـها؟ أو بالعكس، مثل ألغام الحروب القديمة التي يجب استئصالها، تمسكها بحذر وتعيدها إلى غرفة الطّعام، أو تتجاهلها تماماً وتذهب إلى الحمّـام وترتدي قميص نومها ومئرزها، تصغي إلى تعبها وتستسلم له، أو، لمَ لا، تذهب إلى الصالون تشغّل التلفاز دون أن تتساءل أيّ برنامج يُبَثّ مساء السبت وتروح تنظر إلى المَشاهد دون أن تفهمها أو تراها.

فيجب أن تنام وتمنع بعض الأفكار من السيطرة عليها تماماً، كم فكرة في الدقيقة؟ كم خاطرة جديدة؟

ولا واحدة على الأرجح.

وحده الغضـب الذي يصلّب الجسـد في اللّحظة التي يرتضـي فيها النوم. ثمّ عبرَ صور النهار تعود صورٌ أخرى وعباراتٌ أخرى وكلمات تحاول تخيّلها؛ شقيقها ودرج الطابق السفليّ وزوجة شفراوي وهي تقاومه صارخةً، مدافعةً عن نفسها.

ثمّ ستغلق عينيها حتّى لا تعود ترى صوَراً، ولكنّها ستظلّ ترى أكثر. سترفع الشرشف والأغطية لكي تكفّ عن سماع صوتَي «البومة» وجان جاك، ولكنّها بالعكس ستسمعها بوضوح أكثر، حتّى الألم، عندها تذعن وتضيء مصباح السرير مجدّداً بعدما ظنّت أنّ بوسعها إطفاءه كما لو أنّها لم تشأ تصديق الأرق القادم.

ثمّ ستجلس في سريرها لبعض الوقت في انتظار أن يأتي النعاس.

ولن يأتي.

لأنّها بينما تتنفّس ستسمع نفسها تدّعي أنّ برنار لم يكن عنيفاً دوماً. ستسمع نفسها تكذب وتحاول ترتيب الأمور مع نفسها وأصواتاً أخرى تهمس لها أنّها بصدد المخادعة.

عندها، في سريرها، ستنظر أمامها وتنتظر، ثمّ سيتأخّر الوقت إلى درجة أنّها ستعتقد أنّ محنتها على وشك الانتهاء وأنّه حان وقت النوم. ستطفئ الضوء وتستلقي مجدّداً وترتّب الوسادة وقبل ذلك قد تشرب كوب ماء. ستشعر حينها بما يشبه قفزة في صدرها، وثبة تمرّد لتعبّر عن الظلم الذي تعتقد أنّه لطالما كان لاحقاً ببرنار، سوء حظّ، يا لسوء الحظّ يا سولانج، هذا ما كنتُ لا أزال أفكّر فيه عندما أوقفتُ السيّارة أمام منزلنا.

لذا من المؤكّد أنّ سولانج، مثلي، لن تنعم بنوم هانئ.

ستسمع صوت برنار. ستسمعه كما سأسمعه أنا، كما يمكن سماعه ورؤيته في 1960 وهو يصل بثيابه المدنيّة إلى مركز التجنيد في مرسيليا ذات صباح بعد ليلةٍ أمضاها في اجترار ضغينته. يمكن أن تتخيّله وقد فوجئ ببطء القطار ومن

كوننا لا نملك الأولوية في الذهاب إلى حيث نحن ذاهبون. سينزعج قليلاً فهو لا يحبّ البطء.

وسيأتي اللّيل، لا بل أتى بالأحرى. حتّى لو لم يكن اللّيل يهمّه كثيراً ولا القطار، لا ولا ورقة الاستدعاء العسكريّ التي جعّدها ولا بدّ أنّها تلبد الآن في جوف أحد جيوبه - سخرة أخرى، ما كان يحصل له ليس إلّا سخرة إضافيّة، هذا ما سيكون قاله لنفسه حتّى لا يفكّر أكثر في الأمر، فهو لا يريد أن يشغله شيء عن غضبه واجتراره له.

ولذا يريد أن ينعزل عن الباقين، ليكرّر الكلمات نفسها عن والدته والمال الذي ستنفقه، وسيفكّر أنّها لم تتردّد في سرقة ماله، دون أن تقول شيئاً، «النقود التي ربحتُها أنا» - المبلغ الذي اعتقد أنّه بفضله سيتمكّن من ترك عائلته والعثور على عمل في تجميع الآلات أو أيّ عمل آخر، المهمّ أن يكون بعيداً عنهم.

في القطار، أتخيّله يجلس عاقلاً لا تعلو وجهه تعابير محدّدة، وفي حقيبته الخشبية ملابس قليلة، كتاب صلوات، حقيبة متقشّفة لا تحوي سوى الضروريّ، بنطاله المكويّ جيّداً والحذاء الضيّق جدّاً والذي كان لا يزال جديداً. فكّ الرباط وأماط اللّسين وأخرج كعبه من الحذاء دون أن يجرؤ على إخراج قدميه بالكامل. ذقنه محلوقة بعناية وبشرته بيضاء وناعمة ككلّ بشرة في فصل الشتاء أو كبشرة أولئك الذين نادراً ما يحلقون ذقونهم. يمضغ علكةً اشتراها قبل المغادرة. في جيبه علبة منها، إلى جانب السجائر.

ولكنّه يمضغ ويمضغ غضبه حيال أمّه وشعوره بأنّه مخدوع عندما وجد نفسه مع نقوده، صكّه المصرفيّ، ولا حساب في البنك، وأمّه هي من يمكنها استلامه.

فهو قاصر. لا يزال قاصراً بعد.

كان يجدر به توقّع الأمر والاتّفاق مع شخص آخر. تصرّف بداعي السرعة وقلّة الحيلة. يستعيد صورة أمّه وهي تتكلّم لتطلب أن يُحرَّر الصكّ باسمها هي لأنّ حساب العائلة مسجَّل باسمها. فبرنار لا يملك حساباً مصرفيّاً بعد، سيصير له واحـد عندما يبلغ سنّ الرشـد ويشـتغل شغلاً حقيقيّاً لا كما يفعل الآن إذ يشارك في أعمال المزرعة أو يساعد الجيران. إنّها هي المسؤولة عن المال. يدفعون لها هي عندما ينجز عملاً للجيران؛ وهو لا يدفع لها مقابل سكنه وأكله في منزلها؛ كما أنّه لا يغسل ملابسه؛ لذا فمن الطبيعيّ أن تقبض هي لقاء عمله. سيتبدّل الوضع عندما يبلغ سنّ الرشد.

ولكن في انتظار ذلك سيكون الصكّ باسمها.

أعطته نقوداً في مغلّف، ستُساعدك، قالت له. وسيرسلون له شهريّاً القليل من المال لأنّهم يعرفون أنّ راتب الجنود قليل.

وهو يستعيد كلّ هذا. العاهرة، ستنفق كلّ شيء، ستبدأ بشراء بقرتين مكان الأخريين فهي تتحسّر منذ شهورٍ لأنّها تعجز عن فعل ذلك، من أجل توفير مصاريف الحليب، وفوق ذلك يجب أن أشكرها على الفتات التي سترسلها لي كلّ شهر.

لم يقل شيئاً. يلوم نفسه لأنّه لم يقل شيئاً ولأنّه تصرّف كساذج عديم الخبرة، تركها تخدعه بالمغلّف وتربكه بخطوتها غير المتوقّعة في إعطائه النقود لزيادة مرتّبه. أن تكون قاصراً وتابعاً لذويك وغير مؤهّل لتَنتخب ولكنّك في المقابل مؤهَّلٌ لتُرسَل إلى جبال الجزائر!

ليست «الجبال» أكثر من كلمة سمعها في السوق ذاتَ يومٍ أحد.

وها هو يرحل على متن قطارٍ بطيء يتكدّس فيه شبّان مثله ضاحكين أو صامتين. ينظر إليهم بحذر. لا ينوي أن يتحدّث إلى أيّ كان ولا حتّى أن يجيب هذا الشابّ الذي يسأله هل كان لديه معلومات عمّـا حصل هناك، وهل يعرف أيّ الأخبار هي الحقيقيّة وأيّها الكاذبة - وهل صحيح أنّ من السّهل جدّاً أن يُذبح الواحد هناك أو أنّ الأمر لا يتعدّى كونه أقاويل تهدف إلى إخافة القادمين الجدد؟

قال إنّه لا يعرف شيئاً، ولكن ما لم يقله هو أنّه، وقبل كلّ شيء، لا يأبه بالأمر.

لا يشعر بأنّه معنيّ. ربّما لاحت على وجهه تعابير لا تعني شيئاً. فرأسه مشغولٌ بأمورٍ أخرى - إنه أكيد ممّا ستفعله أمّه بالنقود، ستصرفها حتماً، العاهرة، انتبه إلى أنّها فهمت هذه المرّة إلى أيّ درجة يمكنها إيذاؤه.

وطوال اللّيل، وفي قلب ارتجاج القطار، لم يقم بسوى اجترار انتقامه الآتي، عاجلاً أم آجلاً، فسيستعيد ماله، هذا وعدٌ قطعَه لنفسه، وعدٌ بأن يفكّر في الأمر كلّ يوم، لن أضعف، قال لنفسه. وفكّر أنّ الشهور القادمة لن تفلّ من عزيمته: سوف يقضي فترة خدمته ويعود، هذا كلّ شيء.

وعندما توقّف القطار في الصباح لم يكونوا قد وصلوا إلى مرسيليا بل إلى محطّة صغيرة. فوضى، كلّ هذه الفوضى يصعب عليه أن يفهمها. كما لو كان غريباً في بلاد لا يفقه لغتها ولا عاداتها. لم ينم، لكنّه لم يكن صاحياً تماماً أيضاً. يسمع جعجعة الأبواب وهي تُفتح، صخب الفولاذ ثمّ الخطوات وأصوات مَن يضحكون وقد تعارفوا ويظنّون أنّهم قد باتوا أصدقاء قبل أن ينسى أحدهم الآخَر بسرعة في مكانٍ ما في بلاد لا يعرفونها.

أمّا هو، فيلحق بالحركة إنّما ببطء، متلمّساً جيبه ليتأكّد هل كانت علبتا سجائره وعلكاته لا تزالان فيه. يفحص حقيبته، ربّما، لقد غفا على الأرجح، في الواقع يحسّ بأنّه ثقيلٌ ومشوّش، ويشعر بالعالم من حوله كما لو كان مصاباً بالحمّى حيث كلّ شيء يشبه خدر بداية النوم، أو حلماً، تقريباً.

كانت العربة ملأى بشبّان مثله، الصغار منهم يبدون فَزِعين، والضّعاف بوجوههم الشاحبة التي لا تلوّحها إلّا آثار حَبّ الشّباب على خدودهم. كانوا كلّهم يفكّرون أنّهم سيرون مرسيليا والشمس والبحر. صورة أشبه ببطاقة بريدية حيث المرفأ الغارق في الشمس وبريق انعكاساتها على المياه أشبه بورق الألمنيوم.

ولكنّهم وصلوا إلى محطّة أخرى ليست مرسيليا. محطّة صغيرة جدّاً. لا تزال العتمة مخيّمة ولا يمكن في الفجر رؤية شيء سوى الأطياف السوداء والضخمة للشاحنات التي سيُنقلون فيها سريعاً جدّاً، كما لو خفيةً. وستسير الشاحنات المغطّاة لا يُسمع لأحدٍ على متنها كلمة، وقد كانوا يشعرون جميعهم بالرهبة.

حتّى هو في تلك اللّحظة لم يعد يفكّر في أمّه أو في ما كـان يمكـن أن يفعله بالمال لو لم يتمّ استدعاؤه للجنديّة.

الوقت صباح وهو جائع. ولكن بدل الطعام والقهوة، حصل مثل الباقين على لوحةٍ معدنيّة. أدركَ ما هي، إذ سبق أن حدّثوه عنها:

أخيراً أنت جنديّ، ولكن ليس تماماً: فلا يزال لديك اسم ولكن عمّـا قريب لن تعود إلّا رقماً على هذه اللّوحة المعلّقة في عنقك والتي ستحرق جلدك أحياناً في الأصائل الحارّة أو الشديدة البرودة بالعكس. إنها اللّوحة التي لن تنساها، هديّتك الأولى من الجيش. على المعدن رقمان تفصل بينهما نقاط مخرّمة. وإذا

متّ، أيّها الجنديّ، فسيقتطع رفيقك الذي كان أكثر حظّاً منك شطراً منها يحمله مع كلّ ما تبقّى منك إلى أهلك.

فنظر إلى اللّوحة وقد انتابه شعورٌ غريب، وقال في نفسه إنّه سبق أن جرّب اليانصيب مرّة وليس راغباً في معاودة الكرّة حتّى لو لم يفهم ماذا سيحصل بعد قليل، ففوقه كانت السماء زرقاء والهواء عليلاً. قال في نفسه إنّ السماء حتماً رمادية كالغبار في بلدته كالعادة، أغلب الوقت، مثل المياه التي عليه أن يرمي فيها طبق الطعام. السماء رمادية هناك، والأكل هنا أفضل. ولكنّه لا يثق بهذه المعسكرات المفروضة عليه هنا، عالم المعسكرات هذا، حيث تتراصف المآوي الكئيبة الواحد تلو الآخر. كلّ شيء كئيب تحت السماء الزرقاء، لم يتوقّع قطّ ذلك. فالسماء الزرقاء لا تكفي وهذا المقصف الذي أكل فيه أخيراً بشكلٍ معقول، ولكن وحيداً، منعزلاً عن الآخرين، وعن المجموعات الصغيرة التي تشكّلت والتي بدأ بعض مَن فيها بالبحث عن المشاكل أو التباهي أو الكلام.

وهو يسمع ما يُقال، ما يقوله الشيوخ في القرى وما يُردَّد من أجل التسلّح بالشجاعة:

حسناً ولكنّ هذه ليست فيردان [8].

طويلة هي مدّة الشهور الثمانية والعشرين، ولكنّنا لا نتحدّث عن فيردان، هذا أكيد، ثمّ يبدو أنّ هناك بيوت دعارة.

ويضحكون ويتمازحون ويطردون الخوف بتصديقِ أنّ الأمر غير ذي بال.

أمّا هو فيكتفي بالأكل والتفكير. ثمانية وعشرون شهراً. عليه أن يصمد ثمانية وعشرين شهراً وأن يذكّر نفسه في كلّ يوم وساعة ودقيقة بأنّ عليه إرغامها على أن تعيد له كلّ فلس من أمواله، قطعة قطعة. في حين أنها ستفعل المستحيل لتقول إنّها لا تدين له بشيء. فهذا ما تريده هي طبعاً، أن تستفيد من الوضع وتستغلّه، في الوقت الذي يجدر به هو أن يذكّر نفسه كلّ يوم بواجبه بألّا يضعف ويستسلم، لأنّه عندها سيسهل عليها وعليهم جميعاً هناك أن يستغلّوه بينما هو ذاهب ليفعل ما لا يعلمه إلّا الله، مع من لا يعلمهم إلّا الله، في مكان لا يعلمه إلّا الله.

ولكن لا دخل لله بكلّ هذا.

فالله يمكن أن يُعينه قليلاً عندما يجد الوقت لفتح حقيبته ويخرج منها كتاب الصـلوات بغلافه الذي اختفى لونـه الأصليّ الأخضر تحت الشريط اللّاصق البنيّ العتيق ويضعه في جيبه ويشدّه إلى صدره ويقرأ فيه أحياناً كلمتين أو ثلاثاً، مزامير يحفظ مقاطعها عن ظهر قلب ولكنّه يفضّل قراءتها حتّى يثبّت عينيه بعيداً عمّـا يحيط به، صخب النداءات التي تلفظها مكبّرات الصوت والضحك والتشكّي والتأنيب وتلك الأسرّة المتراكبة المقزّزة التي ينغل فيها البقّ والقمل والبرغوث، ويحصل أن يصيح بعضهم شاكياً لأنّهم سمعوا صرير جرذانٍ، بينما تعبق في الأجواء روائح العفن والبول.

فالنظافة معدومة والمساء يبدو كما لو أنّه يمتدّ اللّيل بطوله. النوم لا يأتي، يظلّ الواحد متشبّثاً بحقيبته، الحقيبة الثمينة التي تحوي صوره وأشياءه الصغيرة وذكرياته أشبه بذخائر منزوعة من العالم الذي أتى منه لتجسّد حياة يوميّة باتت بعيدة خلال بضع ساعات فقط، لأنّه رأى أموراً غريبة كأولئك الرجال العائدين من هناك، ليمضوا بضعة أيام وجُعبهم ملأى بالهدايا والغرائب، يُقال إنّ معهم مالاً أيضاً، وهؤلاء يصيرون حذرين لا بل كثيري التّدقيق ما إن يقترب واحدٌ من أمتعتهم. لكنّه، من ناحيته، لا ينوي الاقتراب، فهو أيضاً يريد أن يُترك لِحاله. ومثلهم يقلق على حقيبته ويتركها مرغماً بلا مراقبة تحت غطاء سريره الرّثّ.

وعندما يسأله أحد الرّتباء [9] عن ورقة طريقه، يتردّد ويقول لنفسه إنّه لا يعرف أيّة رتبة هي هذه ولا كيف يميّز بين الرّتب، لا ولا ما موقعه هو نفسه - الأدنى على الأرجح -، ويفكّر أنّ للرجل لكنة مرسيليّة لأنّنا كنّا بالقرب من مرسيليا. وعندما يكرّر الرّتيب مطالبته بورقة الطريق يشحب لونه. لا يعرف أين هي. يركض إلى حقيبته. يصل إلى المهجع فتلفحه حال دخوله روائح التعرّق النتنة الباعثة على الغثيان. والصمت أيضاً، فجأةً، هذا الصمت الذي يحتاج إليه في اللّيل والذي يتبدّد شيئاً فشيئاً مع دخول الرجال إلى المهجع. وبينما يتّجه صوب سريره، يصيبه القلق على حقيبته وأمتعته، ماذا لو سُرقَت؟ ما سيكون مصيره؟ بلا أوراق أو أيّ شيء يثبت هويّته، ولا ما يجيب به على أمر الرّتيب الذي ينتظره. وعندما يعود راكضاً صوب الرّتيب، لا يكاد هذا الأخير ينظر إلى الورقة التي يقدّمها له. يأمرونه بالانضمام إلى الرجلين اللّذين يصبغان حوافّ الرّصيف بالأبيض. يجب أن تكون بيضاء. بيضاء دوماً، حتّى يأتي آخرون ويحلّوا محلّهم.

فينصاع بلا تفكير. حتّى أنّه يجد في الأمر شيئاً من الراحة. بلاهة المهمّة، والإصرار اللّازم الذي يجده في داخله للتركيز على مهمّة ما، وإن تكن عبثيّة،

وحتّى لو توجّب تكرارها كلّ ساعة، ذلك أنّه في كلّ ساعة تترك أحذية الرنجر آثارها الشبيهة بآثار عجلات سيّارات على الحوافّ التي لم يجفّ طلاؤها بعد.

وعليه أن يعاود طلاءها بالأبيض، لا بأس! فيروح مع الشابّين الآخَرين المكلّفين معه بالمهمّة يتنزّهون طوال اليوم حاملين سطل الطّلاء وعيونهم مصوّبة إلى حوافّ الأرصفة في كلّ المعسكر. والمعسكر واسع جدّاً، تتعرّج فيه حوافّ الأرصفة لترسم زخارف ينظر هو إليها حتّى يغرق فيها ولا يعود يرى حركة المعسكر حوله.

ويظلّ برنار على هذه الحال ولا يرفع رأسه إلّا عندما يتكلّم أحد الشابّين المُكلّفين وإيّاه بالمهمّة عن الرّتيب الذي كلّفهم بها. يشعر بالخزي والضآلة، ويحمرّ على الأرجح عندما يسمع الآخَر يسخر من لكنة الرّتيب بحجّة أنّ لكنة منطقة الألزاس لا تطاق. ويبادلهما ابتسامة، لا يقول شيئاً عن اللّكنة التي تبيّن إذن أنّها ألزاسيّة ولا دخل لها بمرسيليا. تبعد الألزاس كثيراً عن مرسيليا، يذكر أنه تعلّم هذا في المدرسة منذ زمن طويل.

في حياة أخرى.

يمسك بفرشاته، ينحني ويمضي النهار كلّه يطلي آثار الدعسات السوداء المرقّطة التي طبعتها نعال الأحذية. يرفع عينيه من حين لآخَر، يقول لنفسه إنّ انشغاله بالفرشاة والطلاء الأبيض أفضل من محاولة التهرّب من أعمال السخرة والرُّتَباء. وليدم الأمر بقدر ما يدوم. فعلى الأقلّ يمضي النهار تلو الآخَر في انتظار المساء تلو الآخَر، قبل أن يحين موعد الرحيل في المساء الرابع.

كما لو كان ينبغي مغادرة فرنسا سرّاً ليجد الواحد نفسه مرّة أخرى على الرّصيف حاملاً بيده حقيبته وعلى كتفه أمتعته الكاكيّة متأهّباً للانطلاق ذات مساءٍ صافٍ رغم البرد.

وها هو على جسر سفينة الجولييت. كتبوا بالطبشور على خوذته رقم فصيله. لم ينم جيّداً وهو تَعِب. يأمل أن ينام ولكن لا يزال عليه أن يتحمّل هذا التعب والضجيج الذي يحوطه في وحدته وفي كلّ الوحدات التي ستنطلق هذه اللّيلة والتي لا يأتي لرؤيتها من بعيد إلّا بعض الفضوليّين، يلقون تحايا وداعٍ خاطفة لا أكثر، كما لو كانوا يلقون فُتات الخبز لأسماك المرفأ وطيوره.

يقول لنفسه إنّه هذه المرّة سيرى البحر. ولا بأس إن كان الوقت ليلاً. سيرى البحر ويفكّر في الكلمات الأولى التي يكتبها لسولانج. يقول لنفسه إنّه سيكتب لها أوّلاً عن حجم الباخرة، الباخرة الشديدة الضخامة بحيث يمكن أن تسع كلّ سكّان لاباسيه. ولن يخبرها عن النظرات من حوله، ولا عن الصمت الغريب الذي يبتلع النظرات، وفوق ذلك، مع الهواء القارس، حضور الخوف.

ولكنّه سيقدر أن يتكلّم عن النوارس التي تحوم حول قاطرات السفن مثلما يحوم الذباب في الصيف حول الخيول والأبقار. ولن يحكي عن هذا الانقباض وذلك الذعر المفاجئ في العيون وفي الأجساد المتوتّرة، عن الحركات التي تبطئ والأنفاس التي تُكتَم عندما يصلهم ذلك الصوت فيغطّي أصوات الرجال القلائل على رصيف المرفأ وصراخهم، وأصوات النوارس القليلة التي تحلّق فوق رؤوسهم مثل الطائرات الحربيّة التي رآها مرّة في نشرة الأخبار في السينما. يشعرُ بالصوت في حنجرته، في داخل رأسه، ويفكّر أنّ الأمر ينبو عن الوصف بالكلام فما بالك بالكتابة، لسولانج أو لسواها! يحسّ تحت قدميه بما يشبه الهزّة، رجّة تخترق الأصوات والرياح والنوارس، صوت أطول وأقوى يبدو له أنّه يصل إلى عمق روحه فتتعرّق يداه، وللمرّة الأولى تلتقي عيناه بالعينين الداكنتين لمُجنَّد آخَر يعرف مثله ومثلهم جميعاً أنّه بدءاً من هذه اللّحظة سيخرق حياتَه كلّها صوت صفّارة الإنذار وهي تُعلن لحظة الانطلاق.

اللّيل

هذا ما يحصل: ثمة أوّلاً السرعة التي بها يقتحم الجنود الأبواب ويدخلون البيوت الخفيضة والمعتمة شاهرين أسلحتهم. ثمّ هناك الوقت الذي يلزم عيونهم للاعتياد قبل أن يروا أنْ ليس في عمق الغرف إلّا بضع نساء وعجائز وأطفال.

لا رجال أصحّاء.

يجتاح الجنود القرية ويركضون صارخين. يصرخون ليبعثوا في نفوسهم الشجاعة، ليثيروا الخوف، صراخاً أشبه ما يكون بالحشرجة، بالشهيق. فتلقي العجائز السلال التي يجدلنها وينظرن إلى الشبّان مستغربات، فرغم الأسلحة يبدون هم الخائفين. إنّهم غاضبون، ويصرخون:

إلى الخارج!

إلى الخارج!

وفي البيوت، يشدّون الناس من أذرعتهم ويجذبونهم من ملابسهم:

اخرجوا! اخرجوا!

فتضع النساء السّلال جانباً وينهضن. يتركن الأنوال ويخرجن. ويخرج الشيوخ دون أن يفهموا السبب. يخرجون ببطء لا يتوافق والطاعة التي يبدونها وأيديهم الموضوعة على رؤوسهم وفوهات البنادق الرشّاشة التي تدفعهم صوب ساحة القرية.

يتقدّم الأطفال بدورهم، يرفعون نظراتهم صوب الجنود. وجوههم تشي بمحاولاتهم منع أنفسهم من البكاء. الخوف يمنعهم من البكاء.

يصرخ طفلان صغيران أمام باب أحد المنازل. يقفان جامدين ويظلّان يصرخان حتّى تأتي امرأة وتأخذهما معها ليجلسوا في الساحة، مشدودين بعضهم إلى بعض، جيراناً وأصدقاء وشيوخاً وآخرين وأفراد العائلة، جميعاً. المهمّ أن يكونوا كلّهم، نساءً وأطفالاً وشيوخاً، مضمومين بعضهم إلى بعض عند مستوى سيقان

الجنود، فيما تتراقص فوهات المدافع أمام أعينهم. والغبار الأبيض السميك خانقٌ وساخنٌ يُعمي العيون ويترك في الأفواه طعماً طحينيّاً ناشفاً.

تعبر دجاجات الساحة وهي تقوقئ وتتحرّك في الغبار وتعوي كلاب. يُسمع أيضاً ثغاء ماعز وأبوابٍ يجري تهشيمها، صراخ نساء، بضع نساء مختبئات، شابّات بملابس حمراء وزرقاء وصفراء، يقاومن فيُدفَعن بفوّهات البنادق ويُصرَخ بكلّ منهنّ:

اللّعنة، تقدّمي!

هيّا! لنُعِدهنّ إلى الساحة.

يدفعونهنّ بعنف أكبر ممّا يفعلون مع العجائز والشيوخ لأنّهن يعرفن شيئاً ما، يعرفن أينهما الرجال.

أين الرجال؟

لا أحد يجد الرجال.

الشيوخ بدورهم لا يتكلّمون. يبقون صامتين. وحدها الأفواه الدرداء ترتجّ وتبقبق وتتفل بشيءٍ ما أو ترتجف مثلها مثل الأصابع الملتفّة حول العصيّ التي يستندون إليها. أمّا النظرات فلا تقول شيئاً. لا شيء. ولا حتّى الاستغراب. ولا حتّى الغضب. لا شيء. هدوء وإذعان. وصبرٌ ربّما. بعضهم كان قد رأى الجثث بعد القصف بالنابالم - الأكوام السوداء للجثث المتفحّمة والأطراف الكاملة. بعضهم فقدوا أعضاءهم التناسليّة من جرّاء التعذيب بالكهرباء وبقوا أحياء بمعجزة. رأوا جنوداً يُجهزون على رجالٍ بالحجارة وفتيات في الثانية عشرة يستسلمن لهم من دون بكاء. لذلك باتوا لا يخافون وينتظرون، فلم يتبقَّ لهم إلّا الصبر.

يتكلّم الملازم مع عبد الملك، أحد الحركيّين [10] الاثنين. يصرخ بأعلى صوته على هؤلاء العاهرات اللّواتي يرفضن الكلام، اللّواتي سنرغمهنّ على الكلام، يجب أن يتكلّمن، هنّ أو الشيوخ:

سُحقاً، فليتكلّمن! وبينما هو يرغي ويزبد ويمسح بكمّه العرق عن جبينه، يستمرّ الجنود بتفتيش المنازل واقتحام المخابئ والمزيد من الأبواب، أبواب المنازل الموجودة على الأطراف والتي تُسمع من داخلها أصوات التكسير والتخريب

وفرار الدجاج والمعز. يخال لهم أنّ ثمة أسلحة في الخوابي التي يبقرونها فلا يجدون إلّا القمح الذي ينسكب على الأرض مثلما ينسكب الطحين أو الرمل بين الأصابع في غيمة من الغبار الأصفر.

يريد فيفرييه الدخول إلى أحد المنازل الأخيرة ولكنّ الباب لا ينفتح. يقاومه. ينجح في خلعه مع ثلاثة أو أربعة آخرين. في الداخل امرأة وشيخ أعمى انتفض عندما خُلع الباب وتدفّق النور إلى الداخل ومعه الجنود الذين خمّنوا فوراً أنّ الشيخ أعمىً لأنّه كان الوحيد الذي لم يدر صوبهم وجهه.

ولكنّهم لم يتقدّموا صوبه ولا صوب المرأة التي قد تكون ابنته بل صوب الولدين، اللّذين ما عادا ولدين، فتاة وصبيّ في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، أصغر من أن يكونا من أفراد المقاومة:

وما أدرانا إن كان محارباً، ما أدرانا ماذا يكون؟

ما أنت؟

قل، ماذا تكون.

طرحنا عليك سؤالاً.

لا تتكلّم الفرنسية؟ لا، لا تفهم؟

يبقى المراهق صامتاً، يتراجع قليلاً، خطوة واحدة أو يكاد. يتطلّع إلى الجنود واحداً واحداً. يقوم بإشارةٍ ليقول إنّه لا يفهم، يرفع يديه يريد وضعهما على رأسه لكنّه يغيّر رأيه فينزلهما من جديـد، ثمّ يقول بالعربية كلمات لا يفهمها أحد. يخمّنون ما يريـد أن يقول. لا بدّ أنّه يقول إنّه لا يفهم ولا يعرف ماذا يطلبون منه، بينما عيناه تقولان فقط إنّه مرعوب، وسيحاول تهدئة خوفه بالنظر إلى أمّه وأخته، بالنظر إلى الشيخ. لا يبدو أنّ أحداً يفهم ما يقول.

أين تخبّئ السلاح؟

أين تخبّئ السلاح، تكلّم!

عندما ضربوه مرّة أولى لم تبدر عنه أدنى ردّة فعل، لم يكد ينتفض أو ترمش عيناه. ارتجف صوته لا غير، ليقول إنّه لا يفهم أو إنّه لا يخفي شيئاً أو ليسأل ماذا، أو كلمات أخرى تتعذّر على الفهم.

السلاح!

أين السلاح، تكلّمْ.

نظر إليهم ولم يُجب.

أين يختبئون؟

لا، هزّ رأسه بالنفي.

أين؟ أنت تعرف.

تكلّم.

هزّ رأسه ليقول لا.

ماذا تعرف عن الفلّاقة؟ [11]

جنديّان واقفان قربه متلاصقَين يوجّهان له صفعاتٍ بأطراف أصابعهم، على رأسه من فوق ومن الخلف وعلى قفا عنقه.

أين السلاح؟

أغمض عينيه. عيناه ترمشان. يُسمع وقـع الصفعات. يبقى الصبيّ مستقيماً. يحبس أنفاسه. تُسمع الصفعات، أقوى فأقوى، على الخدّين، على العينين، على الجبهة. يعقد حاجبيه فتبين عضلات الفكّين المرتعشة ويواصـل حبس أنفاسـه. يقوم بإشارة تعني أنّه لا يعـرف، يقول «لا» بإيماءة حادّة وعصبيّة أشبه بالتشنّج. يتراجع خطوة. يباعد يديه ويرفع ذراعيه. يفتّشانه فلا يجدان في ملابسه غير ارتجاف جسمه كلّه والعرق البارد في قفا عنقه المتصلّب، وما إن يكفّا عن ضربه حتّى تنفتح عيناه على سعتهما ويروح يتنفّس بقوّة تجعل صـدره يرتفع وينخفـض. يتنفّس من الأنف وفمه نصف مفتوح.

في الخارج لا يزال يُسمع صخب الأبواب وهي تُقتحم رفساً. وصوت الخوابي تتهشّم. وأولاد وأطفال يبكون. وكلاب تعوي. ثمّ طلقٌ ناريّ. ينتفض الجميع. عنزٌ. كلب. أحدهم قتل كلباً. وفتّشوا الصبيّ. ثمّ الآخَرين. ثمّ تلمّس أحدهم رداء الفتاة. ثمّ نظرت الفتاة إلى أمّها بينما يفلت شعرها من الحجاب وينسدل على كتفيها. تفتح فمها كما لو لتعبّر عن المفاجأة. تغلق قبضتيها. يطيل الجنديّ

تفتيشها، يتلمّس ثدييها طويلاً بينما ينظر موريه وفيفرييه ولا يقولان شيئاً. ثمّ يقترب فيفرييه من الفتاة، يزيح الجنديّ الآخر من طريقه، يلمس فيفرييه رداء الفتاة ويتوقّف عندما تطلق صرخة صغيرة تكاد لا تُسمع قبل أن تلوذ بالصمت حيث ينبغي أن ينزوي الغضب. فهي تعرف وتكرّر لنفسها أنّها يجب أن تحافظ على برودها وألّا تفجّر غضبها، ألّا تصرخ. يجب ألّا تصرخ وتشتمهم. يجب أن تنتظر وتسكت.

نظر موريه إلى فيفرييه وأشار له أن يتوقّف.

استدار فيفرييه ورجع نحو الصبيّ.

ألا تريد أن تقول شيئاً؟

ألا تريد أن تتكلّم؟ سنرغمك على الكلام. أتعرف أنّنا يمكننا إرغامك على الكلام؟ أتعرف ذلك؟

وراح يقترب. يتردّد. يصوّب نظراته إلى عينَي الصبيّ ويبصق إلى جانبه. ينظر إليه مجدّداً كما لو كان يريد أن يقول له شيئاً، أو أن يَفهمه، أن يسبر غور صمته، خوفه، أن يقبض على شيء فيه، اعتراف، أو سرّ. ثمّ نظر إلى الشيخ والمرأة، ولكنّه لم يرَ في الأخيرة إلّا تجاعيد وأخاديد، وفي الرجل إلّا نظرةً لا تقلّ مواتاً عن شباب المرأة.

فخاف فيفرييه وتوقّف نظره عند الفتاة. كانت تُمسكُ أعلى ردائها بيدٍ وبالأخرى تحاول جمع شعرها. تتفادى نظرات فيفرييه والآخرين. أرغموا الصبيّ على وضع يديه على رأسه. كان يبكي، بصمت. كانت الدموع تترقرق في عينيه وتنساب على وجنتيه. لم يكن هناك تمرّد أو غضب في تعابيره. كان الأعمى جامداً تماماً مثله مثل الأمّ التي لا تكاد تدير وجهها أو تخفض عينيها قليلاً. أمّا الصبيّ فكان ينظر إلى الجنود بعينين مفتوحتين أَلِقتين كما لو كان ما تشهدانه هلوسة.

ومن الخارج لا يزال يُسمع بكاء الأطفال، وعواء كلبٍ آخر ونحيب النسـاء. وفي الجوّ تنتشر رائحة حريق يمتزج فيهـا بكاء النساء والعويل في الساحة فتحوم مع الدخان الأسود الذي سرعان ما تتسلّل رائحته الحامضة والحامزة إلى الأنوف والعيون.

يتأهّب الرجال للخروج. إنّهم على وشك الخروج. يتردّد فيفرييه وينظر إلى الفتاة، تحسّ بنظرته، والآخرون أيضاً والجنود كذلك. يضربه موريه على كتفه.

هيّا، تعال.

وخرجوا. كانوا لا يزالون على عتبة الباب عندما استدار نيفيل، ومن دون إنذار وبحركةٍ حادّة وآليّة، لا بل يمكن القول من دون تفكير، عاد أدراجه، متصلّب الجسم. قطع بضعة أمتار ثمّ تناول مسدّسه من غماده، ومن دون أن ينظر أو يفكّر اقترب مباشرةً من الصبيّ وأطلق رصاصةً في رأسه.

في الخارج، وجد فيفرييه ورفاقه القرية مشتعلة. النساء والشيوخ في وسط الساحة، بينما يُسمع أنين من بعض البيوت التي تحترق. وكلّ الرجال والنساء جالسون الواحد لصق الآخَر، والنساء يبكين. ليس كلّهنّ. منهنّ من يلتفتن لينظرن إلى المنازل المشتعلة ومنهنّ مَن يتوسّلن. يخفض الرجال نظراتهم وينتظرون، أيديهم على رؤوسهم، ينتظرون وبكاء النساء أصعب على الاحتمال من الدخان والنار التي تجتاح المنازل من حولهم وقد يكون حتّى أكثر قسوة من الجنود الواقفين إزاءهم ويصوّبون إليهم فوّهات رشّاشاتهم والملازم الذي يصرخ ويدور حولهم مسدّداً رفساته إلى الأكتاف والظهور، يأمرهم أن يتكلّموا، أن يقولوا أين الرجال الأصحّاء، فلا بدّ أنّهم يعرفون أين يكمن الأزواج والأبناء والإخوة ما داموا تركوهم هنا:

إنّهم كلاب، راح يكرّر، كلاب لأنّهم تخلّوا عنكم. كانوا يعرفون أنّنا سنأتي وتركوكم.

واستمرّ يدور حول مجموعة الرجال والنساء والأطفال. ثمّ بدأ الجنود يعبرون بينهم، يعْدون على الأجسام، يرفسون كيفما اتّفق بأحذيتهم الثقيلة، فتصرخ النساء ويبكي الأطفال بين أذرعتهنّ. يصرخن أنّهنّ لا يعرفن:

لا نعرف شيئاً، رحل الرجال منذ وقت طويل، لا نعرف إلى أين، صوب المدينة، وهران، للعمل. ذهبوا بحثاً عن عمل.

والملازم لا يصدّقهن. والجنود لا يصدّقونهن. ينتزع الملازم طفلاً من ذراعَي امرأة. تقاوم في البداية، تتشبّث بالطفل. تتعلّق ذراعاها ويداها بجسمه بينما الملازم بمعاونة جنديّ يضرب المرأة بأخمص البندقية ليبعدها، يضربها على كتفيها لتُفلت الطفل، لتستسلم. وفي النهاية تستسلم وتنهار فيأخذ الملازم الطفل ويمسكه من رقبته بيد واحدة ويرفعه، ينهض الشيوخ والنساء فيصوّب الجنود إليهم بنادقهم، يرفع الملازم ذراعه أكثر فيبين الطفل بذراعيه الصغيرتين وساقيه الضامرتين اللّتين تنتفضان:

أبوه. أين هو؟ أين أبوه؟

يبقي الملازم ذراعه مرتفعة في الهواء والطفل يصرخ ويصارع، كما لو كان يسبح. تصرخ أمّه، تتوسّل، زحفت عند قدمَي الملازم تريد التعلّق به ولكنّ الجندي استمرّ يضربها ويبعدها بأخمص بندقيّته. الملازم لا يراها، ينظر إلى الآخرين في الساحة، جالسين جميعهم مرتعبين لا يجرؤون على فعل شيء.

أينهما؟ أين الرّجال؟

يسأل ولا ينتظر جواباً. انتهى. يُخرج مسدّسه ويلصق فوّهته على صدغ الطّفل فترتسم علامة ورديّة على الصدّغ. تنطبع العلامة. والطفل يصرخ، والملازم ينظر إلى النساء والكهول وقد صمتوا، ثمّ ينظر إلى الجنود من حولهم وقد امتقعت سحناتهم هم أيضاً:

لا،

سمع صوتاً يقول:

لا،

جمد وترك الصمت يغطّي كلّ شيء، ثمّ تساءل هل كان هو نفسه مَن تكلّم وقال:

لا.

أعاد سلاحه إلى غمده وبحركة لا مبالية، كما تُبصق نواة بعدما يكون الواحد قد أدارها في فمه طويلاً جدّاً، رمى الطفلَ على بُعد أمتارٍ منه. ولم يعد يُسمع إلّا نشيج المرأة وعويلها غير المتناهي وهي ترتمي على الطفل.

ثمّ نواصل السير إلى القرية التالية.

من قرية إلى أخرى، كانت رائحة الدخان ترافقهم، لا فقط في ملابسهم ولكن في الهواء أيضاً، فتنتشر وتلوّن السماء. في لحظة معيّنة عبروا نهراً بارداً، عريضاً جدّاً لكن لا يسيل فيه إلّا خيط رفيع من المياه يتلوّى على فراش الحصى، عَدوا فيه وعلى الصخور وحزَم الشّوك. الأرض رطبة ورمليّة يتناثر عليها نبات الأُشنان. وكان يُسمع ثغاء الخراف والعنوز. كانوا يلتقون بآثار صنادل وأحذية. يمشون بسرعة وبصمت، فلا يُسمع سوى خرير المياه وهي تجري بين الحجارة والحصى التي تنزلق تحت الأقدام وأصوات الشتائم التي يطلقها مَن يتعثّرون وقرقعة الأدوات المعدنيّة في حمولة الرجال.

كانوا يتوقّفون من وقتٍ لآخَر ليضعوا أيديهم في الماء ويترطّبوا.

لم يكونوا ينبسون ببنت شفة. وعندما أمر الملازم بوارو أن يذهب ليحضر المتأخّرين، امتعض هذا قليلاً، لا خوفاً بل احتقاراً لأولئك المتأخّرين أو ربّما ببساطة لأنّه لم يكن يريد أن يمشي أكثر من اللّازم.

وطبعاً وجدَ شاتيلَ بمفرده في ذيل المجموعة. عندما رآه هذا الأخير قادماً صوبه كانت نظراته قاطعة:

دعني وشأني.

كان شاتيل يريد أن يقول له: دعني وشأني.

ولكنّه لم يقل شيئاً. وحده بياض وجهه وشحوبه ونظرته الباردة قالت ذلك. أو الغضب بالأحرى. السخط. لم يدم الأمر طويلاً. فقط الوقت اللازم لكي يستدير الآخرون عندما سمعوا لا صوت العراك بالأيدي بل أمتعة الرجلين وهي تسقط في الماء ورذاذ الجسدين المتعاركين وتدحرج الحصى في المياه.

عندما فصلوا بينهما كان شاتيل مطروحاً أرضاً فيما الآخر يشتمه ويستمرّ بضربـه، يضربه بقوّة ويرفسه. كان شاتيل في الماء ويحاول حماية وجهه. كان جسمه خدِراً قليلاً، يشعر بالحصى تحته تتدحرج وتنزلق وتخبط جسده، ظهره، قفاه، ساقيه مثلما تفعل رفساتُ بواريه.

تَعارَكْ، يا خسيس، تَعارَكْ!

فأمسك الآخَرون ببواريه وأعانوا شاتيل على النهوض والتقاط أمتعته.

ولكنّهم فعلوا ذلك لا احتراساً ولا حبّاً له، بل فقط بهدف الإسراع لأنّ الملازم أعطى الأمر بذلك. ولم ينظروا إليه. ولم يُفاجأوا برؤيته يبكي. لكنّه لم يكن يبكي بل يمشي ويتمتم بشيء ما ونظراته مثبّتة على ظهور مَن يتقدّمونه، كما لو أنّه لم يعد يرى شيئاً وكما لو كان الفيء الذي يظلّلهم سيدوم إلى الأبد.

لا. فبعد قليل سيخرجون من الوادي. سطوح القرية التالية بدأت تظهر لهم.

توقّف شاتيل وراح يتقيّأ.

في المساء، كان واقفاً عند منضدة الشرب في المبيت. ولوقت بدا له دون انتهاء، ظلّ مستنداً إلى المنضدة لا يؤتي حركة بينما عيناه مصوّبتان إلى الصالة.

كان نيفيل وبواريه يلعبان «البايبي فوت».

ظلّ شاتيل ينظر إليهما عاجزاً عن إبعاد نظره عن هذين الرجلين اللّذين لا يفهمهما.

كان ينظر إليهما وإلى طريقة كلّ منهما في الوقوف مادّاً ذراعيه ومباعداً بين ساقيه، صدره وكتفاه يتحرّكان بسرعة. عنق نيفيل من الخلف، والرأسان حليقان تماماً. كان يراهما يديران المقابض ويسمع صدى اصطفاق القضبان المعدنيّة يتردّد في صمت المبيت الثقيل الذي بات فجأةً شديد الهدوء، حيث يحتسي بعضهم جعتهم من دون كلام، ورجال صامتون، يدخّنون، وحتّى عندما يضطرّون للكلام يفعلون ذلك بشيء من البطء. أهو التعب أم الخوف، لا يدري. لا يزال يسمع ويشعر بالماء في الوادي وبالحصى التي تزحلقت تحت جسمه عندما أراد الرجل الآخَر إرغامه على خوض العراك بالصوت نفسه تماماً الذي يصرخ به في هذه الأثناء على نيفيل لأنّه كان يربح. ووقْع الطابّة عندما تبدو كأنّها تخترق هدف المنافس، وقع حادّ وجافّ مثل طلقٍ ناريّ.

انتفض شاتيل.

كان الرجلان يلعبان بحماس بجعل «البايبي فوت» ينزاح من مكانه أحياناً وكان هذا يثير الرعب في شاتيل. ونظرات الآخرين من حوله، كيف كانوا يتطلّعون إلى اللّاعبَين المستبسلَين، والأصوات التي ترنّ في المكان وصرير «البايبي فوت» على الأرض، والطابّات البيضاء التي تكرج والتي تُرمى بثقة في وسط الملعب.

فيما بعد، عندما دخل شاتيل إلى المهجع في الساعة التي كان فيها الآخرون لا يزالون يتسكّعون في المبيت قبل الذهاب إلى المقصف، رأى برنارَ جالساً على سريره مستغرقاً في قراءة كتاب الصلوات.

ولم يرفع هذا الأخير رأسه إلّا ليخفضه مجدّداً بسرعة تاركاً شفتيه تتمتمان بالمزمار تلو الآخَر بسرعةٍ وتركيز. يعرف شاتيل أنّه هنا لا يمكنه التحدّث مع أحد، ولا حتّى مع برنار كما حسبَ في البداية. انتهى الأمر، يعرف ذلك. فبرنار برمٌ من شاتيل. كلّ شيء فيه يزعجه: نحافته الغريبة ولونه الشاحب وشارباه السوداوان الرفيعان علىِ شفته، نوعٌ من الوبر الشديد النعومة، الأشبه

بالظلال والذي يقصّه يوميّاً بالمقصّ. ثقته الزائدة بنفسه خلف المظهر الهشّ الذي يتلطّى وراءه، تواضعه الكاذب، وهيئة الطالب والمثقّف وبشاعته كذلك التي تجعل برنار يفكّر ويعتقد أنّ عجزه عن إثارة إعجاب النساء لا بدّ أن يكون السبب وراء اعتقاده أنّه خادمٌ لله.

ذلك أنّ شاتيل يقدّم نفسه على أنّه مسالم أو شيء من هذا القبيل. واحد من الذين لا يعرف عنهم برنار إلّا بضع كلمات لا يعرف أين سمعها. شخص من أولئك الذين لا نلتقي بهم كلّ يوم ويعتقدون أنّ إلهاً لا ينفي وجود آخَر، وأنّه رغم اختلاف العقائد الإيمانية فالحقوق يجب أن تكون واحدة، ويصل به الأمر إلى أن يقول:

منظّمة الأمم المتحدة، أتعرف ما هي منظّمة الأمم المتحدة؟

يستحيل أن تبقى ساكتاً أمامه وبرنار لا يوافقه على شيء.

إلّا أنه هذا المساء، عندما استُدعي الاثنان مع آخرين، خمّن برنار إلى أيّة درجة سيشعر شاتيل أنّه وحده، أكثر حتّى من الباقين. ومع ذلك يجب أن يذهب، أن يجد نفسه ليلاً مع الآخرين يخرجون من موقع الحماية ويمشون نحو ثلاثين متراً وينتشرون حول الموقع. وهم لا يحبّون ذلك، لا أحد منهم يحبّ ذلك، لأنّه يعني أن تجد نفسك ليلاً وحدك وأن تبقى صاحياً طوال ساعات مترقّباً، سلاحك جاهز، مقرفصاً أو واقفاً.

شكلوا حول الموقع دائرةً ولكنّ المسافة بين الرجل والآخر كانت كبيرة وشاسعة بحيث يشعر المرء بأنّه وحده ولا يمكنه الكلام مع جاره. في البداية سيرغب الواحد منهم في الكلام ولكن عندما يعرف أنّ الكلام يكشف موقعه ويجعل منه هدفاً، تماماً مثل التدخين، إذ يمكن حينها رؤيته وسماعه، سرعان ما يتخلّى عن الفكرة ويشعر أنّه أكثر انكشافاً وعطباً ممّا هو عليه عندما يكون في الداخل. فلا شيء يحميك هنا. وبرنار مثله مثل الآخرين لا رفيق له إلّا القرقرة الفظيعة التي تمزّق بطنه ورغبته في التقيّؤ، والجوع كذلك، فالعشاء قد صار بعيداً، ثمّ إنّ الطعام سيّئ، لا ليس سيّئاً، لا بأس به ولكنّهم يأكلون الأشياء نفسها دوماً. ذلك أنّهم يرغبون، أجسامهم ترغب في شيء آخر غير طبق اللّحم المعلّب نفسه أو علب التونة بالزيت أو حتّى الخضار الجافة مع الأرزّ، دوماً أرزّ، أو الحساء المطبوخ بلحم رديء بدل لحم البقر:

لا، لا، هذا لا يمكن أن يكون لحم بقر!

زمجر فيفرييه، هو الخبير باللّحوم والقادر على أن يميّز بسرعة بين طعم الضّأن وطعم الجمَل. ولكنّه لا يعرف مذاق لحم الحمير التي تُذبح أيضاً أحياناً عن طريق الخطأ. جثث حيواناتٍ فضيلتها الوحيدة أنّها ليست معلّبة فتسمّى لحماً. ونبيذٌ أيضاً. والعودة إلى البلاد. هذا ما يحكيه فيفرييه لبرنار في المساء أيضاً عندما يُريه صـورة خطيبتـه في محفظته. فهنا النساء عبارة عن ذكريات مخبّأة في المحفظات مع صور حفلات مساء السبت الراقصة والخطيبات اللّواتي نضمّهنّ بقوّة والفساتين الخفيفة ودفء الربيع، ليأتي بعدها ألم الرّغبة الحادّ الذي نطرده بالضّحكات.

ولكنّ فيفرييه يخرج صورة إليان على الشاطئ وهي واقفة وتبتسم للمصوّر. وهو يعرف أنّه في كلّ مرّة يخرج فيها الصورة ربّما كان يفعل ذلك ليتباهى قليلاً، ليقول: نعَم، انظروا إلى تلك التي تنتظرني، انظروا إلى ساقيها وقدميها الجميلتين الحافيتين على الرمل، وثياب البحر وشعرها المتطاير في الهواء ويديها على خصرها وابتسامتها على شاطئ ترانش سور مير وثدييها المكوّرين، ممّا يثير صفيراً في المهجع كلّه:

تبّاً، متى نعود!

يصرخ فيفرييه:

تبّاً، متى نعود!

ويضحك الجميع.

تبّاً، متى نعود!

يحاولون انتزاع الصورة منه وتمريرها بعضهم إلى بعض بينما تعلو القهقهات بين تعليقٍ وآخَر.

والآن، في اللّيل، يشعرون بالبرد.

حاول برنار ألّا يبقى على وضع واحد، كانت أعضاؤه تتخدّر وكان يحاول سماع مَن هم على يمينه ويساره ويغيّرون مثله أوضاعهم فيُسمعون من بعيد.

يقول الواحد في نفسه إنّهم الآخَرون. فحتّى لو اعتادت عيونهم الظّلمة، فإنّ ما يترصّدونه قبل أيّ شيء، ما يحاول هو أيضاً سماعه أكثر من رؤيته إنّما هو

الأصوات التي لا تصدر عنه هو نفسه، بل عن جسمه الذي يتنفّس بصعوبة تجعله يخاف أحياناً من صوت أنفاسه كما لو كان أحدهم ينفخ خلفه أو إلى جانبه. فتقبض يداه وأصابعه بقوّة على البندقيّة، بينما تجهد عيناه في البحث وهما تحاولان العثور على شبح، على خيال شخصٍ ما، فلا يرى على الخلفيّة الرماديّة المزرقّة إلّا المشهد الذي يعرفه منذ شهورٍ والذي يفضّل الواحد عندما تكون مهمّة الحراسة موكلة إليه أن يراه من فوق لا من هذا الموقع المتقدّم.

الفرق أنّه في الأعلى يكون الواحد في برج حجريّ صلب وثابت تحميه حجارة رماديّة منيعة على الرصاص يصعد إليه على درجٍ يبلغه عبر بوّابة حديديّة يقفلها قائد الموقع.

هناك لا يخشى الواحد شيئاً. يقول في نفسه إنّه لو هوجم الموقع فهذا هو المكان الوحيد حيث لا يمكن أن يحصل شيء.

أحياناً عندما يكون دور برنار في المراقبة ويضرب عليه اللّيل، لا ينجح البرد في إبقائه صاحياً. فالجوّ دافئ هنا ويمكن لأحدهم أن ينام بسهولة أكثر ممّا في المهجع، فهنا، على الأقلّ لا شخير ولا روائح تعرّق لتقلق رغبته في النوم. غناء الجداجد يرافق حركة غفوته، والنسيم الخفيف في الأشجار والخمائل يتسلّل إليه، وهذا الخدر الذي سرعان ما يصير لمسة مداعبة يستمتع بها وهو يفكّر: ثمة ما هو أسوأ من هذه اللّحظات.

إذ يمكن تخيّل ما يحصل في الجهة المقابلة للموقع، خلف خزّانات النفط. نتخيّل البحر والمراكب التي نسمع أحياناً صفّاراتها، وفي الجهة الأخرى، خلف التلال، تمتدّ هذه البلاد التي لا نعرف عنها إلّا اسمها وبعض الأفكار الجاهزة الأشبه ببطاقات بريدية عن الصحراء والجِمال والفرسان المعمّمين المنطلقين بأقصى سرعة والرمال تحوط بهم كَالسّحاب، وحركاتهم المَرنة عندما يرقّصون على رؤوسهم سيوفاً ضخمة ومقوّسة مثل المناجل.

ولكن أصبحنا نكتفي بالإمساك بالبندقيّة وبرنار مثله مثل غيره يُضني عينيه بالبحث عن خيالات متحرّكة في اللّيل.

يعرف أنّ الكلاب السائبة تروح وتجيء حوله. يراها أحياناً عندما يكون في البرج، بقعاً قاتمة في العتمة الزرقاء، الشفّافة حيناً والورديّة في حينٍ آخر. ولكن من فوق لا يخاف التعرّض لهجوم ولا حتّى من الكلاب التي تجذبها إلى هناك رائحة النفايات.

ولكن في هذا المساء تحديداً سُمعت هناك خشخشة.

خشخشة أشبه بتكسّر الأغصان تحت الأقدام.

حبس برنار أنفاسه بضع ثوانٍ ليصيخ السّمع. ربّما ليس هذا إلّا أحد الرفاق ذهب ليتبوّل بعيداً. في معظم الأحيان، عندما يكون دوره في الحراسة، يخاف بشدّة من أن يتعرّض للهجوم في اللّحظة التي يرخي فيها دفاعه ليذهب ويقضي حاجته، لذا يُمسك نفسه قدر استطاعته. فكثيرة هي الأخبار التي سمعها عن جنود وُجدوا في الصباح الباكر مذبوحين وذكَر الواحد منهم في فمه. ولذا يصيخ السمع أكثر. أجل. ثمّة صوت لا يزال بعيداً. صوت أشبه بخشخشة الأغصان تحت الأقدام، أو ربّما هي الريح. يعرف جيّداً أنّه يمكن أن يكون أيّ شيء.

في كثير من اللّيالي يعجز عن النوم حتّى عندما يكون في الموقع.

ذلك أنّ حكاية المال وأمّه لا تزال تُثير فيه الغضب: يعرف أنْ ليس بيده شيء.

عبثاً كان يحاول طرد الخوف ليلاً وهو يرتّل المزامير ويداعب حديد بندقيّته ويربّت على أخمصها، فهو يعرف أنّ الغضب أعماه طوال أسابيع، الأسابيع الأولى على الأقلّ، خدّره، وكيف أنّه بفضله أو بسببه لم يُرحَّل إلى الآن. فهو لا يريد البتّة العودة إلى الحقول أو الجلوس طوال العصر يراقب الأبقار وهي ترعى شبابه وحياته كلّها التي تمضي في رعشة أوراق الحور.

انتهى كلّ هذا.

اليوم، يحلم بأن يعمل في تجميع الآلات في المدينة ويترك سأم الحقول وشقاءها. يريد مالاً. ويتصوّر أنّه بالمال سيتغيّر كلّ شيء. يمكنه حينها الذّهاب إلى المدينة وإيجاد وظيفة في مصنع وحتّى، لمَ لا، في مرآب، مثل نيفيل الذي يصلّح السيّارات عند وكيلٍ قرب أورليان. أو حتّى ما هو أفضل: أن يمتلك مرآبه الخاصّ. يفكّر بالأمر منذ تعرّف إلى ميراي. هذا ما يحلم به وما يتحدّث به أحياناً مع آخرين قرّروا مثله ألّا يعودوا إلى المزرعة لأنّ العمل فيها شاقّ وغير مُربح بالضرورة.

وراح يفكّر مجدّداً بالمال الذي ما كاد يربحه حتّى خسره.

يرى نفسه وهو يطالب أمّه بالمال عشيّة عودته، بعد أن يكون أخيراً قد أكل ونام ليجد القوّة اللازمة للمواجهة والمطالبة بحقّه. لا يمكن أن يحصل الأمر

يوم وصوله عندما يأتون لاستقباله في المحطّة والكلّ يريدون أن يلمسوه ليتأكّدوا أنّه هو فعلاً من يقف أمامهم. يتخيّل المشهد برمّته، يرى حتّى وجه أمّه التي تنتظره في منزلها والتي لن يكلّمها فور وصوله بل في اليوم التالي، مرتجفاً، جامداً وجاهزاً للاستسلام بسبب الألم في بطنه ولكنّه مع ذلك مصمّمٌ على ألّا يرضخ وأن يرغمها على أن تعيد له ماله كاملاً قطعةً قطعة، المال الذي لم يتبقَّ منه إلّا بقرتان في الحقل وسقيفة الهُري الجديد.

كان يفكّر في هذا خصوصاً في اللّيل.

وها هو يقول لنفسه إنّه لن يستعيد المال الذي أخذته أمّه. لم يعد يحتاج إليه. يقول إنّه لن يطأ مجدّداً منطقة لاباسيه وتحديداً منزل والديه، لأنّه تعرّف إلى ميراي ويعرف أنّه سيرحل معها إلى باريس وهناك يفتح مرآباً للسيّارات.

وهذه المرّة، هو شبه واثق من أنّ ثمة ما يتحرّك هناك في البعيد.

شيء يتقدّم.

قرفص وانتظر. يريد أن يُحسن السّمع خلف غناء الجداجد وصوت الريح الخفيفة والدافئة تحت سماء شديدة الصفاء. لن يتجرّأ الفلّاقة على شنّ هجوم في مثل هذا الجوّ، سيُكشَفون بالتأكيد، فالسماء شديدة الانقشاع لا غيوم فيها والقمر نصف مكتمل والنجوم أشبه بمليارات من المصابيح. تطلّع أمامه، يمكنه أن يرى قليلاً لا بل بشكلٍ ممتاز. يرى يديه وذراعيه وساقيه وجسمه وانعكاس الضوء الرماديّ على معدن بندقيّته. يقول لنفسه إنّها ليست ليلةً مدلهمّة، ولذا لن يجرؤوا. ثمّ إنّ المرّة الوحيدة التي تجرّأوا فيها على التسلّل، ما زال يتذكّرها، فقد كان في المهجع وإذا برشقٍ ناريّ واحد وواضح يشقّ اللّيل مثل نصلٍ يقطع حبّة فاكهة.

كانت عيون كلّ الرّجال مفتوحةً على سعتها كما لو كانت عيناً واحدة.

استيقاظٌ فوريّ ومباغت لحقه صمتٌ ريثما يجلس الواحد منهم في سريره ويشعل الضوء ويستمع ويُسكت مَن بدأوا يتكلّمون ويقلقون قبل أن يفهموا ما يحصل.

اخرسوا!

كانوا يراقبون بعضهم بعضاً محاولين حبس أنفاسهم القويّة والثقيلة وشبه المتقطّعة.

صهْ!

ثمّ عادت الرشقات النارية تُسمع في اللّيل. قالوا إنّه الجنديّ في أعلى المرقب يطلق النار دفاعاً. إنّه لا يفعل سوى الردّ.

خلال بضع ثوانٍ تساءلوا هل كانوا يتعرّضون لهجوم وهل سيحاربون. أو...

ثمّ سكت كلّ شيء. صمت طويل وعميق. كما لو أنّ الشّاطئ بأكمله قد أسكتَ كلّ حياة فيه ليترك الرصاص يخترق حجاب الظلمة السميك وبرودة الهواء. ثمّ سُمع صوت ابن آوى، أو ربّما كان ذلك صراخ الفلّاقة وهم يهجمون، قبل أن يسكت كلّ شيء.

في اليوم التالي، عُثر على آثار أحذية ثقيلة على الأرض وبركة كبيرة من الدم القاتم بلون المازوت وجثّة بالزيّ الأزرق الغامق لرجلٍ من المنطقة يعرفونه جيّداً.

كان يعيد التفكير في هذه القصّة وبات مدركاً أنّها فكرة سيّئة وأنّه يجب عدم التفكير في كلّ هذا فهم لن يعودوا. فالسماء صافية جدّاً واللّيل باهر الوضوح. لكنّه سمع أحدهم يسعل في البعيد كما لو أنّ شخصاً ما يتكلّم خلفه.

التفت ولم يرَ خلفه إلّا برج المراقبة وسياج الموقع. ثمّ استدار نصف دورة، فهو يعرف جيّداً أنّه يجب ألّا يبقى مديراً ظهره إلى التلال. شعر بأنّ الخوف بدأ يسيطر عليه لأنّه لم يعد يشعر بالبرد، لا بل إنّ عرقاً لزجاً راح ينتشر ويجتاح كلّ ظهره.

مرّر يده على عنقه وجبينه. أجل، إنّه سائلٌ دبقٌ لا حاجة لتذوّقه فهو يعرف غيباً طعمه المالح.

لذا يجب الاستعانة بشيء. يجب التفكير في ميراي بغية الصمود وعدم الوقوع في أسر الخوف والرغبة في التبوّل التي سيستسلم لها عمّـا قريب. في هذه اللّحظة لا يزال بإمكانه الصمود وسيبقى واقفاً، متمسّكاً ببندقيّته، يدور حول نفسه أكثر من مرّة ويمنع نفسه من عدّ الظلال والنتوءات والزوايا والأشـجار وحركـات الأغصـان والتلال وسـواها، ويفكّر في ميراي ويقول لنفسه إنّه يحبّها وإنّ الحبّ مسألة غاية في البساطة ولا تحتمل التعقيد.

لا يفكّر في ميراي طوال الوقت. لا يعتقد أنّها فتاة فائقة الجمال. لا، الحبّ ليس أعمى كما قالوا له.

يرى نفسه في مرآب سيّارات يملكه، تمسك فيه ميراي الحسابات، فهي سوف تجيد القيام بهذا بالتأكيد. يتذكّر لقاءهما في حانة مع ابن عمّه رابو وكيف نسي قبّعته العسكرية فكتبت له لهذا الغرض، وكيف ذهب لزيارتها بناءً على دعوتها ليستردّ القبّعة. والانطباع القويّ الذي تركه عنده والد ميراي عندما وجد نفسه وفيفرييه جالسين على الكراسي حيث استقبلوهما مقدّمين لهما عصير اللّيمون (كما لو كانا طفلين لا شابَّين راشدَين).

لم يتمالكا نفسيهما من القول إنّهما ليس فقط لم يريا يوماً مزارعاً وكرّاماً مثل والد ميراي، بيديه الرفيعتين البيضاوين، بل كذلك إنّ فكرة وجوده أو احتمال وجوده نفسه لم يكن قابلاً للتصّور بالنسبة إليهما، لولا أنّهما كانا هناك، أمامه، جالسين حول طاولة كبيرة من الخشب الأسود اللّماع، هو بقميص وربطة عنق وبكمّين مرفوعين حتّى منتصف الذراع، يبدو مسترخياً رغم قسماته القاسية وشبه الصّارمة، شعره مسرّح إلى الخلف ونظّارتاه ترسمان وجهه الهزيل العاديّ لا يميّزه شيء عن باقي المعمّرين هنا.

ولكنّ كلّ تلك اللّوحات المعلّقة على الجدران التي رأوها حالما فتحت لهم الخادمة الباب. والبُسُط. الفناء والنافورة. البرودة. الأثاث الضّخم. الدرج. المنزل بكامله، بكلّ سعته، يقول برنار في نفسه إنّ كلّ هذا جزء من جمال ميراي. وتذكّرَ ميراي وهي تقول له إنّ في ملامحه ما يذكّر بممثّل أمريكيّ يعجز عن تذكّر اسمه، لا بل إنّه يشبهه حقّاً. يستعيد كلّ هذا ويقول في نفسه ويكرّر إنّ ميراي ربّما كانت هي فرصته.

بالتأكيد إنّها فرصته.

وعندما يصلّي لا ينسى أن يشكر الله على لقائه بميراي وشبهه بالممثّل الأمريكيّ.

كأن يقول لنفسه إنّه، بما أنّهما صارا يتكاتبان غالباً ويتحادثان عن المستقبل فهذا يعني أنّ كلّ هذا سينتهي غداً. ويعِد نفسه بأنّ كلّ شيء سينتهي عمّـا قريب. كلّ هذا اللّيل. وهذه الحركة التي يسمعها عن يمينه كما لو أنّ أحداً ما يمشي ويقترب. والصوت الذي يُسمع آنئذٍ ليس خشخشة أغصانٍ أو أشواكٍ تحت القدمين بل صرير أسنانه هوَ. الخوف في فمه وفكّاه مشدودان بحيث كادت لثّته تنزف وأسنانه تتكسّر في اللّحظة التي اخترقت فيها الرّشقات حجاب اللّيل، غير بعيدٍ مِن يمينه. اجتاح المكان وميضٌ أبيضُ مزرقٌّ ولمعانٌ

وصدىً فانبطح هو أرضاً يداه جاهزتان لإطلاق النار وأصابعه مشدودة على الزّناد.

كان يرتجف ويتنفّس بقوّة. كان جسمه كلّه يختلج والطنين القويّ في أذنيه يمنعه من سماع صوت تنفّسه أو صوت الجداجد أو صراخ الرّجال في البعيد. لم يكن يعرف بعد أنّ مُطلِق النار قد خاف من شبح ثلاثة كلاب كانت تتسكّع بالقرب منه، ولا أنّ كلبين ماتا بينما فرّ الثالث صوب التّلال واختفى. كلّ ما يعرفه أنّ فكّه يؤلمه وأنّه عاجز عن حبس دموعه، وهذه الطّقطقة وهذا الانقباض في حنجرته الشّبيه بالحرْق، بالخناق، وسرواله المبلّل ومثانته التي فرغت بالكامل وشيء ما في رأسه يشوّه كلّ عضلات وجهه حتّى الألم.

ومع ذلك، فمن اليوم التالي سيكون أمامه العالَم نفسه والصباحات تتبع نفْس الوتيرة،

يا فلان! القهوة!

كما لو أنّ شيئاً لم يحدث في اللّيلة الفائتة. والجميع سيتصرّفون على هذا الأساس.

وكلّ يوم يُعهد إلى واحد منهم بالنهوض وجلب القهوة من المطبخ. أحياناً يكون دوره هو وفي أحيانٍ كثيرة لا، عندها يفعل مثل الباقين، يتأفّف مع زملائه الخمسة والعشرين في الفرع. أزيز أخبار الصباح يتصاعد من أجهزة الترانزيستور. تصيح أصوات تطالب بإطفائها، بخفض صوتها، بينما ينهضون بعيون نصف مغمضة ليبولوا لصق السور في الخارج.

اليوم سيكتب إلى سولانج. سيفعل ذلك كالعادة لتزجية الوقت والاطمئنان عليها، سيقول لها إنّه يفرط في أكل السّجق والمربّى وشرب القهوة.

يمكن أن يكتب أيضاً: لا بأس بالحال.

يمكنه أيضاً أن يسأل عن أحوال العائلة وأخبار بيتهم - لا يجرؤ أن يكتب «بيتنا» فيبدو عاطفيّاً جدّاً وخبيثاً - ويصرّ على أن تخبره بأحوال هذا وذاك، أن تحكي له تفاصيل ونقاشات ونوادر عن الحياة في البلدة وأيضاً أخبار شبّان آخرين رحلوا مثله ليدافعوا عن السلام برشّاشات وأحذية رنجر، ولينقذوا البلاد التي لم يفهم هو يوماً ما الخطر الذي يحدق بها طالما لا يحصل فيها شيء غير الضجر القاتل.

وعندما يطلب منها في رسائله أن تزوّده بالأخبار، فليس لأنّه يريد أن يعرف فعلاً ما أحوال أشقّائه وشقيقاته - هم لا يزالون ينامون في الغرف المحاذية لغرفة الوالدين، أربعة في عرض السرير، أجل، يعرف هذا، وأربعة في عمق الغرفة، أي ثمانية، بالإضافة إلى بعض الآخرين الذين ينامون في أمكنة أخرى، عند أرباب عملهم، في المزارع، بينما ينام آخرون في التوابيت إلى الأبد. أمّا هو، فينام في هذا المكان، في سرير حديديّ مغطّى ببطّانيّة رماديّة نجد أسفله علباً ملأى بالماء ليُغرق فيها الديدان.

على الأقلّ، لديه سرير له وحده. إنّه محظوظ، يردّدون له. فالمَهاجِع هنا حجريّة بينما غيرها عبارة عن خيم بدائيّة يمكن لسكاكين الفلّاقة اختراقها بسهولة فائقة فما بالك بالرّصاص!

أجل، المكان هنا جيّد.

يمكنه أن يكتب لسولانج أنّ الوضع بالنسبة إليه كان يمكن أن يكون أسوأ. يخبرها بأنّهم ليسوا بعيدين عن وهران، وأنّه التقى هناك مجدّداً بابن عمّهما رابو وأنّه تعرّف برفقته إلى ميراي وإلى آخرين: فيليبير وجيزيل وجاكلين.

يروي كيف يجتمعون في حوالى الثامنة ويبقون في وضع التأهّب حتّى رفع العلم. إنها اللّحظة التي ينظرون فيها إلى العلم في السماء الزرقاء. اللّحظة التي يحاول الواحد فيها إقناع نفسه بأنّه هنا لهدفٍ ما، أفكار، مُثُل عليا، سموّ ما، مشروع حضاريّ كما تشرح إحدى الكرّاسات التي حصل إليها عند وصوله.

يوكل الواحد لنفسه مهمّةً، هدفاً، ويكون مزاج قائد الموقع هو مقياس النهار. أعمال صيانة، جردة للأسلحة والمهجع، تعليمات للواصلين الجدد، وجولات رماية. فوجودهم هنا، محشورين بين البحر والجبال، هو بهدف حماية خزّانات النفط الكبرى. وأيضاً حماية مدير محطّة التكرير وعائلته. في البداية، استغربوا أن يُعيَّن جزائريّ في هذا المنصب. فإذا كانت الخزّانات بمثل هذه الأهمّية والنفط مادّةً ثمينة، فكيف يكون جزائريّ هو المسؤول عنها، كانوا يتساءلون ولا يعرفون أنّ ثمة أيضاً برجوازية عربيّة هنا.

ثمّ إنّهم يكادون لا يرون الرّجل إطلاقاً ولا حتّى زوجته. تبقى في المنزل، القائم داخل الموقع والبعيد بما يكفي ليبدو منعزلاً. عندما يكون الواحد في مهمّة تفتيش أو حراسة، يصل إلى خلف المنزل، وهو منزل حجريّ كالمنازل التي نجدها في فرنسا، مكعّب بسيط من طابق واحد، يدور دورة كاملة خلف

البستان الصغير حتّى الأسلاك الشائكة. وهذا يطيل الطريق بشكلٍ معتبر ولا أحد يحبّ المرور من هنا، لأنّ الابتعاد عن بقيّة الموقع مقلق نوعاً ما لا سيّما ليلاً. المكان مظلم. يمسك الواحد بندقيته بيده ليتقدّم، وينحني ليرى بشكلٍ أفضل ويظلّ متيقّظاً.

أحياناً يُرى ضوءٌ خلف إحدى النوافذ.

لا يكتب لسولانج أنّ البعض منهم يدّعون أنّهم رأوا خيال المرأة عارية خلف الستارة أو حتّى أمام النافذة. لا أحد يصدّق ولكنّ الجميع بقوا مع ذلك مرّة أو مرّتين لوقت أطول من المعتاد تحت نافذة المدنيّين الوحيدين في الموقع، لعلّ وعسى...

ولكن لا شيء حدثَ.

في المقابل، يمكنه القول إنّهم يرون الزوج في الصباح الباكر وهو يعبر الباحة ليصل إلى مكتبه في الجهة المقابلة من الموقع. لا يعرفون تماماً ما يفعل هناك طوال النهار. يعرفون أنّه يستقبل زوّاراً، وأنّ شاحنات تصل بشكل دوريّ بحماية فصيل كامل من الجنود خشية التعرّض لهجوم. يملأون الشاحنات فتنطلق بحمولتها.

يحصل أحياناً أن يروا الابنة الصغرى للزوجين. ثيابها قاتمة دوماً وغالباً ما يلتقي برنار بها عندما يكون في مهمّة تفتيش الموقع برفقة نيفيل أو فيفرييه أو بواريه أو آخرين.

عندما يعبرون أمام المنزل، يسمعون أحياناً صراخ رضيع.

الفتاة الصغيرة خجول أو ربّما كانت تخاف، لا يعرفون. مهما يكن الأمر فإنّها عندما تُسأل عن اسمها وسنّها تُجيب خافضةً عينيها. فتيحة، كان هذا هو الاسم الذي تهمس به.

فتيحة عمرها ثماني سنوات.

ثمّ يحين موعد الغداء والقيلولة. نهارات غريبة وطويلة كتلك التي كان يمضيها مع البقرات في الحقول، لا موسيقى يسمعها المرء سوى طنين الذباب وصوت أنفاسه القويّ والمتقطّع وهو في حالة بين النوم واليقظة في ساعات العصر.

أمّا هذا العصر، فلم يكن بمفرده وحيداً، كانوا وحيدين جميعاً.

هذا العصر، لم يكن هو فيه الوحيد الذي لا يرغب في الكلام.

كانوا يسيرون بلا كلام. يستمعون إلى صوت الزيزان وضجيج الحصى تحت الأقدام. يكتفي كلّ منهم بأن يتبع الشخص الذي كان أمامه دون أن يعرف إلى أينهما ذاهبون ولا يهمّه أن يعرف. يستمعون إلى نيفيل وهو يحكي عن المزارعين هنا ويعبّر عن إشفاقه عليهم لأنّه حسب قوله لا شيء ينبت على الأرجح في أرض كهذه. ثمّ يجيب عبد الملك بالنفي، فهو يذكر أنّه هنا كان يُزرع القمح ولكنّ الفلاّحين في المراكز لم يعد بإمكانهم العمل في الأرض.

وتسمّي هذه أرضاً؟

نعم. في السابق كانت مزروعةً قمحاً.

ويتكلّمون عن أشجار الزيتون الضخمة ذات اللّون الأخضر المائل إلى الرماديّ وغير المعروف عندنا؛ كلّ شيء شديد البياض هنا، حليبيّ، لا ظلال فيه ولا نتوءات. حتّى الجبال تمتزج بالسّماء، وحتّى الأزرق ليس أزرق تماماً بل يبدو ممزوجاً بضباب حليبيّ اللّون يختلط فيه الجبل بالسماء. لديهم الوقت كلّه لتأمّل المشهد ففي الطريق لا يلتقون بأحد. لا يرون أحداً. لا شيء إلّا أكوام الحصى والغبار والذباب الذي يلتصق بالوجوه المتعرّقة، والعيون تنظر بإمعان لترى أمامها، على بعد حوالى مائة متر، كومة من الحجارة وأبنية ومنازل قرويّة.

نعم، من البعيد هذا يشبه قرية.

بضعة أسيجة وأدغال متفرّقة وهزيلة من عشبٍ ضارّ أصفر خيطيّ وعِكرِش حيثما كانـت عائلات وبيوت. لا يفهم برنار لماذا طُرد الناس ولكنّه يشعر أنّ من الأفضـل ألّا يسأل. يطوفون صـامتين في الطّرقات الصّغيرة الأشبه بأزقّة.

أحياناً يلمحون أثاثاً مصنوعاً بكامله من التراب. وأحياناً تكون الأشياء مشكّلة ومزيّنة بالكامل أو في أجزاء منها برسوم كبيرة. أفاعٍ في الغالب.

يجب أن يرحلوا. يجب ألّا يبقوا هنا. فالمكان أشبه بمقبرة. فكّر برنار في ما حُكي له عن أورادور سور غلان [12] فشعر بالعطش لثوانٍ. عطش غريب توجّبِ إرواؤه فوراً فيما كان الآخرون قد عاودوا الانطلاق وبقي هو بضع ثوانٍ

ضائعاً في الخلاء، نظره مثبّت على إناء مهشّم في ما ربّما كان ذات يومٍ مطبخاً.

بعد ذلك، عندما وصلوا إلى المخيّم الذي جُمع فيه الناس وبدأوا بالجولات التفقّديّة، راح برنار ينظـر إلى الناس ويتسـاءل ما كنّا سنفعل نحن بدورنا في قرى الميني لو هاجمنا جنود وهدموا وحطّموا كلّ شيء ومنعونا من الزراعة والعمل.

كان يتخيّل ذلك.

كلّ هؤلاء الناس بلا عملٍ الذين سيُجمعون في مخيّم! كان يتخيّل ويتساءل هل كانوا هم أيضاً سيفعلون ما يفعله الرجال في المخيّم فيفرشون على الأرض بضعة أوعية بلاستيكيّة للبيع مصدّقين أنّهم بهذه الطريقة يصيرون بقّالين أو سائقين لكي يحصلوا فقط على رخص قيادة ولو من دون سيّارات، أو نجّارين، لمَ لا، مع مسامير عتيقة وصدئة في علبة قهوة فارغة، أيكفي هذا لاحتمال ذلّ البطالة؟ أيمكن أن يحتمل الرجال الذين يعرفهم البعدَ عن محاصيلهم ورؤية الأسيجة الحديدية تحاصر أطفالهم؟

كانوا يرون رجالاً بجلابيـات من الصـوف يبقـون جالسين طوال ساعات بلا كلام.

كما لو كانوا أكياساً.

أكياس إسمنت لأنّهم لا يتحرّكون ولا يعرف برنار ماذا ينتظرون: يتخيّل فقط ما سيكون عليه الأمر بالنسبة إلى أبناء بلدته لو عرفوا الذّلّ نفسه، ذلّ فلاّح يُحرم ممّا يشكّل له سبباً للعيش. كان يتخيّل أشقّاءه والأطفال يلعبون كما رأى هنا، حول النافورة، بألعاب مصنوعة من شرائط حديدية، عجلات بنحافة القشّ وعربات بهشاشة الورق، ونظرات شقيقتين، الأولى ذات جدائل والثانية ترتدي فستاناً ورديّاً عليه سنونوات زرقاء سماويّة مطرّزة بشريط مذهّب.

كانوا يتفحّصون الناس بدقّة. لا يعرف تماماً لماذا ينظر إلى الناس بهذه الشاكلة، إلى بؤسهم، كما لو أنّه لم يرَ يوماً شيئاً من هذا القبيل. ولكنّه شديد التعب والإرهاق ولا يكفّ عن التساؤل عمّـا يفعلون هنا. يرى جيّداً أنّ الأمر سخيف وأنْ لا معنى لوجودهم هنا. فلنعد إلى بيوتنا ولنترك هذه الوجوه

والخوف الذي تبثّه فينا، وصمتهم ورزانتهم ولمعة عيونهم: أهي الحمّى أم الغضب؟

لا يعرفون.

لا يعرفون السبب ولكنّهم يعرفون أنّهم خائفون. وبرنار لا يزال في فمه المذاق نفسه الذي شعر به تلك اللّيلة ولكن أكثر حلاوةً وإيلاماً. ينظرون الى الجنود وهم يمشون بين الأكواخ ببطء، ببطء شديد. وهو واحدٌ من الجنود، شبّان في مقتبل العمر يمشون في ممرّات المخيّم.

يمشي بهدوء ويفكّر في عبثيّة هذا المخيّم المبنيّ على شكل خطّ مستقيم ببلديّته ونافورته وبؤسه وصغاره بشعورهم المتّسخة وأجسادهم الهزيلة ونظراتهم المندهشة عندما يدخل الجنود ليفتّشوا منازلهم دون أن يسألوهم شيئاً، وهم لا يجرؤون على أن يقوموا ضدّنا بأيّ شيء.

فالهدوء الظاهر في المخيّم والاستسلام القانع لا يتغيّران. والعنف في نظرات النساء الثاقبة هو نفسه، والأطفال بعيونهم المغمضة وبطونهم المنتفخة كالكرات، والرجال الذين يبقون هنا دون أن ينبسوا بكلمة، ينتظرون.

غداً يذهب قسمٌ من الشبّان إلى وهران. برنار ليس منهم وعليه البقاء في الموقع.

عليه البقاء طيلة النهار وهو ينتظر عودة الآخرين ويفكّر في الفرصة الضّائعة. لا يرغب في الحديث عن الميكانيكا مع نيفيل. إنه يوم حارّ جدّاً وثقيل جدّاً مع أنّ القرب من البحر يكفل شيئاً من البرودة. يهب نفسه قيلولة ويمشي في الموقع شطراً من العصر، بداعي الضجر أو لينشّط ساقيه. إنّه اليوم الذي سيلتقي فيه بالصغيرة فتيحة جالسة في ظلّ شجرة زيتون.

كانت تلعب ولم تره فوراً. عندما رفعت عينيها صوبه، ابتسم لها وسألها ماذا تلعب. اقترب منها، وهي، بصوتٍ ليس عالياً بل واثق، مثل الصوت الذي تتخيّل طفلة في الثامنة أنّه صوت شخصٍ راشد، رفعت الكلفة فوراً وراحت تعطيه التعليمات: تأخذ حبّات الزيتون، يجب أن تكون ناضجة وغير قاسية كثيراً ثمّ ترميها بهذه الشاكلة (وهنا ترمي حبّتي الزيتون اللّتين كانتا في يدها)، هكذا، ثمّ تدير يدك ويجب أن تسقط الحبّات على ظاهر يدك. وإذا لم تنجح يعطيك

منافسك ضربات صغيرة بإصبعه على يدك، ضربة لكلّ حبة زيتون تسقط أرضاً. الآن وقعت مني حبّة، عليك إذن أن تضربني بإصبعك مرّة واحدة.

فجلس القرفصاء إلى جانب الفتاة وراحا يلعبان بضع دقائق قبل يؤخذ الاثنان باللّعبة. كان برنار يرمي حبّات الزيتون ولا ينجح دوماً في التقاطها. كانت تؤنسه الجديّة التي تجمع بها فتيحة أصابعها وتضربه على ظاهر يده وهي تعدّ الضربات بصوتٍ عالٍ.

أراد هو أيضاً أن يقترح شيئاً ما. خطرت له فكرة أعجبته إلى حدّ أنّه ابتسم وطلب من فتيحة أن ترافقه. تردّدت في البداية، فكّرت قليلاً ثمّ قالت إنّ والدتها لا تريد لها أن تتحدّث كثيراً مع الجنود، ولكن حسناً، نعم، سيكون هذا سرّاً صغيراً ووالدتها لن تعرف شيئاً.

عندما وصلا إلى المهجع لم يكن فارغاً. كان هناك ثلاثة رجالٍ أو أربعة بينهم بواريه ونيفيل. اقترب برنار وفتيحة من صندوق يحوي سلحفاة.

إنّها تميمتنا. هم من عثروا عليها.

سلحفاة؟ لم أكن أعرف أنّ ثمة سلاحف هنا.

ولا نحن.

ثمّ اقترب بواريه ونيفيل بدورهما من الصندوق ونظرا إلى الحيوان. حملها بواريه بعناية، كان يمكن رؤية أطراف السلحفاة مثل أطراف سبّاح ننظر إليه من أسفل يمارس سباحة الصدر، وتراجعت فتيحة لبرهة لتخاف وتخيف نفسها ولتضحك تعبيراً عن الاندهاش والمفاجأة، قبل أن يقدّم لها بواريه أخيراً السلحفاة طالباً منها الانتباه فأسنانها حادّة ومخالبها قاطعة.

سألتهم فتيحة ما إذا كان بإمكانها العودة لزيارتهم، فقال لها الرجال أنْ أجلْ، عندما تشاء.

رافقها برنار في خروجها. مشى قربها قبل أن تركض صوب درّاجتها الصغيرة التي تركتها من جهة الشاحنات بعيداً من منزلها.

يجب الانتظار بعد. انتظار عودة الآخرين من وهران.

أسفَ برنار لأنّه لم يذهب معهم، فالمدينة في كلّ مرّة تكون أشبه بنفحة هواء منعشة. عليه انتظار عودتهم حاملين أخباراً ورسائل مُرتجاة.

لا يزال يتذكّر المرّة الأولى التي ذهب فيها إلى وهران في السيّارة العسكرية المصفّحة التي تفتح الطريق وسيّارة الجيب التي تتقدّم في أثرها، وكيف أنّهم لم يفكّروا في خطر الكمائن بل فقط في الساعات القليلة التي يمكن أن يمنحوا أيّ شيء في سبيل الحصول عليها. كانوا يعرفون أنّهم، بعد الانتهاء من التموّن في مركز القيادة، سيمضون العصر في الشوارع والمقاهي ويذهبون لسماع الموسيقى أو للقيام بأيّ شيء، فلا شيء يبدو مستحيلاً عندما يعرفون أنّهم بعيدون عن خزّانات النفط الرماديّة الضخمة تلك التي تغلق الأفق من جهة بينما تغلقه الجبال من الجهة المقابلة.

كانوا يتمشّون جماعات في المدينة، ينظرون إلى واجهات المخازن وإلى أشجار النخيل. يرون البحر ويسمعون هدير السيّارات ولا يعرفون بعد إلى أيّ حدّ هو تافه وعاديّ مشهد النساء المحجّبات الذي يبدو لهم رائعاً. هؤلاء اللواتي يركبن درّاجات نارية وتلك التي تقود درّاجتها وهي متدثّرة ببرقع غريب البياض نلمح منه حاجبيها المعقودين وعينيها اللّتين تتطلّعان إلى الأمام، وتفصيل كان يسلّيهم: الحذاء البلاستيكيّ الأصفر ذو الكعب العالي.

سواء أن يكون سلّاهم أم لا. فقد كان يربكهم أيضاً ويفاجئهم ويعيد إلى أذهانهم فكرة الذهاب لرؤية نساء، تعرفون أين.

أمّا هو، فلم يلحق بالباقين، يذكر هذا أيضاً. يذكر ابن عمّه رابو الذي لاقاه في حيّ شوبو، ولكن قبل ذلك يذكر المشي في المدينة برفقة إيدير، مستغرباً أن يمشي هو في المدينة برفقة جزائريّ، بصمت، يقوده دون أن يتوجّه له بكلمة، دون أن يحاول أيّ منهما توجيه الكلام للآخر. ففكرة أن يتبادلا الأسئلة لم تخطر ببال أيّ منهما، واكتفى كلّ منهما بعمل ما عليه. يعرف برنار أنّ إيدير سيلتقي بعائلته وهذا يكفيه. ولكنّه لا يعرف أنّ إيدير انخرط في الجيش ليدافع عن فرنسا مثلما فعل جدّه، بطل العائلة المكرّم بالأوسمة والذي ترك ذراعه في مكانٍ ما في أوحال فيردان.

لم يسأله برنار شيئاً، اكتفيا بالمشي وتأمّل المدينة.

وعلى الجدران تُقرأ عبارات:

النصر للجزائر! الجزائر حرّة!

كانت الكتابات على الجدران قد حُكّت ونُظّفت وكُتِبَ عليها من جديد كيفما اتّفق، ولكن إنْ تتبّعت حوافّ الحروف بقيت العبارات مقروءة. نتصرّف كما لو أنّنا لم نرها، ولكنّ شيئاً منها يبقى في صخب المدينة والصمت بين الرجلين، شيء أشبه بالشكّ والارتياب: أمّا بالنسبة إلى برنار، فهو خوف غامض، نوع من الاستشعار.

كان يفكّر أنّه ضمْن الرجال والنساء الذين يصادفهم في الشارع، هناك من يريدون موته، هو وكلّ مَن يرتدون بذلة عسكرية.

ولكن في الوقت عينه يبدو له كلّ هذا غير حقيقيّ لأنّ الشمس والمدينة هما هنا، ولأنّنا نسمع أحاديث وضحكات وحياة. مدينة بكاملها تنبض. صخب محرّكات السيّارات والدرّاجات النارية. رجلٌ جالس أمام دكّان جزارته الصغير ينظر إلى الأطفال وهم يلعبون كرة القدم في ميدان صغير، حفاة وقد استبدلوا الكرة بعلبة معدنية تتدحرج محدثةً ضجيجاً مرعباً قبل أن تتوقّف أحياناً بصمتٍ داخل الحقائب والكنزات التي تُستخدم كأهداف.

أهذه هي الحرب؟

ثمّ عاد والتقى برابو عصراً وأخبره هذا أنّه يلتقط الكثير من الصور. فجريدة «لو بليد» (البلاد)، تعرفها، نظّمت مسابقة ويقول إنّه ربح كاميرا كوداك. ومنذ تلك اللّحظة وهو لا يكفّ عن تصوير الأصدقاء والمناظر عندما يخرجون، كما يصوّر النساء المحجّبات والناس في الأسواق. ولكنّه يصوّرهم في الغالب الأعمّ من ظهورهم، لأنّهم لا يحبّون كثيراً أن تُلتقَط لهم صور.

استعاد أيضاً لقاءه بميراي وعودة الأصدقاء مهتاجين وقد شربوا ورأوا نساء وهم يسخرون منه قليلاً:

كيف حال ابن العمّ إذن؟

فكان برنار ينظر إليهم ولا يضحك. حتّى إنّه كان مصدوماً من أنّ فيفريه ذهب هو أيضاً لرؤية بائعات الهوى. ينظر إليه ولا يقول شيئاً والأخير يسمع في الصمت ويصله من خلال نظرة صديقه غير المهادِنة العتب الآتي: إليان! [13]

يهزّ فيفريه كتفيه ليقول إنّه لا دخل لهذا بذاك، وإنّه يعرف أنْ لا دخل للأمر. فوق ذلك يسرّ لبرنار أنّ رؤية بائعة هوى لا يعدّ خيانة فعلاً، لا سيّما ما فعله هو.

وبصوتٍ شبه منخفض، وهو يقترب من أذنه قليلاً، أخبره إنه لم ينم مع الفتاة رغم أنّه صعد إلى غرفتها. لم ينم معها واكتفى بفكّ حزامه وإنزال بنطاله والبقاء هكذا، واقفاً، مغمضاً عينيه وجاذباً رأس الفتاة صوبه، بينما أصابعه تتغلغل في شعرها ليرافق حركتها.

هذا كلّ شيء، وهذا لا يعدّ خيانة.

عندما رجع رجال الموكب في نهاية العصر، أحضروا معهم البريد. انتبه برنار فوراً إلى أنّ فيفرييه لم يكن بمزاج جيّد البتّة. شعر بحقد صديقه وغضبه واستيائه: لم يصله شيء من إليان. مضى أسبوعان وإليان لم تكتب له.

ما لا يعرفه برنار بعد، في اللّحظة التي استلم فيها رسالة من ميراي، هو أنّه بعد قليل سيصيبه الغضب والاستياء هو بدوره. لكنّه لا يعرف. ليس بعد. في تلك اللّحظة كان يمسك بالمغلّف بين يديه وكانت أصابعه ترتجف، كلّ كيانه يرتجف، وكان يبدو له أنّ السعادة مكتوبة على وجنتيه وعلى جبينه وفي عينيه.

ولكنّ الأمر لن يدوم طويلاً.

ليس لأنّ ميراي قالت له شيئاً بنبرة أو بشعور يمكن أن يشكّل باعثاً على القلق. بالعكس، فالرسالة كانت طويلة جدّاً تتحدّث فيها عن توقها للقائه وحتّى أنّها ترسم ملامح مشاريع مستقبليّة. ولكنّها في معرض كلامها، وكما لو أنّه لن يعير للأمر بالاً، وبكلّ الأحوال هو غير مهمّ في نظرها، أخبرته أنّها تلتقي غالباً بابن عمّه رابو. لا، ليس غالباً، بل أحياناً. حصل ذلك مرّة في مقهىً ومرّتين في مرقص مفتوح ذات عصر.

قالت إنّه «دمث جدّاً». لا يعـرف برنار بعد أنّه يكنّ لهـذه الكلمة الاحتقار والنفور، لأنّه لا يعرف بعد كيف يمكن لكلمة أن تكون بحقارة ابن عمّ ووضاعته، ابن العمّ هذا تحديداً، رابو. ولن يسع برنار إلّا أن يجترّ سخطه ويشعر للمرّة الأولى بنوع من الغضب والحقد حيال ميراي وحيال سذاجة كلماتها وخفّة سلوكها.

ولكن، وبما أنّ الغيرة شعورٌ مُخجل، لم يفصح عنها.

أمضى جزءاً من السهرة قبل العشاء مع الآخرين وهم يلعبون الورق. عندما توقّف عن اللّعب وانضمّ إلى فيفريه على الطاولة، شعر بنوعٍ من الارتياح كما لو لم يكن يفكّر في شيء.

ولكنّ فيفريه، من جهته، لم يكن يفكّر في شيء. سأل برنار وهو يشرب الجعة إن كان يريد الخروج من هناك، فثمّة ضجيج كثير. في الخارج، مشيا ببطء بحيث تمكّن فيفريه من أن يخبره بالخيبة التي شعر بها عندما تأكّد أنْ لا رسالة له هذه المرّة أيضاً في كيس البريد. لا رسالة، ولا حتّى من والديه، فحتّى لو لم يكونا يجيدان الكتابة كان يمكن على الأقلّ أن يكتب له أشقّاؤه وشقيقاته، ولكن لا أحد قام بذلك، ولا حتّى إليان.

إلّا أنّها...

مثل تشنّج في البطن، في القلب. الشعور بالظلم، ودائماً وأبداً الأمل الأحمق الذي نتشبّث به، علْماً أنّ فيفريه وبرنار يعرفان ما لا تريد إليان قوله ولكنّها مع ذلك تعبّر عنه عندما لا تبعث أيّة رسالة.

ثمّ يحكي له فيفريه ضاحكاً أنّهم اليوم أيضاً ذهبوا عند بائعات الهوى. كانت فتاة أخرى هذه المرّة. أجمل. شقراء ذات نهدين عارمين، لو ترى! هذه المرّة انتابتني الرغبة فعلاً في أن أمدّدها على السرير وألمس نهديها، تجنّني الفكرة.

ثمّ راح يضحك. وبرنار أيضاً صار يضحك.

للحرب ضروراتها، هكذا يُقال، أليس كذلك؟

لا.

اكتفيتُ بالقيام بما قمت به المرّة الفائتة. فكّرتُ في إليان وقلتُ لنفسي إنّه لا يمكن أن يكون كلّ شيء قد انتهى، ليس بهذه الشاكلة، لا أصدّق، لا، لا يمكن أن تفعل بي هذا.

إذن؟

إذن أنزلتُ سروالي وبقيتُ واقفاً كما في وضع التأهّب العسكريّ.

وضحكا معاً بسبب عبثيّة الصورة وهزليّتها. ثمّ سكتا ولم يفصح فيفريه عن رغبته في البكاء وبالجهد الذي يكلّفه كي لا يظهر عليه ذلك.

ثمّ هناك ذلك الطبيب الذي أتى معهم من وهران، والزيارة الطبّية التي وجدوا فيها فرصة للشكوى من الطعام غير السيّئ لكن الذي لا يتغيّر. قال لهم الطبيب إنّها الكلمات نفسها التي يسمعها في كلّ الثكنات كما لو كان كفيلاً بتعزيتهم أو تهدئتهم أن يعرفوا أنّ آخرين يشاركونهم مصاعبهم. قال الطبيـب إنّه ليس بوسعه شيء بهذا الخصوص ولكنّهم شعروا من المفاجأة في عينيه أنّه يفهمهم: صحيح، إنّ شبّاناً في عمرهم ينبغي أن يأكلوا بشكلٍ أفضل.

وعند خروجه من زيارة الطبيب رأى برنار إيدير وشاتيل في الباحة: كان إيدير غاضباً ويقوم باستفزاز شاتيل بتوجيه نقفات صغيرة سرعان ما تحوّلت إلى صفعات في الموضع ذاته صارت ترنّ موقّعةً الكلمات ذاتها:

ما هذا؟ ماذا تقصد؟ ما تريد مني؟

كان شاتيل يبتسم في البداية ولا يحمله على محمل الجدّ، ثمّ جمدت ابتسامته عندما فهم أنّ إيدير لا يمزح فشحبت سحنته بشدّة ولم يُجب إلّا بغمغمات يقولها بصوت مرتجف وباهت بهوت الغبار الذي يتطاير خلال تدافعهما.

في البداية، تردّد الآخرون. فكّر بعضهم في تفريقهما. ثمّ قال آخرون:

كلّا، لنتسلَّ قليلاً.

كانوا يضحكون في البداية، هذا صحيح، وبعضهم بدأ يراهن، سيجارتان أو ثلاث، شكّلوا دائرةً في الباحة، تراصّوا وصرخوا بينما كان إيدير يزداد غضباً لأنّه شعر بأنّ شاتيل لا يريد العراك وأنّه لن يضربه. فكّر إيدير أنّ هذا جُبن، أنّ شاتيل جبان، هذا كلّ ما في الأمر. وبدأ إيدير يشتمه لأنّ الرجل عندما يتحدّى رجلاً آخر عليه أن يكون جاهزاً للعراك، للدفاع عن نفسه، لا مثل شاتيل الذي يكتفي بإلقاء التلميحات ولا يتحمّل عواقب كلامه.

اقترب برنار وسأل نيفيل: لماذا يتعاركان؟

لأنّ شاتيل قال إنّ ما نفعلـه هنا يثير القـرف وإنّ الحركيّين خونـة للجزائريّين. لم يعجب هذا الكلام إيدير. قال إنّ عائلته بحاجة للطعام وإنّ الجيش شُغل مثل أيّ شغل آخر وإنّه فرنسيّ كالآخرين.

لذا سيتعاركان.

تقريباً. فشاتيل لا يفهم تماماً ما يحصل وبقي جامداً، لا تكاد تصعقه الضربات على كتفه، بينما يترجّح جسمه عند كلّ ضربة، فيلتفّ وركاه وساقاه ورجلاه عند كلّ صدمة إلى الخلف ثمّ تستقيم من جديد وترسم قوساً أكثر فأكثر اتّساعاً. في البداية كان الآخرون يضحكون، ثمّ عندما رأوه لا يقوم بأيّة ردة فعل، بدأوا يشتمونه ويصفونه بالخَسِع واللّوطيّ، لا يمكن، ألن تردّ له الصفعة؟ وكان شاتيل يزداد شحوباً وهو يفتّش بعينيه عمّن يساعده، يأتي لنجدته، يفهمه، يشرح له لمَ هو هنا في هذ اللّحظة وأنّهم يتأهّبون لضربه، أنّ جزائريّاً سيضربه، هو الذي يدافع عن الجزائريّين. لم يكن يفهم. في الحقيقة، أراد أن يعتذر لا غير، أن يقول إنّه لم يشأ أن يهينه. لكنّ الآخرين يشجّعونه على الضرب. فبدأ بضربه بضع ضربات مرتبكة وبليدة كما لو أنّ التعب كان يمنعه من التصويب. كما لو يكن في ذراعيه أيّة قوّة.

اقترب العريف ولم ينتبه له أحد. نظر إلى المشهد ولم يقل شيئاً. وجّه إيدير لكمة واحدة، واحدة فقط، فسقط شاتيل فوراً ثمّ حاول النهوض فهوى مجدّداً تحت وقع الصراخ والقهقهات. كانوا يتسلّون، إنه يسلّيهم وبدل أن يغضب شاتيل لذلك، شعر أنّ شيئاً ما في صدره ينهار وأنّ الكلمات والقهقهات تمزّقه أكثر من اللّكمات. يقولون له أن ينهض وأن يتعارك وهو يحاول ويستمرّ بالمحاولة، ولكنّ كلّ شيء فيه يرفض الأمر، جسمه لا يريد ذلك. يعرف ولكنّه يريد أن يصارع أيضاً نفسه.

دخل العريف إلى قلب الدائرة وسأل عن البادئ. دافع إيدير عن نفسه، وقال إنّ الآخر سبّه وإنّه قال...

ثمّ صمت وامتنع عن الكلام.

نهض شاتيل وراح ينقّل نظره بين العريف وإيدير والشبّان من حوله. قال إنّه يعتذر. أقسم أنّه لم يشأ أن يهين إيدير، الأمـر الذي لا يريد هذا الأخير تصديقه، لكنّ صـوت العريـف جـاء ليضع حدّاً لكلامه، باتا متعادلين، هذا يكفي. كلّ الرجال هنا فرنسيّون وكلّهم تحت إمرته.

في اليوم التالي، لم يكن حدث النهار هو عراك شاتيل ولا ما تبقّى لدى كلّ واحد منهم من كلام العريف. كان كلّ ذلك كما لو أنّه ينتمي إلى زمن آخر بعيد. فصوت العريف لم يكن بالمدى نفسه وهو يخبرهم في الباحة، حيث جرى استدعاؤهم، بأنّ الطبيب قد خُطف فورَ عودته إلى وهران. يُقال إنّه كمين وإنّ إطلاق نار قد حصل وإنّ سيّارة وقعت بين أيدي الفلّاقة.

عُثر على السيّارة وبداخلها دركيّان مذبوحان. ولم يكن الطبيب في سيّارة الجيب.

وكان الشعور بالعجز أقوى بعد عندما علموا أنّ أفراداً من شعبةٍ أخرى سيأتون ليحقّقوا مع الناس في المخيّم، كما أنّ محاربين من الفرقة الأجنبية [14] سيفتّشون الجبال القريبة. كانوا يقولون في أنفسهم إنّهم عاجزون، وذات لحظة شعروا بأنّهم محتقَرون وأنْ لا فائدة تُرجى منهم.

ولا ينتبهون إلى أنّهم هذه المرّة يجنّبونهم الشّغل القذر.

إنّهم يشعرون بالغضب. غضب تشي به مساءً، في ساعة العودة إلى المبيت، العصبيّة البالغة التي يفرغون بها جيوبهم بحثاً عن سيجارة أو عن قنّينة جعة خصوصاً: التدافع في الحانة ذلك المساء ربّما كان أكثر من أيّ يوم آخر. سيحتسون الجعة ولن يلعب أحد «البايبي فوت». حتّى لعب الورق يحصل من دون صرخة أو حتّى ضحكة.

صمتٌ إضافيّ.

وعندما دخل فيفرييه إلى المهجع، بقي للحظة حائراً، كان برنار وشاتيل هناك جالسَين جنباً إلى جنب، يداهما مضمومتان وجبيناهما محنيّان وعيونهما مغمضة. ولمّا دخل لم يكادا يتحرّكان. ولكنّه بقي واقفاً هناك ولم يخرج. شعر بالحرج، هذا أكيد، ولكنّه يفهم.

وفيما بعد تحدّثوا بالموضوع.

قال: ليست الصلاة هي ما سيفيد الطبيب.

قد تساعدنا نحن؟

أتصدّق هذا يا برنار؟ تصدق هذا حقّاً؟

لا أدري. كلّ ما أعرفه أنّ الأمر يساعدني.

أجل، ولكن ماذا بشأن الطبيب؟

وعندما همّ شاتيل بالكلام، ما كاد يفتح فمه أو يأتي بحركة حتّى بادره فيفرييه:

اذهب وقل لزوجة الطبيب إنّنا نحن البُلهاء. اذهب وقل لها هذا.

لم يجب شاتيل.

بقي جامداً نظره مثبّت على فيفرييه فقد كانت هذه هي المرّة الأولى التي يسمعه فيها يتكلّم بمثل هذه النبرة العنيفة. ورجفة الخوف الخفيفة، غير المحسوسة، الشبيهة بذبذبة، والتي لم تكد تخفيها حركة يده وهو يقرّب قنينة الجعة إلى فمه. وصخب الجعة عندما تصل إلى عنق الزجاجة والجرعة التي نسمع صوت ابتلاعها طيلة بضع ثوانٍ، ثمّ الصمت الذي يليها والخوف الذي يبقى مع ذلك في الأجواء، في الطريقة التي بها يستعيد فيفرييه فجأةً أنفاسه وأيضاً برنار وشاتيل.

ثمّ يبتسم فيفرييه مجدّداً ويرفع قنينة الجعة:

في النهاية، لكلٍّ إلهه الرّحيم يا أصدقاء.

لكنّ اللّيل مسألة أخرى. في الهدأة لا يُسمع الأمان ولا عذوبة البرودة بل الخوف. الخوف الذي يبدأ بالتسلّل بهدوء لأنّهم يفكرون في الطبيب والدركيَّين المقتولَين ويتفادى المرء التفكير في أنّه كان يمكن أن يكون مكان هؤلاء الذين نعاود التفكير فيهم ونتذكّر خروجهم عصراً عبر النهج ونعرف الآن أنّ حذرهم وأسلحتهم الجاهزة لم تنفعهم بشيء. نفكّر أكثر ما نفكّر في كلّ ذلك ليلاً ولا نخبر أحداً بالأمر. لأنّنا بذلك سنضطر للحديث عن سبب الإسهال الذي أصابنا والمغص وانعدام الشهية ولماذا نشرب ليترات من الماء ولا نرتوي.

لم تكد تمضي بضعة أيّام حتّى عُثر على جثّة في مكان غير بعيد. وفي اليوم نفسه، قبل ساعاتٍ قليلة، عُثر على أعمدة تلغراف مقطوعة.

فقالوا:

لهذا السبب أوقع الفلّاقة أعمدة التلغراف. كانوا يعرفون أنّه سيأتي لإصلاحها واحدٌ فيجد الجثة قبل أن تلتهمها بنات آوى والكلاب السائبة، وقبل أن تكمل الشمس القضاء عليها حرقاً فيصير عسيراً التعرّف إليها. لكي تبقى سليمة بما يكفي للتمكّن من «قراءتها»، نعم، ليفهم كلّ واحد منهم الرسالة الكامنة وراء هذه الجثّة. لهذا السبب قطع الفلّاقة أعمدة التلغراف. لكي نرسل واحداً إلى هناك مجدّداً ويتمكّنوا هم من ترك جثّة دون أن يجازفوا بأن يُكشَفوا أو يلقى القبض عليهم عندما لا يكون في الأنحاء أحد.

هذا ما خمّنوه.

ثمّ يستعيدون اللّحظة التي أتى فيها الرجال لإبلاغ الموقع. أولئك الذين جاءوا لإصلاح الأعمدة ومَن يؤمّنون لهم الحماية. في البداية أعلنوا ذلك عبر مكبّرات الصوت. كان الرجال يستعدّون لركوب المدرّعة الصحيّة ومنهم برنار ونيفيل، بنادقهم على أكتافهم وليس لديهم معلومات أخرى، ولا يعرفون تماماً ماذا سيجدون هناك. حتّى لو خمّنوا ذلك، أو تخيّلوه. لأنّ الممرّض يرافقهم، أي أنّ سيّارة الإسعاف ترافقهم. والغبار في الطريق. والرياح التي تصفق على حديد السيّارة والغطاء الذي طُليت عليه علامة الصليب الأحمر، والرمل كالبارود، وخضّات الطريق، وفُواق المحرّك وشخيره الثقيل وارتجاجاته تحت الأقدام من خلال أرضيّة السيّارة والأنفاس المحبوسة أصلاً: كانوا ينظرون أمامهم مباشرةً ثمّ على جانبَي صفّ أشجار الزيتون في البعيد. يعرفون أنّ في الأسفل هناك الوادي، وهذه الطريق التي باتوا يعرفونها وهذا الخوف الذي بدأ يتصاعد في دواخلهم والذي يعرفونه جيّداً أيضاً.

ثمّ وصلوا إلى نقطة التجمّع. استُقبلوا. كان هناك سيّارة جيب ولاسلكيّ.

سمعوا صوت الضابط الذي يمسك بسمّـاعة اللّاسلكي ويتحدّث بغضب:

أُجيب بالنفي! بالنفي!

ولم يفهموا. على بعد أمتار قليلة، رجالٌ يدخّنون وينظرون أرضاً، لم ينتبهوا فوراً لمدى شحوبهم. كان يقف معهم عربيّ يرتدي جلابية. وفجأة سكت الضابط ونظر إليهم واللاسلكيّ لا يزال في يده:

إنّه لكم.

وأشار إلى الكتلة الظاهرة عند أسفل منحدرٍ قرب عمود قُطع عند مستوى القاعدة وكان يميل في الفراغ ولم يقع تماماً بعد.

سبق أن عرفوا أنّها جثّة. وتساءل برنار هل سيرى رجلاً مذبوحاً. واستعاد كلّ القصص التي كانت تُروى في فرنسا وتصله أحياناً أصداؤها في قريته خلال سوق الأحد عن الجثث الفظيعة المبتورة الأعضاء والمشهد المرعب الذي مهما حاول المرء يظلّ عاجزاً عن تخيّله. ثمّ نظر إلى هناك، على بعد بضعة أمتار ناحية المنحدر، إلى الكتلة. في البداية لم يلمح الجثّة بل فقط قدمَي الرجل الحافيتين. قدمان وسختان يغطّيهما الغبار الأبيض مثلما يغطي السروال. يقول في نفسه إنّ قاتليه سرقوا حذاءيه.

تقدّموا ببطء. كانوا لا يزالون يتكلّمون ثمّ صمتوا، منهم من سعلَ، ثمّ راحوا يتبادلون النظرات. نعم، هيّا. كانت الجثّة في وضع غريب لم يفهموه فوراً. كما لو أنّها كانت ممدّدة على جنبها، الذراع اليمنى مخفيّة والرأس يظهر بشكل جانبيّ، مرفوعاً إلى الخلف، كما لو كان الذقن شديد البروز والعنق مكشوفاً ولكنّه ليس مفتوحاً. الفم فاغر والعينان الفاحمتا السواد أصلاً غارقتان في المحجرين الأسمرين المنتفخين. والشعر شبه رماديّ بسبب الغبار، وكلّ هذا الرمل فيه وعلى البشرة المتصلّبة، ولون البشرة الغريب هذا، شبه الحائل، بشرة لم تلوّحها الشمس بعد، لا لم تحرقها تماماً إذ لا يزال هناك وجهٌ، ولا يزال شكل الجمجمة، وملامح يمكن التعرّف إليها تقريباً، ملامح توشك على الاضمحلال ولكنّها ما برحت هنا. لا يزال هناك تحت ولادة الجيفة شيء بشريّ. هذا ما قاله برنار لنفسه وظنّ وتخيّل؛ هذا الوجه الجانبيّ حيث تجويف الخدّ يكاد يرسم فماً ثانياً. والقميص المزرّر حتّى العنق، واليد والذراع اليسرى الممدودة إلى الخلف بينما تستلقي على الصدر، من الأمام، ورقة معلّقة بدبّوس يتحرّك أسفلها بشكل طفيف، أجل يتحرّك، أو يكاد، فنظروا عن قرب أكثر إلى السروال المغطّى بالبقع، وكانت الرائحة قد بدأت تصير مُرعبة. رأوا البقع وفهموا كيف حصل الأمر. اقترب الممرّض من الجثّة ودار حولها ولـمّـا وصل إلى مستوى الصدر انحنى صوبه ثمّ قال متردّداً:

لا،

كرّرها لنفسه همساً:

لا!

ثمّ استقام ونظر إلى الآخرين قال:

تبّاً، تبّاً، تبّاً!

وشحبَ وجهه فجأةً ولكنّه مع ذلك استدار صوب الجثّة مجدّداً وانتزع الورقة وعاد صوب الباقين ليريهم إيّاها.

في البداية رأوا صورة. فهموا هدف الفلّاقة. سيلصقونها في كلّ مكان، سيجعلون منها أداةَ دعاية.

«أيّها الجنود الفرنسيّون، عائلاتكم تفكّر فيكم، عودوا إلى بلادكم».

لم ينظر برنار إلى الصورة. تقدّم صوب الجثّة يريد أن يرى، فوراً، يريد أن يعلم، وأوّل ما سعى إليه هو أن يرى إن كان الجسد مبتوراً عند مستوى العنق. كان العنق سليماً. شعر الذّقن لم يُحلق منذ أيّام. الحنجرة والبشرة متشنّجتان.

بقي برنار لحظةً هكذا وفوجئ بغياب الدم على العنق. رفض أن يرى ما سيفقأ عينيه لاحقاً، لأنّهم لم يقولوا له إنّ هذا أيضاً ممكن.

لما عادوا، كانوا غير قادرين بعد على تقبّل فكرة أن يكونوا رأوا ما رأوه. لا الرمال، لا الأسى ولا حتّى برودة الصباح النسبيّة والشعور بالغثيان الذي سيصيبهم جميعاً لكن ليس في نفس الوقت بل الواحد تلو الآخَر، كما لو أنّ كلّاً منهم كان يلزمه وقتٌ له وحده، لا شيء من كلّ هذا كان يمكن أن يبدّل شيئاً في... - كيف يُقال؟ ذلك أنّهم لا يعرفون كيف يصفون ما رأوه عندما قرّروا أخيراً نقل الجثّة فقلبوها على ظهرها.

لاحقاً، في الموقع، لم يحكوا لمن لم يروا المشهد إلّا عن الغبار والصمت، عن الذباب الذي بدأ يحوم فوق الجثّة، واستفاضوا في التفاصيل، كلّ التفاصيل التي يمكن أن نضيفها إلى حكاية لنؤخّر لحظة الكشف والبوح. في المقصف، فهم الآخرون بسرعة أنّ ثمة ما يخفونه عنهم: الحقيقة. لا مصرع الطبيب ولا حتّى مقتل الرجل الذي حصل على الأرجح صباحاً أو بالأمس. ولكن كيف تخبر رجالاً ينتظرون بارتياب ولم يصبهم الغضب بعد، فقط بداعي الفضول، وبشيء من الخوف والخشية التي تبقيهم متنبّهين ومتشنّجين في فضولهم ولكن غير غاضبين ومنتفضين كما سيصبحون عندما يعرفون، فيما بعد.

أن يُقال لهم: كان حيّاً عندما فعلوا به ما فعلوه.

فعلوا هذا لرجلٍ حيّ، قطّعوا لحمه وعضلاته. كلّ شيء. حتّى العظم. كشطوا لحمه من المعصم حتّى الكتف. يمكن القول إنّ الرجل قد رأى عظام ذراعه. ذراعه المكشوطة والمُقتلَعة. كان يفقد وعيه في كلّ مرّة من جرّاء الألم، تعرفون، وهم، مَن فعلوا هذا، بمعونة ماذا فعلوه؟ بسكاكين قاشطة؟ وهم يصرخون به ويستمرّون بإيقاظه كلّ مرّة بأناة وإصرار لا شفقة فيهما إلى أن يفهم أنّهم لن يمزّقوا ذراعه فقط ولكنّ عضلاته أيضاً ولحمه حتّى العظام.

لكن لمَ هذه الدقّة في التوقّف عند مستوى المعصم ومن ثمّ عند مستوى الكتف؟

والموت الذي أتى ولكن فقط في اللّحظة الأخيرة، ربّما في الطريق المجاورة للمكان الذي وجدوا فيه الجثّة.

في الصورة نراه حيّاً، ذراعه نصف ممزّقة تسيل منها الدماء، وهو، أي الطبيب، يمكن التعرّف إليه رغم الألم وعينيه المقلوبتين وفمه المفتوح، واقفاً، معلّقاً بحبال من تحت إبطيه. وهذه الكلمات المكتوبة بحروف كبيرة على الصورة والتي لن تنفكّ تتردّد فيهم:

«أيّها الجنود الفرنسيّون، عائلاتكم تفكّر فيكم، عودوا إلى بلادكم».

ثمّ تسارعت الأحداث كأنّ شيئاً ما قد عجّل بها، كتحوّل غرفة التمريض إلى صالة للسّهر على الموتى، وتهافت كلّ الرجال لينظروا لأنّهم رفضوا أن يصدّقوا أنّ أمراً مماثلاً كان ممكناً أن يحدث. وفي المساء، تجمّعوا حول الحانة في المبيت. كان برنار مثله مثل غيره يبحث في جيوبه عمّا يشتري به جعة وسجائر. كان برفقة نيفيل الذي لم ينطق بكلمة طوال النهار. وآخرون. أمّا شاتيل فبقي في المهجع يصلّي. أو ربّما كان يبكي ويخشى فقط أن يصادف الآخرين، كلّ الآخرين الذين لن يتوانوا عن سؤاله ما رأيه اليوم بحرب التحرير. لا يريد أن يتبرّأ ممّا قاله. لا يريد أن يتكلّم ولا أن يصادف فيفريه، لا هو ولا سواه، أيّاً كان، لأنّه لم يعد واثقاً من أفكاره.

كان يتساءل هل يمكن أن تكون قضيّة محقّة والأساليب جائرة. كيف يمكن الاعتقاد أنّ الرّعب يمكـن أن يؤدّي إلى المزيـد من الخير. وهل الخير...

لا يريد الخروج ويفضّل أن يبقى وحيداً يصلّي. فوجئ بأنَ برنار لا يريد الصلاة معه. ولكنّ برنار سيصلّي لاحقاً، وحده، عندما يجيء اللّيل ويحاول هو في عتمة المهجـع أن ينسى ما رآه. سيحاول. كما حـاول في المبيت ألّا يؤوّل النظرة التي لمح إيدير وعبد الملك يتبادلانها، أشبه بخاتمة نقاش بدآه منذ وقت طويل، لا بل حتّى نوع من التحدي من قبل عبد الملك لإيدير. فالاثنان مضطرّان للتّحمّل ولزوم الصمت عندما يسمعان الشبّان يصفون العرب بالكلاب، كلّهم كلاب، ليسوا إلّا كلاباً، كلّهم - كلمات لا يستخدمونها للحديث عن الفلّاقة وحدهم، لا، يتحدّثون عن العرب عموماً، كما لو أنّ كلّ العرب، كما لو...

ولم يكن الحركيّان يقولان شيئاً. كانا ينتظران ويراقبان.

كما لو أنّهما وحدهما لم ينسيا أين وُلدا.

في اليوم التالي كانت حميّا الاستعدادات شاملة. كانت المرّة الأولى التي يرى فيها برنار هذا القدر من الناس في الموقع.

وصلت في الصباح الباكر إمدادات. رأى برنار بينها رابو ورجالاً آخرين من مركز التجنيد في وهران. عدّة فصائل. سيقومون بتقسيم المنطقة إلى مربّعات أمنيّة. بقوا هكذا لما يقارب الساعة في الصباح لا يعرفون ما يفعلون وما إذا كانوا سيفعلون شيئاً. وللمرّة الأولى كان الجوّ مختلفاً عن البطء والروتين المعتادين، كان هناك شيء غير ذلك الملل الذي يشعر كلّ واحد هنا بوطأته على معنويّاته وذكائه وجسمه، كما لو كان الواحد منهم يزداد تبلّداً كلّ يوم في الوقت الذي يَذبح فيه آخرون، هناك خلف الجبال، أصدقاءنا ويقطّعونهم إرباً إرباً.

لذا شعر هذه المرّة في الموقع بنوع من الحماسة والغضب في الطريقة التي يتحضّرون بها. حتّى مراسم رفع العلَم بدا له أنّ أيّاً منهم لم يحضرها مثل كلّ يوم. فهذه المرّة كان هناك في السماء الزرقاء ما يشبه الرغبة في الخروج والركض والصراخ والقول إنّنا نريد الانتهاء من كلّ هذا، وكان بعضهم يفكّر أنّه ما إن نذهب إلى التلال ونقاتل حتّى نصير نحن أيضاً جنوداً عرفوا النار ويمكن حينئذ أن نعود إلى منازلنا لنواصل حياتنا العاديّة في المصانع والحقول. ولا نعود نشعر بالخوف ولا بالمغص ولا بالجوع، الجوع شبه الدائم، والرغبة في التخلّص من بيوت الخلاء النتنة ورائحة العرق الزنخة في المهجع. ومن شاتيل وصلواته ويديه المضمومتين، ومن كتاب صلوات برنار وبطاقته البريدية التي تُظهر عذراء مُشعّة فوق سريره، ومن الآخَرين بعادات كلّ واحد منهم وقصصه، ومن كلّ الصراصير والديدان التي تنتشر بيننا وحشود القمل والبرغوث التي لا ينفع معها استحمام، وحتّى النهارات الطويلة التي نقول فيها لأنفسنا:

هذه المرّة سيتمزّق آخِر جوربَين أتلفتهما أصلاً أحذية الرّنجر التي تنزف فيها أصابع أقدامنا حتّى عندمـا لا نمشي. وفي الطريق الصخريّة ستنزف أقدامنا للمرّة الأخيرة وبعدها ربّما سينتهي كلّ شيء وبدل أن يعطونا إجازة لأربعة أيّام بمناسبة الرابع عشر من تموز، سيقولون لنا:

انتهى كلّ شيء. يمكنكم العودة إلى بيوتكم. شكراً، لقد عاد السلام إلى الجزائر!

فقط لأنّنا سـنكون عثرنا على بنادق قديمـة تعـود إلى الحرب العالمية الأولى، مخبّأة في حفر تحت الأرض وفي مخابئ استُحدثت في المغارات، وعلى رجالٍ هزيلين كالموت، عيونهم محمومة ولامعة مثل شموع عيد الميلاد.

وهكذا يكون انتهى كلّ شيء.

هذا ما نقوله لأنفسنا وننتظر. هكذا ننطلق جميعاً ونصير نتمنّى المشي الفظيع وأصابع القدمين المتورّمة والنّعال المتشقّقة أو الجلد الذي يتفقّع مثل فقّاعة شفّافة، فقاقيع وبثور، وما يرشح أكثر هو الأظافر المسودّة والدامية التي توشك على السـقوط. نريد الذهاب. حتّى لو كنّا نعرف أنّ الطقس سيكون حارّاً، وأنّنا سنمشي بالصفّ حاملين جعـاب القنابـل وأوعية الدخان، والويل لمن يتأخّر. المتأخّرون المتعثّرون، الأقدام التي تتدحرج على الحصى، ثقل الحقائب وأحزمة الخراطيش والبنادق، وبينما نمشي لا أحد يفكّر في يوم التسريح ولكنّه سيجد الطاقة للمشي تحت الشمس وهو يقول لنفسه:

الحقيقة هي الذلّ.

سُحقاً للممارسـات الممنوعة. تنهمر العقوبـات علينا مثل جيش من الضفادع في الحكايا التوراتية: أعمال سُخرة، توبيخ، تمارين ضغط لا نهاية لها، تبديل الملابس والدوران في الباحة رافعين البندقية فوق رؤوسنا ومغاليقها في أفواهنا وحاويات نفايات المقصف الضخمة واللّزجة والتي ليس لها مقابض، القمامة، برازنا، حثالتنا، الوجبات المقرفة، اللّحم الناشف كالنعال، الخبز العفن وكلّ المتاع من ديدان وعلب وبطاطا وفاصوليا جافّة، كلّ هذا يقطر من حاويات نفايات ضخمة نسحبها، نجعلها تنزلق وتحبو ونحاول ألّا نتقيّأ بسبب الرائحة، محاذرين من الوقوع، ونتدحرج صوب الشاحنة - سنجد حتماً شخصاً رحيماً، متديّناً، حديث الوصول، طالباً، ابن مدينة أو أيّة أيادٍ بيضاء للتخلّص من هذه القذارة من دون سؤال. هـذه أو سواها، نحشر مؤخّراتنا في الجبال لنبحـث ونجد أخيراً أعداء، أيّاً كانوا، فارّين، فلّاقة، لصوصاً، رجالاً، نساءً، أشباحاً، بنات آوى، أحصنـة أو حتّى مجرّد حركة في الأدغال، شيئاً ما يكون أثخن من كابوس تحت الشجيرات والنباتات المتسلّقة:

هذا ما نريده، أن ينقضي الأمر.

قرّروا أن يتركوا سيّارات الجيب والمدرّعات قرب الوادي والمتابعة سيراً. بقي البعض منهم في المكان وكان برنار وإيدير بين بضعة رجال سينتظرون عودة الفصيلَين.

نظـروا إلى الآخريـن يبتعـدون بين الصخـور. لن يعـرف برنـار ما سيحصل، أو على الأكثر سيتخيّل الحِراب وهي تبقر التربة السهلة التفتّت بحثاً عن مداخل

مخابئ، والرجال الذين يتطلّعون إلى الأرض طوال ساعات، يتفحّصون التربة والأدغال وأغصان الشجيرات. وإذا لم يجدوا شيئاً واصلوا التقدّم بين الصخور وبدأوا يشعرون بالإحباط والحنق لأنّهم سيرجعون خالي الوفاض من صيدٍ لا يعرفون ما الذي يجب اصطياده فيه.

يجب الذهاب أبعد ليجدوا شيئاً آخر سوى القرى المدمّرة والتي هجرها سكّانها وليصادفوا أثر وجود بشريّ غير معلّبات السمك بالنبيذ الأبيض ملقاة في الغبـار وبين الحصى. لذلك كانوا يتابعون التقدّم ومن حينٍ لآخَر يسمعون فوقهم هدير طائرة بايبر بحجم لعبة يرجع ظلّها مثل ظلّ طائرٍ ثابت بإصرار يغطّي الأغصان المسودّة نفسها والحارقة ليقودنا ويساعدنا. ولكن لا شيء إلّا عُشَيبات عطشى تبحث عن الماء مثلما نبحث نحن عن الفلّاقة والبنادق والمخابئ، فنُحكم ربط الوشاح الأزرق على الكتف الذي يشكّل علامة تمييز مع أنّنا نعرف أنّ الوحيدين الذين يمكن أن نلتقي بهم في هذا المكان هم رجال منّا ولن نتبادل إطلاق النار.

وفي البعيد، نبحث عمّـا يبرّر استمرارنا بالتقدّم واحتمال الحرارة وهديرِ الطائرة والدوائر الكبيرة التي تقوم بها أحياناً فوق رؤوسنا عندما تحوّم طويلاً. وهذا السّخط من رؤية مشاهد النخيل ذاتها بذوائبها الخضراء وجذوع شجر البلح الكبيرة والقشريّة، نبات الدفليّة الورديّ في كلّ مكان، لا تموت، هذا الشيء القبيح الذي نجده بالغ الجمال في البداية وهذه السماء الشديدة الزرقة، زرقة غير متناهية ورتيبة كما في البطاقات البريديّة، والنحل أيضاً أحياناً والذباب دوماً.

وعندمـا وصلـوا أخـيراً إلى قريـة، انتشروا بشـكل محدّد ليحاصروها وكانت قلوبهم تختلج هذه المرّة لأنّ القرية ليست مهجورة: فقد مشوا بعيداً بحيث تعدّوا بكثيرٍ المنطقة الممنوعة وغير الآهِلة.

وعندما رآنا السكّان وقفوا متردّدين ومرتابين أمام مشهد رجال يتقدّمون صوب بيوتهم راكضين وشاهرين أسلحتهم. بقيت امرأة في الوسط، أمامهم، تسند بيدها حزمة القصب على رأسها وتنظر مذهولة. لزمها وقت حتّى فهمت وعرفت ثمّ استدارت كما لو أنّ شيئاً لم يكن.

وسرعان ما توارت خلف أحد الأبواب.

أمّا برنار وإيدير، فكانا جالسين جنباً إلى جنب في ظلّ سيّارات الجيب. لم يتكلّما في البداية. ثمّ قال برنار إنّه يجب ألّا نحمل على محملٍ شخصيّ ما يُقال عن العرب، فهم خائفون وغاضبون.

قال إيدير إنّه يفهم هذا وإنّه ليس عاتباً على أحد. وأضاف: أنتم تخلطون بين القبائليّين والعرب. في نظركم كلّ الجزائريين سواسية. لكنّي أنا بربريّ ولستُ عربيّاً.

لم يعرف برنار بمَ يجيب، فهو لا يجيد حتّى تمييز لكنة سكّان مرسيليا. أراد أن يقول هذا ليدافع عن نفسه لكنّه اكتفى بأن يهزّ رأسه بالإيجاب. أراد أن يتحدّث عن عبد الملك الذي ذهب مع الآخرين ولكنّه لم يجرؤ.

لكنّ إيدير حكى.

عبد الملك يغيظه الحديث بهذه الشاكلة عن العرب، ويقول: إنّنا لن نصبح يوماً فرنسيّين مهما فعلنا. وإنّنا نجلب الحرب للناس هنا ونقول لهم إنّه السلام.

لم ينظر إلى برنار وهو يتكلّم. كان يلوّح بعصاً أمامه ويخطّ في الرمل أشكالاً مبهمة.

ثمّ رجع الآخرون واستأنف الجميع السّير.

مشوا ساعات إضافيّة دون أن يجرؤ أحدهم على السؤال عمّا حصل في القرية - خمّنوا ذلك فقد سمعوا صوت إطلاق نار ورأوا دخاناً أسود يعبر السماء حاملاً روائح قشٍّ محروق. لم يتوانَ نيفيل عن إخبارهم بأنّه في تعيينه السابق مع آخرين في الجنوب:

نعم، كنّا نذيقهم أمرّ المهانات،

وأخبرهم عن جنديّ كان يقطع آذان الفلّاقة ويقدّمها هديّةً لبائع السّجائر.

نيفيل، اخرس، هذا يكفي!

ونصبوا الخيَم.

وإذا كان يخيفهم النوم داخل الخيَم، فإنّ الإيكال لهم بمهمّة حراسة المخيّم المستحدث يخيفهم أكثر.

ما لا يعرفونه بعد هو كيف، في الوقت الذي يأتي فيه النوم رغم كلّ شيء، سيستيقظون بوثبة واحدة عند سماع لعلعة المدفع تدوّي في اللّيل. تبادلوا النظرات، وفي البداية تردّدوا وعند القذيفة الثانية فهموا أنّ الأمر سيستمرّ لساعات وأنّ الطلقات ستدوم طويلاً، طويلاً جدّاً، وفهموا لماذا أقاموا المخيّم في هذا المكان القريب جدّاً من القرية، من أجل دكّها بالقذائف. هذا هو السّبب. وطار النوم من عيونهم ولم يتآلفوا مع الصوت وظلّت أجسادهم تنتفض عند كلّ ضربة وآذانهم تطنّ.

تبادلوا نظـرات. خرجـوا من الخيَم ليروا. الوقـت ليل وأحياناً نرى أضواءً تلتمع، الأرض تهدر وترتجّ تحت الأقدام: اهتزاز يتسلّل حتّى العظام والأذنين.

ثمة فلّاقة.

صرخ أحدهم وأعاد:

ثمة فلّاقة.

قال الجنديّ الواقف قرب برنار إنّ ثمّة على الأرجح فلّاقة وإلّا فلن يقصفوا. ثمة فلّاقة والقصف يهدف إلى تفادي القتال وجهاً لوجه، وهذا أفضل، هذا ما يقوله ويعيده. وبرنار يسمع صوت الرجل المرتجف ولا يصدّق ما يسمع بينما تلمع عيناه في اللّيل.

نهضوا في اليوم التالي وأجسامهم تؤلمهم وعضلاتهم متشنّجة. نهضوا فجراً، باكراً جدّاً. رائحة البارود في كلّ مكان وهذا الصمت المخيِّم عندما مشوا في الفجر الرماديّ، صوب تلك القرية التي ما زالوا غير قادرين على تبيّنها في العتمة التي تمتزج بالدخان الأسود. لكن كان بوسعهم أن يشمّوا الرائحة من بعيد، رائحة الرماد التي لا يجرؤون بعد على القول إنّها تذكّرهم برائحة اللّحم المحروق، رائحة لم يتعرّفوا إليها بعد.

كان اليوم التالي يوم إرهاق وصمت في الموقع.

نهار أمضاه رابو فيه مع الإمدادات. سيغادرون جميعاً في المساء. بعد بضع ساعات يعود الموقع كما كان في السابق. ثمّ سيحلّ 14 تموز ولبعضهم سيعني ذلك نيل الإجازة والذهاب إلى وهران لثلاثة أيّام أو أربعة.

ولكن في الانتظار، يبقون هنا بضع ساعات غريبة نوعاً ما وطويلة جدّاً، غير متناهية. ينتظرون أن تجتمع كلّ الفصائل لكي تتمكّن من المغادرة سويّةً. يتظاهر برنار بأنّه لا يعرف ما أسرّت له به ميراي في رسائلها، من أنّها التقت برابو مرّتين أو ثلاثاً، وأنّها رقصت معه مرّتين عصراً في أحد المراقص. تساءل ما الذي يفعله رابو هناك، كان ينتظر على أحرّ من الجمر رحيله مع مجموعته بأسرع وقت، لكي يستعيدوا الهدوء وما يشبه الملل والبلادة السابقة. يريد أن ينتظر ناعساً بهدوء ورويّة حلول الإجازة للذهاب إلى وهران.

كان قد كتب لميراي يخبرها بأنّه سيكون هناك لأربعة أيام.

وسرعان ما امتلأ الموقع بكلّ الفصائل. لم يروا يوماً هذا العدد من الرجال هنا، لا سيّما في المبيت. لم يُعثَر على أسلحة ولا على فلّاقة.

ومع ذلك يشعرون أنّهم قاتلوا، أنّهم عرفوا شيئاً من الحرب، ولكنّهم قبل أيّ شيء يشعرون بتعب كبير وبرغبة في نزع أحذية الرّنجر والعناية بأقدامهم التي تؤلمهم بشكل فظيع، واحتساء الجعة والنوم. ذهبوا ليلعبوا الورق ويحاولوا التفكير في شيءٍ آخَر، فقد كانوا أيضاً يتحرّقون لمعرفة أنّ جثّة الطبيب لم تعد هنا.

يريدون أن ينتهي الأمر.

كالعادة بقي برنار ورابو جالسين جنباً إلى جنب على درج المبيت. لا يتكلّمان عن أيّ شيء. لم يقل برنار شيئاً. لا عن الساعات التي أمضاها وهو يجترّ غضبه بينما يعيد قراءة الكلمات التي تحكي فيها ميراي عن المرقص وتصف رابو بتلك الكلمة المزعجة: «دمث». لم يقل شيئاً من هذا ولم يسأل ابن عمّه عن شيء، هل كان لا يزال خاطباً نيكول وعن أخبار العائلة.

كان يمكن حتّى أن يسأل عن ميراي. ولكنّه لم يفعل! لقد اعتقد أنّ من الأفضل ألّا يُفصح عن أفكاره.

تجوّل القريبان في الموقع بضع ساعات بعد الظّهر. تحدّثا مع عمّال الآليّات عن محرّكات السيّارات والشاحنات التي يجب فحصها. توقّفا أيضاً عند المروحيّة الرابضة أمام مدخل الموقع. غاب رابو بضع دقائق ثمّ عاد حاملاً كاميرته. لم يلتقط الكثير من الصّور إذ لم يعد لديه الكثير من الأفلام. البعض منها فقط، في الموقع. قال إنّه سيرسلها إلى سولانج والعائلة:

أنا واثق أنْ لا أحد لديه صورة لك هناك.

لم يُجِب برنار. كان يفكّر في الجثث في القرية التي قصفوها طوال اللّيل -جثث النساء والأطفال وأيضاً الكلاب، وحمار وبضع عنزات. سمع صوت الضابط يصرخ في الصباح آمراً أن يعثروا على الأسلحة والفلّاقة فيجهد الجميع

برفع الصخور والرماد والغبار. لا شيء إلّا الموت- وصورة الضابط الغبيّة وهو يبصق ولا يفهم ويصرخ كالمجنون أن يعثروا على هؤلاء الفلّاقة الحقراء.

عندما التقيا بفتيحة كانت جالسة في ظلّ شجرة تلعب لعبة حبّات الزيتون، ولكنّها توقّفت حالما رأت برنار. ركضت صوبه وسألت إن كان يمكنها أن ترى السلحفاة. قال برنار: نعم. فذهبت وأحضرت درّاجتها المسنودة إلى جدار المنزل وعادت. طلب منها رابو أن تتوقّف دقيقة. كانت هناك، قبالته، وخلفها المنزل وواجهته المتشقّقة الطّلاء.

التقط الصورة.

عندما انضمّت إليهما، بقي رابو بعيداً قليلاً ينظر إلى ابن عمّه والفتاة الصغيرة، كما لو كانا وحدهما، لم يكن أحد يتكلّم، الصّمت مخيّم ولا يُسمع إلّا أصـوات باقي الرجـال في البعيد وربّما هدير محرّك سيّارة. ولا شيء آخر. على الطاولة يمكن رؤية ظلّ رابو مثل وحشٍ زاحف. عندما نظر في عدسة الكاميرا كان برنار منحنياً قليلاً صوب الفتاة الصغيرة يساعدها وهو يمسك بيدها، وهي منتبهة بشدّة إلى طريقته في المشي، ملامحها جادّة، شبه صارمة.

تسـاءل رابو هل كانت ترتدي الأسود حِداداً على الطبيـب. فهـو لا يعرف أنّهم لم يروها يوماً بثياب زاهية الألوان. في الخلف بناءٌ حجريّ واطئ السّقف، وخلفه التلّة وسماء العصر المغراء اللون.

والتقط الصورة.

ثمّ سرعان ما اجتمعت كلّ الفصائل في الباحة تحت العلم. توزّعوا على السيّارات وبدأ يُسمع هدير المحرّكات وخلال دقائق عاد الموقع إلى حالته السابقة. باستثناء آثار العجلات والغبار الذي نثرته الشاحنات وسيّارات الجيب والذي يبدو كما لو أنّه لا ينقشع، وأنّ الجميع يفكّرون في الطبيب، أو بالأحرى يفكّرون أن جثّته أبعدت - يا لفظاعة هذه الكلمة لوصف رجل اجتُثّ جسده وسُلخ كأرنب، كحيوان جُهّز ليؤكل، وهم بقوا هناك مع وطأة هذا الغياب وحلول المساء والغبار الذي ينقشع ببطء شديد بحيث يبدو أنّه يموج، ثمّ لا شيء، فقط رجال الموقع والعادات التي يُعاد اكتسابها، إلّا أنّ الجميع يعرفون أنّ العادات لم تعد عادات.

ذلك أنّ الجميع باتوا يعرفون أنّ شيئاَ ما قد تغيّر. لا يعرفون ماذا. لا شيء سيتغيّر ومع ذلك لا شيء سيعود كالسابق. يعرفون أنّ صوت العريف سينادي كلّ صباح بالإيقاع نفسه:

يا فلان! القهوة!

يبدأ أزيز أجهزة الترانزيستور وهي تعلـن الأخبـار الأولى، وترتفـع أصوات تطالب بإطفائها وخفض الصوت ويقوم الجميع بعيون نصف مغمضة ليبولوا خارجاً إزاء الجدار في مكان معزول نوعاً ما.

ومع ذلك، ومثل الآخرين، ومن دون حتّى أن يتحدّث إلى أحد، عرف برنار فوراً أنّ الأمور لا تشبه تماماً ما كانت عليه قبل قصّة الطبيب. عرف أنّ الأجواء في الموقع ستسوء وتتوتّر وأنّه في المساء عندما يحين موعد الإخلاد إلى النوم لن يضحك الآخرون عندما لن يبقى إلّا الضوء الأصفر الصغير مشتعلاً فوق رؤوسهم في منتصف الغرفة، ولن يضحكوا كذلك عندما يظلّ فيفريبيه يصرخ:

تبّاً، متى التسريح!

فالجميع سيلمحون في صوت رفيقهم رجفةً لم يعهدوها من قبل.

الواقع أنّ الشبّان يعجزون عن النوم، أو يحصل ذلك في وقت متأخّر جدّاً من اللّيل.

وعندما يسمعون بعضهم يتحرّكون في أسرّتهم ويظلّون يتقلّبون، ما عادوا يلقون نكاتاً شَبِقة عن النساء. بل يكتفون بسماع الصمت وأحياناً الصوت الغاضب والساخط لواحد منهم وهو يصرخ لهم أن يكفّوا عن الحراك وعن إحداث هذه الفوضى:

أوقفوا هذا الضجيج!

ثمّ تهمد الأجسام في اللّيل، كلّ واحد في سريره ويعرفون أنّ كثيرين يبقى التنفّس لديهم مخنوقاً والقلب على وشك الانفجار، ونكاد نسمع الرغبة في الصراخ تخنقهم.

لذا، في هذه الظروف، نترك الحنين إلى الوطن يغمرنا فنشتاق للبلاد. وتصير الأيّام ثقيلة حتّى عندما لا تكون الحرارة خانقة جدّاً، حتّى عندما نقوم فقط

بتمارين الرماية. فحتّى بالنسبة إلى القيادة لقد تغيّر شيء ما. يجدون صعوبة في إشغال الرّجال، في جعلهم يدركون أنّ هذا هامّ ونافع، فهم يعرفون أنّهم باتوا مُثبَطي العزيمة. والأحاديث لم تعد ظريفةً ومرِحة كثيراً، النهارات تطول ويبدو أنّ النوم لا يجيء لديهم إلّا في ساعات القيلولَة وليس في اللّيل. يزجون وقتهم بتنظيف المهجع. يكتبون أكثر من العادة ربّما. وينتهي بهم الأمر إلى لعب الورق من دون انتباه. لا يتكلّمون إلّا عن العودة إلى البلاد. يعرفون أنّ بعضهم سيحقّ له ذلك وأنّ آخرين سيكون عليهم الاكتفاء بتمضية بضعة أيّام في وهران فيما يكون على آخرين الانتظار.

والجميع يصلّون سرّاً لكي لا يكونوا من هؤلاء.

يعرف أولئك الذين سينجحون في الحصول على ثمانية أيام ويذهبون إلى فرنسا أنّهم عند العودة سيكون عليهم أن يرووا حكاية على قدر توقّعات أولئك الذين بقوا هنا. لا يعرفون بعد أنّه سيكون عليهم أن يحكوا عن الطريق الطويل والشّاق، عن الثكنات الكئيبة وساعات الانتظار العبثيّة، وكلّ الوقت الضائع والحرية المهدورة، نقطة العبور واللّيلة التي أمضوها في مركز حرس المرفأ، والإبحار ليلاً، متمدّدين على الأرضية دون أن يروا الماء الرماديّ اللّامع كالفولاذ، والنوم الخالي من الأحلام.

سيتكلّمون ويسمعهم الآخرون بصمت مهيب. سيحكون عن العناقات ويكتفون. لن يقولوا شيئاً إضافيّاً. سيحتفظون بالباقي لأنفسهم. الأصدقاء والعائلة والخطيبة. وأحياناً لا يعود هناك من خطيبة بل أخبار عنها يأتي بها آخرون، أجل، ارتبطت بابن فلان. والادّعاء بأنّنا لا نلومها، وعدم السعي لرؤيتها ومطالبتها بتفسير والصراخ لها بخيبة أملنا وشعورنا بالظلم والتخلّي.

أن نجيد الصمت وألّا نحكي خصوصاً عن قصّة الطبيب وعن القرى، وربّما الاكتفاء بالحديث عن الملل والروتين. بالأحرى: أن نصمت ولا نرغب في أيّ كلام.

بعد بضعة أيام، كانوا في وهران عندما التقط أحدهم مجموعة من الصور تُظهر قسماً من الرّفاق، طوال القامة منهم راكعون أمام الباقين ومعظمهم يرتدي نظّارات شمسية وتعلو وجوههم ابتسامات عريضة.

ثمّ، بين الصور، ثمّة تلك الصورة التي سيعثر رابو عليها بين صوره دون أن يعرف كيف وصلت إلى هنا. كان قد رآها عند برنار ولا يعرف مَن التقطها. في

الصورة برنار وإيدير يضحكان وعيونهما نصف مفتوحة. كانا يكشّران عن أسنانهما وتبدو وجناتهما ناتئة كما لو أنّ الشمس تبهرهما. وضع برنار ذراعه على كتف إيدير وخلفهما نرى نصب الموتى الأبيض مثل عظام الحبّار وفي الأعلى أعلامٌ فرنسيّة صغيرة تلوح مثل جيشٍ من الحشرات أو الفراشات أو النّحل، أيّ شيء كان، في السماء الزرقاء، فنحن في يوليو خلال العيد الوطنيّ المضبوط والمنظّم بشكل فائق من قبل العسكريّين. العرض العسكريّ والأعلام التي تزيّن الشّرفات.

صحيح أنّه حفل، لكنّه أيضاً وخصوصاً استعراض قوّة.

ولكن بالنسبة إليهم هو شيءٌ آخَر: إنّه الإجازة.

آنئذ لن يفكّروا إلّا في الشّمس ولن يرغبوا إلّا في المشي والتسلية وفي أن يكونوا في أعمارهم الحقيقيّة، أن يستعيدوا أعمارهم التي يشعرون بأنّهم تركوها في الثّكنة أو في الموقع. لذا فإنّ المشاهد التي سيرونها والروائح التي سيشمّونها والأفكار التي ستراودهم سوف تنطبع في الذاكرة بعمق سكاكين الفلّاقة في أجساد التعساء.

وسيدوم الأمر طوال حياتنا ويكون بأهميّة كلّ ما يتبقّى، ومع ذلك لن نعرف أنّه مهمّ لأنّنا لا نفكّر يومياً في الأمور التي تكسو جدران حياتنا؛ أطفالٌ يحملون قروناً مملوءة حمّصاً ملوّناً أو بذور قرع مملّحة، سنتذكّر كلّ هذا كما نتذكّر روائح السردين والمرقاز حتّى الاشمئزاز، والكابوس. ولكن في هذه الأثناء هناك الريح القادمة من البحر وضوء وهران والنساء بشعورهنّ المُحَنّاة وبالأوشحة المعقودة عليها، وحوانيت البورتريهات الصغيرة والأرصفة والبلاط الدائريّ الأجرد والسيّارات من نوع بيجو 203 أو آروند، والشمس طبعاً وأصوات الزيزان كوشوشة الراديو، والباصات الكهربائيّة وفيليبير وجيزيل وجاكلين ويد ميراي عندما لمس برنار للمرّة الأولى راحتها وأصابعها في سينما موغادور ذات عصر، متردّداً في البداية لا يجرؤ أن ينظر نحوها فبادرت هي واستدارت صوبه بصراحة ونظرت إليه مبتسمة وسعيدة لا محمرّة الوجه وخجِلة مثله بل بصراحة وبساطة كما لو أنّ الإيماءة كانت بديهيّة بينهما منذ البداية.

مثل الآخرين، استأجر غرفةً في فنـدق قرب المحطّة. سـريرٌ كالقفص يصرّ عند أدنى حركة، مغسلة وماء بارد، مرآة فيها صدْع على طول حجمها يقسم وجهه قسمين كما يقسم هو البرتقال الذي يتناوله صباحاً في سريره.

إنّها المرّة الأولى منذ زمن طويل التي يكون له فيها غرفة له وحده (يمكنه حتّى أن يقول منذ الأزل)؛ لا تهمّ الأزهار القبيحة المرسومة على ورق الجدران ولا الصراصير التي استعمرت المغسلة ولا العفونة التي فصلت الورق عن الجدار ورسمت هالاتٍ على النافذة والمغسلة. ولا يهمّ صراخ الجيران في اللّيل. الغرفة له وحده وهذا ما يهمّه فضلاً عن النافذة التي يمكنه أن يستند إليها ويتأمّل المدينة والباصات الكهربائيّة البيض والخضر.

وفي الصبـاح كان يمشي ويتأمّل واجهـة مقهـى ريش الكبير وجادّة شارلمان وشارع هوتيل دو فيل الصّغير. ويروح يتخيّل أن يعيش هنا ولا يعود من فرط العادة يرى لا المبنى البيضويّ الشكل ولا مقهى البرازيل. ويقول في نفسه إنّ الحرب ستنتهي فيتمكّن من أن يعيش هنا ويكون سعيداً. راقته أجواء المدينة. فور عودته إلى الموقع، سيكتب إلى سولانج يخبرها عن كلّ ما ينقص المرء عندما يعيش في الريف، كأن يرى كلّ عصرٍ الفتْية العرب يَفِدون من أحد الأزقّة متأبّطين الجرائد ويبيعون صحيفة «ليكو دوران» (صدى وهران).

لديه الوقت ليفكّر أيضاً، لا فقط بالأحداث الأخيرة وجثّة الطبيب وشاتيل الذي يزداد تجهّماً وانطواءً كلّ يوم. كان يفكّر في الجزائريّين وقال في نفسه إنّه منذ وصوله لا يعرف منهم إلّا الصغيرة فتيحة، حتّى أهلها لا يعرفهم، وأنّ الشعب هو لديه كما لدى الآخرين أشبه باللّغز الذي يزداد غموضاً أسبوعاً بعد أسبوع، وقال إنّه خائف دون أن يعرف لماذا ومن أيّ شيء.

فهو لا يعرف شيئاً، وكانت هذه الفكرة تشعره بالخزي وهو يتمشّى وحيداً في الصباح الباكر في وهران.

وكلّما مرّ الوقـت ألفى نفسـه عـاجزاً عن ألّا يكرّر لنفسـه أنّه لو كان جزائريّاً لكان حتماً سيصير من الفلّاقة. لا يعرف لمَ تلحّ عليه هذه الفكرة التي يسارع لإبعادها ما إن يفكّر في جثّة الطبيب الملقاة في التراب. من هم الرّجال القادرون على فعل هذا؟ بالتأكيد ليسوا بشراً. ولكنّهم كذلك. ومع ذلك يقول لنفسه أحياناً إنّه كان يمكن أن يكون من الفلّاقة. فهو يفهـم ماذا يعني ألّا يتمكّن فـلّاح من زراعـة أرضـه. يعـرف ماذا يعني الفقـر. حتّى لو قـال له بعضهم إنّنا هنا من أجلهـم، وإنّنا جئنـا لنَهَبهم المدنيّة والسّلام. أجل. ولكنّه يفكّر في أمّه وفي البقرات في الحقول. يفكّر في الغيوم الداكنة والثقيلة التي تلقي

بظلالها على ظهور الحيوانات وعلى الجداول وأشجار الحور. يفكّر في أبيه وأمّه اللذين كانا كما أخبراه يضعان أيديهما أمام أفواههم هو وشقيقاته عندما يترك أهل القرية بكاملهم المَزارع ليختبئوا في الخنادق التي حفرتها القذائف وهم يسمعون خطوات الألمان يمرّون بالقرب منهم. فكّر في ما أخبروه به عن الاحتلال، ومهما حاول لم يكن قادراً على الامتناع من التفكير والقول لنفسه إنّ وجودنا هنا مشابه لوجود الألمان عندنا وإنّنا لسنا بأفضل من منهم.

فكّر أيضاً أنّه كان يمكن أن يكون حركيّاً كذلك، مثل إيدير، لأنّ فرنسا بلدٌ حَسَنٌ في النهاية ولأنّ هذا المكان أيضاً هو فرنسا منذ زمن طويل. وأنّ الجيش مهنة مثل غيرها، وإيدير محقّ بهذا الشّأن، أن تكون حركيّاً يعني أن تعيل عائلتك وإلّا لَماتت جوعاً.

ولكنّه فكّر أيضاً أنّ كلّ هذا خاطئ. لا يجب تصديق أحد. الجميع يكذبون. لطالما فكّر أنّهم يكذبون عليه. ثمّة شيءٌ ما يكذب في كلّ مكان. إلى درجة تجعله يرغب في التقيّؤ وقلب العالم من حوله. كاد يشعر بالرغبة في البكاء. ولكن لمَ الغمّ والحزن اليوم؟ أمامه أربعة أيّام. أربعة أيّام تكون فيها ميراي أفقه الوحيد.

السماء جميلة والمدينة أيضاً، أجل، هذا الإحساس الفائق القوّة بالمدينة والشعور بأنّنا لا يمكـن أن نحيـا خارجها. يبهره الأمر فينسيه مواعظ الكاهن التي يستعيدها مثل كذبة أخرى لم يشكّ بها لحظةً فافتضحت أمامه: لا، المدينة ليست الجحيم ولا الامتحان الإلهيّ ولا السهولة لا ولا أيّ شيء من كلّ هذا. وفجأة بدا له الكاهن قبيحاً ومريراً، وللمرّة الأولى لم يفتح برنار كتاب الصلوات طيلة أيّام.

وتساءل إن لم تكن فكرة شاتيل عن الله أصحّ من فكرته. ثمّ كفّ عن التساؤل.

اقترح عليه إيدير أن يأتي لشرب القهوة في منزل والديه. فوجئ برنار في البداية لكنّه قبِلَ الدعوة. فهو لا يشعر بأنّه شديد القرب من إيدير. قد يكون أقرب إليه من عبد الملك، هـذا صحيح، ولكنّ هذا طبيعيّ فعبد الملك لا يتكلّم كثيراً، لا معه ولا مع الآخرين. لذا من البديهي أن يكون أقرب من إيدير.

عندما استقبلوه وقدّموا له الشاي، تأثّر برنار بشدّة. لا فقط لكونه عند عائلة عربية مع كلّ ما يجهله عن فولكلورها وعاداتها ولكن أيضاً بسبب كلّ ما بذلوه ليحسنوا ضيافته كما لو كان رجلاً مهمّـاً، هذا ما شعر به وما أزعجه قليلاً إذ وجد أنّ كلّ هذه العناية والتعبير عن الصداقة مبالغ بهما؛ الجلسة الاحتفالية حول الشايِ الذي قدّمته الأمّ، والجدّ الذي أصرّ على أن يريه أوسمته بصفته محارباً

قديماً وذراعه التي فقدها في معركة فيردان وهو يتلمّس مثل جائزةٍ كمَّه الفارغ المطويّ والمعقود عند مستوى الكوع، والحرج الذي راح يزداد حتّى شعر به يخنقه إزاء إيدير وعائلته كما لو كان نوعاً من وخز الضمير. وتساءل لماذا يشعر بوخز الضمير، وعمّـا يمكن أن يؤنّب من أجله ضميره، ومن أجل مَن. ثمّ فكّر في عبد الملك وفي قولته التي نقلها له إيدير:

مهما فعلنا، لن نصير فرنسيّين يوماً.

وقال في نفسه إنّه هذه المرّة يواجه أشياء لا يمكن لفلّاح مثله أن يفهمها أو يفكّر فيها بشكل صحيح. يجب أن تكون متعلّماً لتفهم كلّ هذا، أن تكون عرفتَ أشياء أكثر وقابلتَ أناساً أكثر.

لذا ارتبك عندما حان الوقت لشكر عائلة إيدير على حسن ضيافتها. فتلعثم وهو يشكرهم وتأتأ، ومن دون أن يعرف السبب كان واثقاً من أنّه لن يخبر أحداً بهذه الزيارة. وأزعجته هذه الفكرة. وتساءل لمَ الخجل من هذه الزيارة ولماذا سيشعر بالارتباك كما لو كان يخون أهله، في حين أنّ الحركيّين هم في صفّنا أيضاً، وإيدير واحد منّا. ربّما لأنّ ما أشعره بالخجل هو إظهارهم أنّ حضوره يشرّفهم، هو الذي لطالما سخر في القرية من الجزائريّين والسّود ولم يكن قد التقى يوماً بأيّ منهم إلّا في حكايات الأجداد عن الرّماة السنغاليّين، هؤلاء العمالقة الذين كانوا يوضعون في الصفوف الأماميّة لإخافة الجنود الألمان.

ولكنّ هذه الأفكار والأسئلة تبخّرت عندما حان وقت لقاء المجموعة الصغيرة التي ترافق ميراي. قاموا بجولة حدّثوه خلالها عن مبنى الدّرك القديم في ساحة كليبير ولم يُروه الجديد لأنّه قبيح. ثمّ الأسود التي تحرس مدخل مبنى البلدية. ثمّ زاروا حيّ شوبو وأطالوا الزيارة ورأوا أشجار التين التي تشبه خضرتها خضرة المقاعد المخصّصة لانتظار الباصات. وفي صعودهم أشارت ميراي إلى حانة ميتيور إلى اليمين وقالت: سوف نعود، فهنا نأتي للرقص، سترى، هذا رائع.

وكان هناك مخزن يبيع الأسطوانات الموسيقية. أشارت ميراي إلى إحدى الأسطوانات في الواجهة. لم ينظر إليها برنار وادّعى أنه لم يسمع. وتساءل إن كان الشابّ الوحيد في مثل سنّه الذي لم يملك يوماً أسطوانة. ولكنّه يعرف أنّه ليس الوحيد وأنّ ميراي هي المحظيّة. وتساءل لماذا تهتمّ فتاة مثلها بشابّ مثله. فهو يريد أن يتعلّم ولكن من أجل ذلك يجب أن يقرّ بأنه لا يعرف شيئاً وهذا ما لا يريده.

وعندما أشارت إلى أسطوانة أخرى لم يجب، بل اقترب وقال إنّه في كلّ الأحوال لا يحبّ الموسيقى. فأجابت ميراي بأنّها تحبّ الموسيقى عنهما معاً وأنّها تعزف قليلاً على البيانو ولكن ليس أعمال شوبان، فهو يُضجرها، إنّه بالأحرى اختصاص أبيها. فهي تفضّل عزف مقطوعات حديثة وراقصة.

وبالحديث عن الرقص، قصدوا مقهى ميرايي مقابل حانوت الخبّاز وهناك تناولوا المقبّلات على المنضدة وهم يستمعون إلى صندوق الموسيقى الذي يلعلع صوته في المكان.

هـذا مـا فعلوه. خلعـت مـيراي نظّارتيها الشمسيّتين الخضــراوين العريضتين ووضعتهما إلى جانبها مثل حيوانٍ أليفٍ صغير. كانت الموسيقى تطغى على الأحاديث. اقترح فيليبير على برنار أن يرافقه في رحلة صيدٍ تحت الماء. أخبره أنّه يملك كوخاً صغيراً قرب البحر، هناك ابتداءً من رأس فالكون حتّى سان روك عندما نبتعد عن الجبل، نجد الشاطئ والأكواخ الملتصقة بالصخور. روى فيليبر أنّه عندما لا يكون لديه عمل، يمضي هناك الكثير من الوقت مع صديقيه لوبيز وسيغورا، ثمّ أشار بغمزة إلى ميراي وقال لبرنار إنّه مكان ممتاز لاصطحاب فتاة.

لاحقاً، بعـد الظهـر، كـان على ميراي أن تتركهـم. في بيتها ضـيوف ووالداها طلبا منها العودة باكراً. كانت جيزيل وجاكلين موجودتين لإبقاء عيونهما مفتوحة على ميراي، ولكنّهما رضيتا بأن يرافقها برنار وحده حتّى الباب. لم يرَ المدينة في كلّ الجولة ولا بدّ أنّه لن يعرف أن يسلك الطريق نفسه وحده، حتّى إنّه تاه في طريق العودة ولو لم يلتقِ صدفةً بفيليبير لما وجد طريق الفندق.

ذلك أنّ صوت ميراي يرنّ في رأسه، مثل كلّ الوعود التي نقطعها بصوتٍ ناعم وهادئ كما لو كنّا لا نتكلّم إلّا عن الطقس الجميل وعن العبارات المِغناج التي بها نثير إعجاب الآخَر ونُغويه. لا، لقد قمنا بكلّ هذا وصرنا في مكانٍ أبعد. وسيكون قد تحدّث مع ميراي عن الانتقال للعيش في باريس وحتّى عن الزواج وإن لم يقُولا ذلك مباشرةً. فحتّى لو لم يلفظا كلمة زواج فقد تحدّثا عن المستقبل و«ما بعد العسكرية». كان كلاهما يقول «بعد العسكرية» عندما يتحدّثان عمّـا ينويان فعله، سويّة، لا برنار وحده. وكانت «نحن» تُلفظ بشكلٍ عفويّ فيدّعي الواحد منهما أنّه لم ينتبه للأمر كأنّ زواجهما قد غدا أمراً واقعاً. وما همّ الأهل؟ الأمر سهلٌ بالنسبة إليه، فهو يقول إنّه لا يريد العودة إلى قريته.

كان يقول: أريد أن أفتح مرآباً للسيّارات.

يرمي هذه الجملة بشكلٍ عفويّ كما لو أنّه بات يجرؤ على كلّ شيء وأنْ لا شيء مستحيل مع ميراي. سـوف يترك القرية ويغيّر حياته، أكيد، إنّه واثق من الأمر هذه المرّة، فقد قامت معجزة هي ميراي، وهي مَن جاءت صوبه، هي التي ظلّ يتساءل عن الشيء المميّز الذي يمكن أن تجده فيه، فلا يحير جواباً، وذلك لا يهمّ.

يعرف أنّ هذا السؤال يقلقه أحياناً ويتحوّل القلق إلى خوف. يخاف أن تنتهي المعجزة كما بدأت وأن تصله مثل رفاق كثيرين رسالة تنطوي على بضع كلمات لا غير: «لم أعد أحبّك».

لم ينل قسطاً كافياً من النوم، وفي صباح اليوم التالي شعر بشيءٍ من الغثيان. دقّ فيفريه عليه الباب. سيمضيان اليوم سويّةً ففي المساء تنتهي الإجازة. يجب أن يكونوا جميعاً في الثكنة في الخامسة والنصف عصراً لكي يتمكّنوا من الوصول إلى الموقع أوّل المساء. كانوا يفضّلون أن يعودوا في صباح اليوم التالي ولكنّ هذا غير ممكن. فمهما فعلوا، يعرفون أنّ عليهم جميعاً الاتّجاه إلى الثكنة (وجميعهم سيرضخون للأمر، نظريّاً على الأقلّ، ورغماً عنهم، أنّى كانوا، في المدينة أو على الشاطئ، سيرسمون في رؤوسهم طريق العودة، ويتخيّلون الثكنة ويتصوّرون أنفسهم وهم يروون للرفاق نكتتين أو ثلاثاً لا بأس بها. ثمّ سرعان ما سيتهيّأون، بلا تفكير، ويجتمعون ويحضّرون الموكب وينطلقون ويستعيدون روتينهم اليوميّ).

إنّ فكرة العودة إلى الموقع لَفظيعة. أصيب فيفريه وبرنار بتعبٍ لا يحتاج الواحد منهما إلى أن يخبر به الآخَر لأنّ كلّاً منهما لم يكن يرى في الآخَر إلّا انعكاساً عن نفسه.

لذا لم يتكلّما إلّا عن الأيّام الثلاثة الماضية.

تكلّما عمّـا فعلاه. عمّـا أحسّا به عندما وجدا نفسيهما للمرّة الأولى من دون بقية الرفاق، شبه وحيدَين، حتّى أنّهما في لحظةٍ ما في البداية شعرا كما لو أنّه قد تمّ التخلّي عنهما، شعرا بالفراغ لا بالمتعة التي انتظراها. ثمّ أسلما زمام أمرهما للحياة، فذهبا إلى السينما وتفرّجا على واجهات المخازن، وشربا كؤوساً من الجعة وكحول اليانسون. أمضيا وقتهما في المقاهي يتفرّجان على الناس في الشارع وهم يمضون إلى أشغالهم. ثمّ صادفا رفاقاً وأمضيا برفقتهم كلّ العصـر والمساء واليوم التالي أيضاً لا بل بقيـا معهم أغلب الوقت.

أمضوا جزءاً من العصر في الميتيور، بين حانته ومرقصه. الأنفاس كلّها معطّرة بشيء مـن الكسكسي وكحول اليانسـون، أمّا النساء فروائحهنّ المُزهرة والقويّة مزيج من روائح أقلام الحمرة وكْريم الأساس.

فيفريه وبرنار متحمّسان ومتوتّران في الأوان ذاته. كانا ينظران إلى الفتيات وهنّ يرقصن مع جنودٍ أو مدنيّين، وجميعهم يرتدون البذلات وقد سرّحوا شعورهم بعناية.

بقيا لحظة لا يؤتيان أيّة حركة ويسمعان الموسيقى، ورغماً عنهما أخذتهما الرغبة في الرقص. لا سيّما فيفريه. فلم يتمالك نفسه طويلاً، ولمَ يفعل على أيّة حال؟ فنحن هنا لهذا الباعث، لكي نتسلّى، ولا تزال أمامنا بضع ساعات. وسرعان ما وجد فتيات كنّ ينتظرن أيدي تدعوهنّ للرّقص. كنّ جالسات ونظراتهنّ تجول في الصالة للعثور على شريك للرقص. منهنّ من جئنَ بمفردهنّ، وفكرة أنّ أحداً لا يرافقهنّ أثارت فيفريه نوعاً ما فلم ينتظر طويلاً حتّى يدخل الحلبة.

فوجئ برنار بعدم رؤية ميراي ولا حتّى جيزيل أو جاكلين أو فيليبير أو صديقيه لوبيز وسيغورا.

كانوا قد تواعدوا على اللّقاء هناك. ثمّ بدأ يقلق. ماذا لو لم يأتِ أحد؟ ماذا لو حان وقت العودة إلى الثكنة دون أن يتمكّن من رؤية ميراي؟ الفكرة لا تُحتمل. لذا بقيَ واقفاً بلا حراك. فكّر في الذهاب إلى الحانة ثمّ حسم أمره وقال في نفسه: نعم، لمَ لا؟ من هناك يمكن أن يرى الداخلين عوض البقاء هنا لا يفعل شيئاً سوى مشاهدة الآخرين يمرحون. فأشعل سيجارة وبشيءٍ من الخيبة فتّش مرّة أخيرة علّه يجد بين الناس وجه صديق عدا فيفريه.

لم يجد وجهَ صديق، ولكنّه وجد وجهاً مألوفاً؛ ففي طريقه إلى الحانة رأى رابو بين الجنود عند المدخل. رآه يتردّد قليلاً ثمّ اقترب وأشار له بيده عندما لمحه.

لم أعرفْك، قال لبرنار.

وكان هذا كلّ شيء. لم يتكلّما كثيراً. بقيا جنباً إلى جنب، ولكنّهما اتّفقا على العودة سويّةً إلى الثكنة. أجل. في أيّة ساعة؟ في الخامسة عصراً، إذا أرادا الوصول في الخامسة والنصف. لم يقولا إنّه يمكن لكلّ منهما أن يعود بمفرده. فنحن قد لا نستلطف بعضنا بعضاً كثيراً ولكنّنا نبقى معاً ما إن نلتقي. لطالما كانت الأمور هكذا. ويبدو هذا صحيحاً هنا أكثر من أيّ مكانٍ آخر. كأنّ شيئاً من

البلاد يربط الناس بعضهم ببعض بلا سبب معروف أو لعادةٍ قديمة لم يعد يفكّر في التشكيك بها أحد.

طلب رابو جعةً. سأل برنار إن كان يريد واحدة، فأجاب هذا الأخير بالنفي بإيماءةٍ من رأسه. كان ينظر إلى الباب وإلى الناس الداخلين. لكنّه لم يرَ أيّاً من الأشخاص الذين كان ينتظرهم.

فأصيب بالخيبة.

تردّد القريبان بالدخول مباشرةً إلى حلبة الرقص. نظر رابو بسرعة إلى المرقص، لمح برنار نظرته ولم يقل شيئاً، فكّر أنّ رابو ربّما كان مثله ينتظر ميراي.

لا، إطلاقاً.

قال في نفسه إنّه يخترع قصصاً وإن كان رابو وميراي قد رقصا سويّة مرّة أو مرّتين فلا يجب بالضرورة أن يتخيّل أن...

ثمّ أراد أن يطمئن نفسه فراح يكرّر أنّ الثقة مهمّة في الحبّ. إنّها كلّ شيء ويجب أن يثق بميراي، هذا ما كانت ستشرحه سولانج ولطالما كانت نصائحها في مكانها.

الثقة، نعم.

لكنّ رابو هو موضع شكّه في البداية طبعاً.

في النهاية، عادا إلى حلبة الرقص. فعلا ذلك دون أن يتكلّما، بل اكتفيا بإشارة موافقة، فهذا أفضل من البقاء ملتصقين بمنضدة الشرب. ولكنّ برنار نظر مرّة أخيرة باتّجاه مدخل الحانة ولم يدخل أحد للأسف - فكرة أنْ لا أحد يأتي! نظر إلى ساعته، هل فعلاً لن يأتي أحد؟ وتساءل هل كان لديه الوقت للذهاب إلى بيت ميراي، مشياً فهو ليس ببعيد، كان يظنّ أنه يمكن أن يجد الطريق، وإن لم يكن واثقاً تماماً.

تخيّل نفسه يرنّ الجرس ويقرع الباب. تخيّل وجه الخادمة وهي تفتح له وتتركه يدخل إلى الدهليز. ولكن ربّما لن يفتحوا له أو ربّما يبقونه على العتبة، وسيُفاجأ برؤية جماعة من الناس في الصالون أو في غرفة الطعام، متحلّقين حول الطاولة أو جالسين على الكنبات: أعمامٌ يرتدون بذلات جميلة داكنة

وصارمة، وعمّـات يرتدين فساتين سهرة بألوان وأشكال غريبة. لكم سيبدو هو تافهاً وأضحوكة باعتداد العسكريّ السّخيف وهم ينظرون إليه بنظراتٍ نصف مُلاطِفة نصف متهكّمة، وهو واقفٌ هناك بقبّعته العسكرية بين يديه وبابتسامته ووجهه المفتقدين للرهافة وهيئته وتجعّدات بنطاله.

لذا، لا، لن يتحرّك. كانا قد اتّفقا على اللّقاء هنا. لن يذهب إلى أيّ مكانٍ آخَر. سيكون الأمر سخيفاً حقّاً إذا وصلَتْ في الوقت الذي يكون هو فيه متّجهاً إلى بيتها. أن يصل إلى بيتها ويُقال له:

لا بدّ أنّكما التقيتما في الطريق، لقد خرجت من حوالى نصف ساعة برفقة صديقتها جيزيل.

لذا لن يتحرّك. سينتظر.

بقيا صامتين، لا يفعلان إلّا النّظر إلى فيفرييه وهو يرقص ويبدّل شريكته في كلّ مرّة، واجداً كلمات لطيفة يهمس بها إلى آذان تلمع فيها الأقراط تحت أضواء المرقص.

ثمّ عاد برنار إلى منضدة الشرب واستقرّ هناك. طلب كأس جعة وراح يلتفت كلّما دخل أناس أو سمعَ أصوات نساء وضحكاتهنّ. بقي وحده بعض الوقت. التقى بشبّان من شُعبته يدخلون ويخرجون بسرعة وهم يقولون له: «نراك بعـد قليل». كان يجيب من دون حمـاس وانتبه لنفسه يعدّ الفقّاعات التي ترتفع وتختفي في كأس الجعة مثل الأصوات خلفه. أراد التدخين. لا يزال بحوزته بضع سجائر. لمس العلبة شبه الفارغة في جيبه وعيدان الثّقاب بيدين مرتجفتين ثمّ استقام فجأةً. هل سيبقى منتظراً هكذا؟ أيُعقَل أن ينتظر وأن يقول لنفسه إنّه سيبقى وحده أمام منضدة الشرب بعدما أمضى ساعة وعشر دقائق على هذه الحال، وقريباً سيكون أمضى ساعة وربع السّاعة؟

انضمّ رابو وفيفرييه إليه أمام منضدة الشّرب. كانا يمزحان ويضحكان ويتكلّمان بصوتٍ مرتفع. فجأةً صـارت ضحكاتهما تزيد من توتّر برنار الذي أفسح لهما المجال مع ذلك للجلوس بجانبه.

طلبا كأسَي جعة إضافيّتين.

علبة الدخان أوشكت على أن تفرغ تماماً. سحقها برنار ببطء وجديّة فائقة، ببطء شديد وعناية حتّى حوّلها إلى كرة مرصوصة ومشدودة ومكثّفة كثافة السّخط والغضب اللذين كانا يتصاعدان بقوّة في داخله. شيءٌ من هذا السّعار الذي لم يكن راغباً فيه كان يتشكّل في تلك اللّحظة على شكل عقدةٍ سوداء. تساءل ما الذي يحصل، هل أخطأ بالعنوان؟ هل فهم جيّداً مكان اللّقاء والساعة؟ هل حصل شيءٌ لميراي أو لجيزيل؟ ولماذا لا يأتي أحدٌ ليخطره ويقول له إنّه لا داعي للانتظار فهو لن يرى ميراي ذلك اليوم؟

ولكن لا شيء من هذا القبيل. لم يأتِ أحد. الموسيقى لا تُحتمل. عطور الفتيات وروائح الجعة. الرجال ببذلاتهم وتأنّقهم قبيحون. فجأةً بدا كلّ شيء قبيحاً وحادّاً. الألوان فاقعة والموسيقى صارخة والجوّ يصير أكثر فأكثر رماديّاً ودخانيّاً بقدر ما تسودّ أفكاره وتزداد قتامةً. كان يشعر بالتوتّر وروائح العطور القوية تصيبه بالدّوار.

أغمض عينيه قبل أن يطلب جعة أخرى. قال في نفسه إنّه أسرف في الشرب. بدأ يشعر بالدوار هو الذي لم يكن يشرب قطّ، أو قليلاً جدّاً. ولكنّه لم يبالغ بالشّرب حقّاً. لربّما هي الشّمس وهذه الحرارة التي لم ينجح في الاعتياد عليها. العصبيّة. التوتّر. التعب بسبب قلّة النوم. والخوف الذي يكبر فجأة من فكرة أنّ ميراي لن تأتي لتراه. وأنّ الأمر انتهى. لم تعد ترغب في رؤيته. فهمت أنّه مجرّد فلّاح ابن فلّاحين. فهمت الأمر ذلك النهار أمام واجهة مخزن الأسطوانات ولا بدّ أنّها في هذه الأثناء تفكّر أنّه غبيّ وجاهل وتهزأ منه بمعيّة الآخرين، في حانة أخرى، وربّما كانت أيضاً ترقص مع رجالٍ آخرين وبات اسمه هو مثل أغنيةٍ ردّدناها في الصيف الفائت ثمّ:

تشاو بيلّو! [15]

كلّا، هذا غباء، لا يمكن أن يكون الأمر كذلك. لام نفسه على المنحى الذي تتّخذه الأمور دوماً في مخيّلته. يتخيّل دوماً أنّه مُهانٌ ومُحتقَر كما لو أنّ الذلّ قدَره، ينتهي دائماً مثل خرقةٍ، مثل نكرة، أقلّ من نكرة. لكن هذه المرّة لن يرضى بهذا. أصلاً، لم يشأ يوماً أن يكون هكذا.

ولن يقبل.

نظر إلى الساعة. لم يحن بعد موعد الرحيل. ولكنّ الوقت يمرّ والساعة تتقدّم بسرعة وقريباً سيصير عليه أن يكفّ عن الانتظار هنا لاوياً عنقه كلّما سمع ضحكاً وأصواتاً جديدة. يمكنه تمييز ضحكة ميراي في أيّ مكان وأيّ وقت، لذا

أرعبته فكرة أن يضطر للرحيل قبل أن يسمعها ويراها من جديد، وشعر كما لو كان يغرق. عجز عن التفكير منطقيّاً. ولم يفهم لماذا الأمر خانق ومقلق إلى هذه الدرجة في داخله.

ثمّ قال نعمْ من دون تفكير ومن دون أن يعرف بأيّ شأن يكلّمونه.

عرضوا عليه كأساً أخرى، فقال نعم دون أن يفكّر أو يسمع، في حين أنّ بطنه تؤلمه وأنّ الدخان ومزيج الروائح يُشعرانه بالغثيان. بينما يستمرّ رفيقاه بالضحك ورواية النكات بصوتٍ عالٍ وقهقهاتٍ ثقيلة، سمعها ثمّ تناول كأسه ونظر مرّة أخيرة صوب المدخل. لم يعد يحتمل ضحكات رابو وفيفرييه المنفّرة له، والنكات المكرّرة ألف مرّة، ولا يرى في هذا كلّه إلّا طريقة لاستفزازه وإثارة غضبه وإهاجة أعصابه. منذ عشر دقائق على الأقلّ وهما يحاولان بمكرٍ مشاجرته واستفزازه أكثر والسخرية منه. حتّى إنّه واثق من أنّه رأى لكزة كوعٍ بين فيفرييه ورابو.

كان لا يريد الانفعال.

مرّر أصابعه على شفتيه. إنهما جافّتان مثل فمه. شرب محتوى كأسه بسرعة بجرعتين كبيرتين وعندما وضعه على الطاولة بحركةٍ حادّة وناشفة وأقوى ممّا توقّعه، فاجأه الصوت الذي أحدثته الكأس على منضدة الشّرب. حدّق برابو وفيفرييه وقال بصوته القاطع والفظّ وهو ينظر إلى رابو وحده:

ماذا هناك؟ ماذا يريد منّي؟ ماذا يريد الأستاذ؟

سيقول بعضهم، بضع ساعاتٍ فيما بعد، إنّهم رأوا برنار وفيفرييه ورابو في مرقص. سيقولون:

رأيناهم وألقينا عليهم التحيّة وقلنا لهم إلى اللّقاء بعد قليل.

وسرعان ما انتشر الخبر في الثكنة عن اختفاء مجنّدين.

ولكن ليس هذا ما فكّروا فيه تحديداً. ما كان الجنود يخشونه في اللّحظة التي اتّصلوا فيها بالموقع كان هو القتل والاختطاف، كلّ شيء ممكن، يعرفون ذلك، إنّهم حذرون، يتظاهرون بأنّهم لا يفكّرون في الأمر ولكنّهم يخشون دوماً أن يحصل شيء من هذا القبيل في كلّ وقت وفي كلّ مكان، فيطمئنون أنفسهم بالقول:

لا شيء مؤكّد، ربّما ذهبوا إلى مكانٍ ما ريثما تنتهي عوارض سُكرهم وهذا كلّ شيء. لن يكونوا أوّل من يقومون بهذا.

سيّارتا الجيب والمدرّعة تنتظر تحت الشّمس على مرأى من الجميع في الباحة. أراد عريف الموقع أن يتحدّث إلى أحد رجاله: نيفيل. أمره بأن يذهب للبحث عن فيفرييه وبرنار وألّا يعود من دونهما:

اذهب مع إيدير فهو يعرف المدينة جيّداً وجِدا لي هذين الأحمقين.

هذا ما قاله قبل أن يقفل الخطّ بقوّة وغضب. بعد ساعة، عاد نيفيل وإيدير وجنديّان آخَران بسرعة وحدهم.

قالوا إنّهم لم يعثروا عليهما.

قالوا:

نعم، لقد شوهدا، لسنا نحن من شاهدناهما بل أناس، أناس شاهدوهما، حشودٌ بكاملها شاهدتهما وعندما ساء الوضع اختفيا ولم يرهما أحد.

في الثكنة، فوجئ مَن يعرفونهما وحاولوا أن يتخيّلوا رابو وبرنار بطباعهما الريفيّة التي ظهرت أكثر من أيّ وقت وإلى جانبهما فيفرييه يسعى جاهداً لتهدئتهما دون أن يفلح إلى ذلك، واندهشوا للطريقة التي انفجر فيها شيءٌ ما بين القريبَين لأنّ رابو كان قد أسرف في الشرب وبسرعة على الأرجح. وهذا ما سوف يقولونه:

لدى رابو ميلٌ للعراك في المبيت، وهذه ليست حال ابن عمّه. فهذا الأخير صبيّ تقيّ، يكتفي بشرب كأس جعة من وقتٍ لآخَر ويلعب الورق ويحدث أن يدخّن مع الرفاق ويضحك ولكنّه ليس مِهذاراً، بل صموتٌ ومتكتّم وقَلِق، لا يغادر كتاب الصلوات يديه ولا الابتهالات شفتيه. هذا ما نعرفه عنه.

ما يظنّون أنّهم يعرفونه لا أكثر.

وتساءلوا ما الذي يمكن أن يكون قد حصل، ثمّ سرعان ما تخلّوا عن الرغبة في معرفة لماذا نظر رابو إلى ابن عمّه مع هذا التعبير المفاجئ، هذه الصرامة، إزاء منضدة الشّرب، لأنّ الأخير وجّه له كلاماً أرعن لا أذى فيه، وهذا فحسب. ومع ذلك، فإنّ رابو صوّب إليه نظرة باردة وقاسية ثمّ ردّ عليه، بعدما

وضع كأسه على منضدة الشّرب واستقام قليلاً مصوّباَ إليه (كيف نقول ذلك، كيف نسمّي هذا الأمر؟) نظرة من الأسفل ورجفة خفيفة في عضلات الوجه تشي بأنّه لا يريد أن يعير تلك الكلمة انتباهاً، وهي اللّحظة التي قال له فيها برنار:

ماذا يريد منّي صاحبنا الأستاذ؟

لم يُبدِ رابو ردّة فعلٍ صريحة بل تمالك نفسه، متغاضياً (أو متظاهراً بالتغاضي) عمّـا سمعه، فبدا وكأنّ الحانة، هي والناس والموسيقى، هي ما كان يجتذب انتباهه، لا شيء، رجفة خفيفة في الوجه، ولا حتّى تكشيرة، دام ذلك أقلّ من ثانية ومع ذلك كان الأمر كافياً ليقول الآخَر:

هيه، يا ابن العمّ، حسناً، لا داعي لاجترار هذه المسألة.

كيف إذن حدث ذلك، لا أحد عرف كيف، نعم كيف اندلعت تلك الحركة بينهما وجرفت كلا الجسمين، في مدخل الحانة أوّلاً، جرفت الاثنين، القريبَين الاثنين، جاعلةً جسميهما وخياليهما شبه المتساويين في طول القامة يندفعان مثل كتلة واحدة سوداء ورماديّة، فيما بقي شكل اليدين شبه مخفيّ في إطار الباب والخارج كما لو في صورة فوتوغرافية أو لوحة أو شيءٍ ما يولغ في تزيينه. كان ثمة ضوء باهر وأشجار التين والخضرة وحركات أخرى أيضاً، ثمّ فيفرييه وحده وأصوات تعلّق على ما يجري، ضاحكة ومتسلّية بالأمر، هذه النبرة التي تعلو، لم يكن ذلك بعدُ صراخاً يتبادله الرجلان، لم تكن الأيدي قد اشتبكت بعد، بل الوجهان المحمرّان من الانفعال والأعين الجاحظة كعيون جثث أو بومات في اللّيل، هذه الأشياء كانا يعرفانها عن ظهر قلب، لكن ليس ما ينتظرهما فيما بعد وما كانا يعيشانه في تلك اللّحظة، الشيء الممسك بتلابيبهما وكلّ ما سُمع في مدخل الحانة قبل أن يقرّ واحد من الحضور بأنّهما صارا عنيفين وأنّهما - آه كيف نقول ما حدث وليس فقط كيف انتهى بهما الأمر إلى التشابك بالأيدي بل كذلك:

الأستاذ،

هذه الكلمة التي التقطها رابو، هـو الذي كان في تلك السـاعة من العصر ثملاً بما يكفي لكي يُستثار بها. تلك الابتسامة وتلك النظرة. تلك الرجفة في

عضلات الوجه. كيف اندفع الاثنان فجأة لا لينقضّ كلّ منهما على الآخَر، بل لكي يجابهه، هكذا كانا واقفين، جاهزين للعراك تماماً:

لماذا تريد تنكيدي حتّى هنا؟

كانا منتصبين بكامل التشنّج في إطار الباب ولا يريان أحداً يأتي ولا حتّى يسمعان الأصوات والضحكات التي تعالت أوّل الأمر، أصوات فيفرييه وبعض الجنود إزاء منضدة الشّرب؛ ثمّ قبضة أحدهما تنعصر بشدّة، مثل ما تنعصر علبة سجائر طُويت كالكرة وتُركت على منضدة الشّرب وراحت ترتخي وتنفتح مثل يد أو زهرة، وتنشرح بانفتاحها بطيئاً كما يتنفّل حيوان صغير أو سلطعون على الشاطئ؛ وآنئذ لا أحد بالطبع كان يحسب أنّهما سيتبادلان اللّكمات. كانت تُسمع أصوات. الموسيقى. الحياة في الشارع.

والطبيب، عندما عثرتَ على الطبيب، هل رحتَ تنظّف أظافرك حتّى تتفادى النظر إليه، هل نعتَّه بالعاهر هو أيضاً، عندما مات؟

والآخَر لم يُجب على الفور وفمه المتدلّي ولعابه الذي يبرق ثمّ القبضتان اللتان انغلقتا:

أنت أحمق يا رابو المسكين، لطالما كنتَ أحمق.

لم يأتِ أيٌّ منهما على ذكر ميراي مع أنّ برنار لم يكن يفكّر إلّا فيها، في ميراي.

قال في سرّه: ميراي.

اسمها مثل حلم ينبغي ألّا ينساه. وإذا بقلبه ينتفض فجأة، نعم ينتفض في صدره، فاشرأبّ لأنّ الآخَر اشرأبّ ثمّ لم يعد للتفاهم بينهما من سبيل، ولا أيّ سلام، ذلك أنّ رابو دفع برنار وكانت عيناه تدمعان فيما هو يوشوش ويبصق باشمئزاز - خُيّل لبرنار أنّه يسمع ذلك، هكذا، ذلك الاسم وتلك الصورة، ذلك أكيد، لقد سمع ذلك، سمعه من فم رابو، سمع الكلمات تنطلق على لسان رابو:

منذ سنوات وأنا أرغب في أن أقول لك هذا، ولا أحد تجرّأ على قوله لك.

ثمّ تابع والدموع في عينيه، ومقلتاه منتفختان وصوته متهدّج:

كانت تلك هي أختك وأنت نعتَّها بالعاهرة، أختك رَيْن، كنتَ تقول إنّها عاهرة،

وبرنار لا يسمعه بل يعقد حاجبيه مواصلاً البصاق:

عمّ تكلّمني؟ أنت لا تعرف شيئاً، لا شيء إطلاقاً، لا أحد يعرف شيئاً، والآن يا رابو أغلق فمك.

ثمّ الأجساد والصرخات، لا صرخاتهما بل صرخات الآخرين، جميع الآخرين الذين لم يتوقّعوا ولم يحسبوا أنّ الشجار يمكن أن ينشب بمثل هذه السرعة وهذه القوّة، وقع القبضات وارتطامها على الفكوك، ذلك الذي بدأ، أحدهما ينقضّ على الثّاني، غير معقول، الجسمان يمسك أحدهما بالثاني ويتضخّمان، القبضات المغلقة والعنقان المتوتّران والصدران المنفوخان والصرخات وعبارات التهديد، هكذا، كلاهما لاهث الأنفاس، طاردَين عنهما كلّ من يتدخّل ليفصل بينهما دون حتّى أن يرياه، وكلاهما معاً، ملتحمان، في الخندق نفسه على الأقلّ بهدف إخلاء المجال حولهما للاشتباك، أحدهما راكضاً صوب الآخَر، أماماً تماماً، وهو يبصق، ويصرخ بقوّة، وآنئذٍ أبعدهما الآخرون، ألقوا بهما رفساً إلى الخارج، بالرّغم من إرادة فيفرييه وجنود آخرين وكلّ من حاولوا تسوية الأمر بالإيماءات والكلمات:

هدِّئوهما،

لا،

يستحيل تهدئتهما بكلمات لا يسـمعانها وإيماءات لا يريـانها وأيدٍ يُبعدانها، لا يمكن فعـل شيء لا سيّما تهدئة أيّ منهما، إنّهما معاً من أجل ذلك، يستحيل تهدئتهما:

توقّفا!

لم ينتبهـا لأيٍّ مـن الضحكـات أو المراهنـات التـي بـدأت تنطلـق بخصوصهما، وحولهما كتلة والناس والأيادي التي تومئ باللّكمات:

هيّا، هيّا،

اضربه!

اضربه!

والأيادي أشبه بسياجٍ تشكّل حولهما، وأفواه الأطفال المملوءة بالبطّيخ وبعض الغيوم البيضاء فوقهما تشكّل خيوطاً رفيعة، والصبيان يصرخون ويضحكون والنساء القلقات تنادي الواحدة منهنّ الأخرى، باحثة عن نظرة مؤازرة، داعياتٍ، تحت تأوّهات الإعجاب والتشجيع، إلى إبعاد الرجلين أحدهما عن الآخر، مَن يفعل؟ لا أحد، الصدور منفوخة والأيدي مغلقة ترفع قبضاتها، ملاكِمون كاذبون، صراع ديكة، بينما يصرخ آخرون بالعكس، يجب الاتّصال بالدّرك، بأحد الناس، ولكنّ أصواتهم تغرق في الغبار وتحت وقع اللّكمات الحادّة والقصيرة واللهاث، ثمّ الصراخ، نوعٌ من الصراخ، والضحكات، نوعٌ من الضّحكات.

وبينما هما يتعاركان، لم يكن أيّ منهما قادراً على تخيّل شيء أو التفكير بشيء. ومع ذلك كان قلب كلّ واحد منهما يفرغ من شيء لا يعرف أيّ منهما ما هو.

ولكنّه كان يفرغ.

وحولهما تبدو الشمس والصراخ والناس مثل بقعٍ ملوّنة وأصواتٍ غير مفهومة وبعيدة، أبعد من المكان الذي أتت منه الحاجة إلى الضّرب. كان برنار كما لو أنّه يضرب أمّه. أن يتمكّن من ضرب أمّه كما لو كانت رجلاً وأن يصرخ عليها ويزعق أخيراً بكرهه؛ كان الأمر أشبه ما يكون بفقء دمّلة وتقيّؤ صورة جثّة الطبيب. كان كلّ منهما يشعر أنّه يسدّد اللّكمات بالبكاء وأنّ الواحد منهما بضربه الآخر إنّما يؤذي نفسه قبل أيّ شيء.

في تلك اللّحظة لم يكن برنار قادراً على أن يتخيّل أنّه، بعد أربعين سنة، ولنقلْ حوالى أربعين سنة، أجل، أنّه بعد كلّ هذه السنوات، لم يكن في استطاعته أن يتخيّل هذه القفزة الزّمنية عبر كثافة السنوات، لكي يرى أو يلمح تلك اللّيلة الشتوية التي يستيقظ فيها برنار مرّة أخرى مذعوراً لأنّ أحدهم خلال النهار تلفّظ أمامه بكلمة الجزائر.

ولكن في اللّحظة التي كانا يتعاركان فيها، لم يكن يمكن لبرنار تصوّر ذلك.

لا صوته هو نفسه طبعاً ولا وجهه بعد أربعين سنة. لا عيد ميلاد سولانج ولا العلبة الزرقاء الصغيرة التي تحوي حليةً اشتراها لها ولا شفراوي، أو اللّيلة التالية، لا ولا رابو سميناً وثقيلاً وهو يهبّ مستيقظاً في الثالثة فجراً مثلما يحصل له كلّ ليلةٍ أرق.

وهذه المرّة، مثل سابقاتها، استيقظ رابو جاحظ العينين: أي أنّه عندما ينتبه إلى أنّه مستيقظ تكون عيناه كما لو أنّهما جاحظتان من قبل، ويده تتلمّس الفراغ بحثاً عن زرّ المصباح إلى جانب السرير. كان يرتجف قليلاً ويلهث. يستيقظ في سريره، إلى جانب زوجته نيكول التي تدير له ظهرها ولا تسمع شيئاً. وجهه وجسمه هما وجه رجل متعب في الثانية الستين وجسمه. يشعر بنفسه ثقيلاً جدّاً ومُرهَقاً، فمه مخدّر يمرّر أصابعه عليه عدّة مرّات ليمسحه، يفعل هذا أيضاً لوجهه كما لو ليزيل تجاعيده، ليستعيد وجهه القديم، وجهاً أملس يجعل الرؤيا أوضح، ولكنّ ذلك متعذّر.

يجب أن ينهض أوّلاً، أن يستقيم في سريره، وهذا مُعقّد. تنزلق الوسادة خلف ظهره، تنسحق، وعليه أن يستدير قليلاً ليرفعها ويجلس، ولكنّه يشعر بنفسه كالغريق، إنّه غريق، إنّه يغرق، وبينما يحاول الوصول إلى زرّ المصباح إلى جانبه، عليه أن يحتمل استمرار مرور الصور أمام عينيه وسماع ضجيج ذلك العراك القديم الذي كان يمكن تهدئته لو أنّه، هو، بدل أن يفتح فاه، كما سيظلّ يلوم نفسه منذ ذلك الوقت، بدل أن يفتح فاه ويُذكي غضب ذلك الذي كان يقف مقابله والذي سيكلّفه هذا العراك غالياً، لو عَرَف، لو أمكنه أن يعرف آنذاك، لما أذكى غضب برنار، ولكن...

ولكن...

لو عرف لكان برنار سيَ... الحقيقة أنّه أنقذ حياته أيضاً. فبسبب هذا العراك وبفضله، لم يذهبا تلك اللّيلة إلى الموقع وبقيا في الثكنة مُرغَمين، مُجبَرين.

هذا هو الأمر. ولكن لو كانا رجعا إلى المعكسر لما حصل أيّ شيء من،

من،

من ذلك.

ومهما وجد رابو نفسه غارقاً في سريره، مترهّلاً، وقد أرهقت جسده السنون والعائلة وكلّ تلك الزيجات والولادات والمناولات الأولى في الكنيسة والعراكات مع قُدامى محاربينا في أفريقيا الشمالية، وحفلات «المشويّ»، والحنين إلى شيءٍ ما ضاع هناك، ربّما كان الشباب، لأنّنا مع العمر نجمّل على الأرجح حتّى الذكريات التي ينبغي نسيانها ولا ننجح في التخلّص منها تماماً. لذا نقوم بتحويلها ونخدع أنفسنا حتّى لو كان من المفيد أيضاً أن نعرف أنّنا لم نذهب إلى هناك بمفردنا، ومن وقتٍ لآخَر أن نتمكّن من الضحك مع الآخرين، وفي اللّيل نكون وحدنا في مواجهة أيدينا المتعرّقة وأشباح الماضي.

وترك رابو صورة الشابّ التي كانت تجتاحه، الشابّ الذي يضرب بلا هوادة ودون أن يعي كم من اللّكمات يتلقّى بدوره وكم يتألّم ويكاد يسقط، قبل أن يبدأ بالتدحرج أرضاً تحت الصيحات وبرنار -فرابو لا يتذكّر ذلك- وبرنار يمسك وجهه ويشدّ عليه بأصابعه ويخدشه ويثبّته أرضاً ويستمرّ بضربه بسرعة أكثر فأكثر وبقوّة، لكمات متواصلة كما تعمل فرّامة، أو إزميل، أو ضربات حجر، ولكنّ الأسوأ -سيظلّ متألّماً لأسابيع- متألّماً باستمرار -طوال شهور- رأسه على الإسفلت -بينما الآخَر يضربه- أصابعه متشبّثة بوجهه كأنّها تريد اقتلاع أذنيه -واللّكمات المسدّدة إلى العينين- والجسد الذي يستسلم -والعينان اللّتان تغمضان- والجلد الذي يتمزّق -الآخَر يعتليه- إنّه مسحوق وبعد قليل لن يعود يشعر إلّا بتعبٍ مهول واستسلام كبير في كلّ جسده -يتمزّق ويتخلّع والصمت في رأسه أيضاً مثل الدم في فمه- والرائحة -والأنف الذي ينزف أيضاً- لم يعد يتنفّس ولا عادت الكلمات تصل إلى مسامعه.

ورابو لم يرَ تماماً وجه الرجل الذي حملوه إلى بيته بعد ذلك، الرجل الذي شاهد العراك من نافذته وجاء ركضاً مع أدواته الطبّية تتبعه زوجته ترجوه ألّا يتدخّل. ولكنّ الرّجل لم يصغِ إليها.

وصل لاهثاً والعرق يتصبّب منه، بملابس خفيفة ومنديل يمسح به العرق عن جبينه ووجهه، ثمّ قال كلماتٍ لتفريق الرّجلين، ولمساعدته على تفريقهما. طلب أن يأتيا إلى منزله، لا بل أصرّ على ذلك ليعالجهما قبل أن يعودا إلى الثكنة، أو أينما شئتما، إلى الجحيم لو أردتما، ولكن توقّفا، توقّفا فوراً، كفى، قال لهما ذلك. وراح الطبيب وفيفرييه يجرّان رابو، بينما يلحق بهم برنار على مضض. رافقهم من دون تفكير، لأنّه مذ كان صغيراً لا يعرف أنّ بوسعه أن يترك رابو سائراً في طريقه، فيلحق به بلا تفكير. وحتّى لو لم يساعد الرجلين بحمل ابن عمّه المجروح أكثر منه، فإنّه اكتفى باللّحاق بهم وهو يعرج ويلهث

مثل ثور، محنيّ الجبين وباحثاً طيلة بضع دقائق على الأرض وفي الغبار، كما لو أنّه أضاع نظّارتين أو شيئاً ما، ربّما ساعته، قبل أن يستسلم صاغراً.

وطوال ما يقرب من ساعتين، شمّر الطبيب عن ساعديه وبدأ يعظ ابنَي العمّ، جادّاً، وبتأنٍّ، الواحد تلو الآخر، مُشهِّداً فيفرييه الذي كان يؤيّد كلامه بينما عينه على الساعة التي كان يلمح ميناءها هناك في المكتبة. وكان الطبيب يحكي وهو يعالج، يحكي ويَعِظ مثل ربّ عائلة وهو يضع الضمّادات بإيماءات دقيقة ورقيقة أشبه ما تكون بالمداعبة من فرط التحوُّط. كلّ ذلك وهو يردّد مُندهشاً، كما لو لم يكن حولهم ما يكفي من العنف: يا شباب، يجب ألّا تتعاركوا، يجب ألّا تنساقوا إلى أمور كهذه، إلخ، بينما كانت زوجته في الخلف تقدّم الشاي والبسكويت بصمتٍ ليستعيد الجميع قواهم.

ظلّ برنار طوال هذا الوقت صامتاً لا يقول شيئاً. يُجيب بنعم أو بلا، هذا كلّ شيء. وينتظر. ينظر إلى الطبيب من الخلف وإلى ساقَي رابو وذراعيه المتدلّيتين من جهة وأخرى من طاولة المعاينة. بقي برنار هكذا. أحياناً كان ينهض، يبقى واقفاً بضع دقائق لا يعرف إلى أين يذهب ثمّ يقترب ويرجع ويعاود الجلوس. ثمّ يقوم مرّة أخرى، بسرعة. يمشي منتصباً، جامداً، ويتّجه إلى النافذة كما لو كان يعرف هذه المرّة سبب قيامه، وينحني وينظر إلى الخارج، إلى الشارع حيث تعاركا.

حدث الباقي بالنسبة إليهما كما لو كانا مصابَين بالحمّى. أكان الأمر أشبه بحلم أو بالشاكلة التي بها يُمحى جزءٌ من الزّمن، من حياتهما على الأقلّ، هكذا أحسّا لحظة الوصول إلى الثكنة وأبواب السّجن التي تغلق عليهم ثلاثتهم، هما وفيفرييه، ريثما يفيقون من ثمالتهم، رغم صراخ فيفرييه واعتراضه، ليفكّروا قليلاً في ما جرى، كما قيل لهم. وعبثاً صرخ فيفرييه أنْ لا دخل له بكلّ ما جرى، فالشيء الوحيد الذي سمعه وظلّ يدوّي في أذنيه طوال اللّيل هو هذه الجملة:

غداً تشرح الأمر.

ثمّ رأى الباب يُغلق عليه وعينين جاحظتين تنظران إليه طويلاً من مستطيل أبيض صغير قبل أن تختفيا في العتمة.

وفي اللّيل، لا شيء إلّا ثلاثة رجال صامتين وعيون برّاقة. ثلاثة رجال وحيدون. لا أكثر.

في صباح اليوم التالي انضمّوا للآخرين. لم يكلّم فيفرييه برنار لأنّه بسببه أمضى اللّيلة في السّجن. إنّه بردان ووسخ ومُرهق وينقصه النوم. يعرف أنّه سيُعاقَب هو أيضاً بسبب هذا التأخّر وهذا العراك وهذا ما كان يصيبه بالحنق الشديد.

ولكنّ هذا لم يكُ شيئاً ذا بالٍ، لم يكن البتّة شيئاً، سيقول فيفرييه لرابو فيما بعد، في نهاية الستينيّات، عندما سيأتي ليخبره بما قرّراه، هو وإليان، وبالمزرعة أيضاً، وكيف أنّه في الضاحية الباريسيّة عاد والتقى بميراي وبرنـار مع طفلهما الأوّل، وكيـف كانـت هي حاملاً وحزينة، لم تدركهـا الشيخوخة بعد ولكنّها على شفير كرب نفسيّ أكثر حزناً وقتامة من الشيخوخة، فيما برنار مختلف تماماً عن ذلك الذي...

لا.

أن يُلفي نفسه في الموكب الذي يُعيدنا إلى الموقع، غاضباً وحزيناً ووسخاً هو أيضاً، لم يكن هذا شيئاً ذا بال، حتّى إنّه يجب أن يجهد ليتذكّره، سيقول فيما بعد لرابو، ذلك اليوم، بعد سبع سنوات أو ثمانٍ من كلّ هذا، وهو يتحدّث بشكل ظريف خلال تناول الطعام عن كلّ شيء، كان بالفعل ظريفاً جدّاً وستظلّ نيكول تتذكّره لوقتٍ طويل بصورة الأبله الذي لا يتكلّم إلّا عن منطقة اللّيموزان التي يتحدّر منها.

إلّا أنّه حكى أيضاً عندما حلّ اللّيل وأخلدت الزوجة والأطفال إلى النوم. تكلّم كثيراً في تلك اللّيلة، بعد سنواتٍ من وقوع الأحداث، أحداثهما، عندما أصبحا منفردين، ثملَين، فراحا يحكيان كيف أنّ الحياة صعبة منذ ذلك الوقت، واللّيالي بلا نوم، وكيف أنّهما ما عادا يصدّقان أنّ ما جرى في الجزائر كان حرباً، لأنّ الحرب تُخاض مع رجال وجهاً لوجه وهذه لم تكن حالنا، ولأنّ الحرب تُخاض في سبيل الانتصار، وهذه لم تكن حالنا أيضاً، وكذلك لأنّ الحرب يفرضها دوماً قذرون على أشخاصٍ طيّبين، أمّا في تلك الحرب فلم يكن هناك من طيّبين، كانوا بشراً فَحَسب. ولأنّ الشيوخ كانوا يقولون إنّها ليست فيردان، كم صدّعوا رؤوسنا بأخبار فيردان، فيردان القذرة تلك، كم سيطول بعدُ الحديث عن فيردان، ثمّ الآخرون الذين أنقذوا ماء الوجه وما إلى ذلك، في حين أنّنا، لأنّني أنا، روى فيفرييه، أترى، أنا، لم أحاول حتّى أن أروي ما حدث لأنّني عندما عدتُ لم أجد شيئاً لي، لا شيء سوى العمل في المزرعة وإطعام البهائم والنظر بعيداً، إلى المزرعة المقابلة حيث تخرج سيّارتها الصغيرة كلّ يوم أحد في حوالى الساعة الخامسة، عائدةً من عند حمَويها. فعندما عدت، كان صعباً جدّاً

عليّ أن أتقبّل أنّها تزوّجت. تزوّجت أحد الجيران، وهو رجل بائس لا أكنّ له أدنى احترام لأنّني كنتُ أعرف أنّ كلّ أفراد عائلته كانوا في الأربعينيّات عملاء للألمان، مجرّد عملاء ينقلون البندقية من كتف إلى أخرى في آخر لحظة. كلّ أولئك القذرون الذين طردوا آخِرَ الألمان بالرّفوش، كلّ هذا أخبرني به أبي، لا أعنف من مقاومي اللّحظة الأخيرة، فهم يريدون أن يُثبتوا شيئاً ما، أن يعوّضوا انخراطهم المتأخّر، أن يُظهروا أنّهم في الجهة الصحيحة. كلّ المصيبة في إثبات أنّهم في الجهة الصحيحة، ولكي يكونوا في الجهة الصحيحة، أعرف ذلك، هذا ما أخبروني به، ذلك الشابّ العشرينيّ الذي قتلوه بضربات الرّفوش، لذا كم كان ممضّاً لي أن أرى أنّها تزوّجت برجل من عائلة الرعاع تلك، فقط لأنّه سُرِّحَ من الجيش لكونه ثريّاً! بقيتُ طوال شهور بعد عودتي لا أخرج من البيت. عملتُ في المزرعة كما لم أعمل من قبل، أصلحتُ الأسيجة ومشيت في الحقول ساعات طويلة ولم أفضّل يوماً الوحل على الحصى، صدّقني، في ذلك الوقت، لا. الوحل والجزمات والرطوبة وثقل الحقول والطريقة التي نغوص فيها، حسناً، الكائن الوحيد الذي كنتُ أتحدّث إليه دون أن أصرخ بوجهه كان هو كلبي. فعندما كنتُ أمشي لساعات في الغابات وحتّى في المساء، كان هو الوحيد الذي يمكنني التحدّث إليه.

حسناً، لطالما كان الأمر كذلك. في البلدة، ثمّة الكثير من الشبّان مثلي، ممّن لم يتحدّثوا يوماً عن الجزائر. إلّا أنّنا كنّا نعرف جميعاً أيّ شيء هو المقصود عندما نقول إنّنا نحن مثل الآخرين أيضاً، ولكنّ الحيوانات أكثر قيمة منّا لأنّها لا تأبه بأن تكون في الجهة الصحيحة.

وعندما روى فيفريه هذا، فلكي يحكي أيضاً عن الصمت الذي ساد في اليوم التالي عندما ذهبوا إلى الموقع، وكم كان حاقداً على برنار لأنّه زجّه في شؤون عائلية سخيفة.

وطوال سنوات، غالباً ما ظلّ رابو يكرّر: لا أدري لماذا أعجز عن النوم ليلاً، لا أدري إذا كـان ذلك بسبب الجزائر فعـلاً أو لأنّ فيفريه أتى بعد سنوات ليروي لي ما حصل عندما وصلا هو وبرنار إلى الموقع، هناك، وشاهدا الخزّانات مثل عمالقة يرتدون دروعاً لاستقبالهما، والريح أيضاً. كانت الريح قويّة ذلك الصباح، وقال فيفريه إنّها كانت شديدة لأنّ الرّمال كانت تصفع وجوههم صفعاً وحبّاتها تحرق العيون، وكانت الخدود حمراء كما لو بفعل معطّر ما بعد الحلاقة، قال.

والآن، بعد مضيّ سنوات، لا يزال رابو يسمع صوت فيفريه ويراه وهو يروي له ما حدث في الطريق ذلك الصباح، ومنذ ذلك الوقت، يستيقظ رابو غالباً كما لو

كان هو من رأى ذلك، كما لو كان هو نفسه هناك، في حين أنّ الأمر لم يكن كذلك، فقد بقي هو في الثكنة في وهران، وما يستعيده بالفعل هو صوت فيفرييه.

وربّما استعاد أيضاً شيئاً من الرعب الذي شعر به فيفرييه والآخرون.

كلّ الآخرين الذين كانوا برفقته في سيّارات الجيب والمدرّعات، تخضّ الطريق أجسامهم والحجارة والحُفَر، طريق العودة مع الرياح والرمال التي تصفق كما لو كانت قوّة واحدة وتمنح زرقة السماء طعم الغبار الذي يشعر به الواحد في جوف حلقه؛ وعبثاً يسعلون أو يشربون الماء، فلا شيء ينفع، واليد أمام الفم لا تحمي، ولا الشفاه المصرورة الناشفة أصلاً منذ الصباح، حتّى لو أنّ الوقت لا يزال مبكّراً والشمس ليست بعدُ عالية في سمت السماء، والسماء لم تصر بعدُ زرقاء تماماً بل كانت شاحبة ومتردّدة. إلّا أنّ الرمال والرياح لم تكن كذلك، وكانت تصيبهم بالتوتّر كما يفعل الذباب عندما يقترب من العيون فيضرب مثل حبيبات الرصاص. والأفق بنيٌّ فاتح ينكشف على مدى النظر دون أن يقطعه شيء، لا شيء يقطع خطّ الأفق، لا شيء، ولا حتّى واحدة من تلك العوارض العمودية التي تُستخدم على الأرجح كعواميد للتلغراف، ولا حتّى الأسلاك الممتدّة بينها. فهذه المرّة لم يكتفِ أولئك الرجال بقطع عمود أو عمودين. بل قطعوها كلّها على امتداد الطريق. بعضها وقع من جهة الخندق وبعضها الآخر من جهة الطريق - وربّما فعلوا كلّ شيء، لا بدّ أنّهم فعلوا كلّ شيء لتقع في هذه الناحية - فقطعوها تماماً، على عرضها، مع كلّ تلك الأسلاك وقد تشابكت وتهدّلت في الرمال كأفاعٍ ميتة، مرغمةً الموكب على التوقّف عشرات المرّات خلال الطريق.

ويستمرّ هذا المشهد على مدى النظر. سرعان ما انتبهوا إلى أنّ الأمر كذلك على طول المسار، ففي البعيد انعطافة تستمرّ الطريق بعدها باتّجاه البحر، ما يعني أنّ النّظر يمكن أن يعانق المشهد إلى أبعد ما يمكن أن يصل إليه. ومن بعيد ندرك أنّه لم يعد هناك ما يُرى.

وهذا، روى فيفرييه، أخرجني حتّى أنا من مزاجي العكِر وغضبي تجاه برنار. كما لو أنّ الواحد تذكّر فجأة أنّ ثمة ما هو أهمّ، تلك الأمور التي تحصل، والرفاق، فيتبادلون النظرات والخوف نفسه والأسئلة نفسها، وكلّ ما حصـل بالأمس أو حتّى قبل ساعتين لا يعود موجوداً. الخوف نفسه يجمعنا، وفي تلك اللّحظة نتقاسم كلّ شيء، ويكون لنا نفْس النظرات. ثمّ الرغبة في تبادل الكلام، لأنّه في تلك اللّحظة - توقّف الموكب على حافّة الطريق، مرّت دقيقة والشبّان

صامتون، ثمّ نزلوا الواحد تلو الآخر من سيّارات الجيب - في تلك اللّحظة شعروا كما لو أنّ الفلّاقة فعلوا ذلك بهدوء، دون أن يخشوا أحداً، وفكّروا كلّهم في دواخلهم: تصرّفَ الفلّاقة كما لو كانوا أسياد المكان.

في البداية، فكّروا أنّ الأمر اعتياديّ ولم يحاولوا أن يفهموا أكثر. فراحوا يتحرّكون وبسرعة صاروا يرفسون العوامید بأقدامهم لدفعها باتّجاه الخندق. ثمّ انتظموا. انطلقت سيّارة في المقدّمة وراحت تتوقّف عند كلّ عقبة، فيخرج منها ثلاثة جنود بسرعة، يرفعون العمود ويزيحونه في الوقت الذي يستمرّ فيه باقي الموكب بالتقدّم ثمّ يتوقّف عندما يعترضه عمود آخر ويفعل الشيء نفسه في الوقت الذي تكون فيه السيّارة الأولى قد تجاوزتهم وهكذا دواليك. هكذا طوال الطريق، دون أيّ كلام. إلّا أنّه شيئاً فشيئاً بدأ الغضب يرتفع وسرعان ما توتّروا جميعهم، لا فقط بسبب العطش والتعرّق وعدم معرفة متى ينتهي الأمر. ولكن لأنّهم شعروا أنّ في الأمر استفزازاً يعجزون عن الرّدّ عليه، وقعوا في فخّ، وتخيّلوا الفلّاقة يترصّدونهم من مكانٍ ما ويضحكون. تخيّلوهم ولا يسعهم إلّا تخيّلهم فهم لا يرونهم أبداً، وفيمَ ينفعُ الغضب خلا مدّهم بمزيد من الطاقة تسمح لهم بالإسراع في إنهاء الأمر وفتح الطريق كابحينَ في دواخلهم الرغبة في الصراخ بوجه هذه البلاد بكاملها، بصخرها ودغلها وزيتونها ورياحها وكلّ شيء، السماء أيضاً والعلّيق والبقع المعشوشبة، كما لو كان كلّ شيء ينظر إليهم ويضحك مع الفلّاقة:

هيّا، تعالوا، تعالوا حاربوا إن كنتم رجالاً، واجهونا إن كنتم رجالاً - ولكن بدل ذلك، ثمّة الوحدة والإرهاق والوهن الذي يصيبهم عندما يسمعون مكابح السيّارة وهي تتوقّف كلّ خمسة عشر متراً.

هكذا وصلوا إلى الموقع كما لو أنّهم قطعوا المسافة كلّها مشياً، وكانوا جميعاً ساخطين. لا أحد يتكلّم، يكتفون بالنظر حولهم وبتوجيه نظراتهم هنا وهناك بشكل سريع لا يستقرّ على شيء محدّد، هذا كلّ شيء، سعياً لملء هذا الصمت الهائل وهذه المساحة الضخمة والتي بالرغم من ألفتها راحوا ينظرون إليها كما لو أنّهم يرونها للمرّة الأولى، كما لو كانت مغارةً، أو غابة، بطونهم يعصرها الخوف، والبنادق تحت الأيدي، والأيدي متعرّقة ومرتجفة ولكن ليس لوقت طويل، فثمّة النظرات المتبادلة فيما بيننا.

نظرات لا تفتّش عن جواب عمّـا لا نفهمه بل لتمدّنا بالقوّة وبالشجاعة للتقدّم لا للفهم.

فنحن لا نفهم شيئاً، لا، لا شيء لنفهمه.

لماذا يُخيفنا فجأةً هذا الصمت وما يمكن أن يعنيه. نخاف، فجأةً نخاف لا على أنفسنا، لا، ولكن عليهم، هم، مَن كانوا في الداخل، داخل الموقع - وتلك المحرّكات التي تهدر وهي واقفة، وحتّى الطريق تبدو مستوية أكثر من العادة، فالسير ببطء جعلنا أقلّ إحساساً بالحُفَر ولم يكن هذا مطمئناً لأحد، تماماً كالصمت الذي لم يُطمئن أيّاً منّا. وتوقّفنا كلّنا عن الكلام. لم نكن قادرين على الكلام. الصمت. الانتظار. نتقدّم ببطء شديد ونسمع صرير الحصى والحجارة تحت العجلات. الأيدي على البنادق، الأيدي، الفائضة عن الحاجة، دوماً، هذا الانزعاج الذي ينمّل فجأةً اليدين حتّى أطراف الأصابع. ثمّ التلال. والعلّيق. وبضع أشجارٍ عند طرف الطريق والبحر في الأسفل والخزّانات الضّخمة التي لم تُلقِ الشّمس عليها بعد انعكاساتها المتوهّجة كما تفعل في ساعات العصر.

ثمّ لحظة الوصول إلى الموقع واكتشاف ذلك المشهد الغريب: مَن الذي تكلّم أوّلاً، من الذي تجرّأ وسمّـاه وقال:

تبّاً، أتَرون؟ لا، لا أعرف من قال هذا.

لكنّ شيئاً ما تنقّل بسرعة شديدة من نظرةٍ لأخرى. وحاولنا أن نفهم. أو بالأحرى كنّا نتفادى أن يُغرقنا ما نظنّ أنّه حصل أمام عيوننا. فتساءلنا أين القائد، يجب أن يقرّر واحدٌ ما علينا أن نفعل، لأنّنا فجأةً لا نعرف ماذا نفعل ولا كيف نفكّر، بقينا جامدين ثمّ بدأت سيّارات الموكب تُبطئ وتتوقّف بدل أن تتقدّم وتواصل الهبوط بعد المنعطف الأخير. سمعنا صوت المكابح اليدويّة وصرير المَراود وتوقّف الموكب بكامله.

ورحنا ننتظر.

كنّا نراقب هذا من فوق، من الطريق: في باحة الموقع، لم يُرفع العلم. السارية هناك، فارغة، والعلم لا يرفرف. لم يقل أحد شيئاً بعد. اكتفينا بأن نشير إلى ذلك للآخرين بإيماءة من الرأس.

ثمّ قالها أحدهم.

العلم ليس هنا، لم يرفعوا العلم.

لم نعرف في ماذا نفكّر. أو هل كنّا نعرف؟ ربّما أجل. أجل، عرفنا. هل عرفنا؟ فيما بعد سنقول لأنفسنا إنّنا في تلك اللّحظة فهمنا ولكنّنا لم نجرؤ على أن نقول:

أجل، هذا تماماً.

بقينا هنـاك بضع دقائـق، وبـدت الدقائـق القليلـة طويلـة جدّاً، مع المحرّكات الهادرة التي ترجّف حديد السيّارات، ونحن في داخلها، وقبل أن نسمع الأصوات والأسماء، خمسة أسماء صدح بها صوتٌ في السيّارة الأولى، كان هؤلاء قد ترجّلوا من سيّارات الجيب متأهّبين لتقدّم الموكب.

وطبعاً، كان اسمانا، أنا وبرنار، أوّل اسمين. كان اسمانا هما الأوّلين وتلتهما ثلاثة أسماء أخرى.

ولكنّ اسمينا صدحا في البداية. لأنّه بعد قليل سيقولون إنّ كلّ ذلك قد حصل لأنّنا لم نغادر الثكنة في الوقت المناسب لنكون هنا، وبطريقة أو بأخرى نحن سهّلنا العمل للفلّاقة.

أجل، بعضهم قال هذا.

كما لو كنّا نحتاج إلى أن يُقال هذا لنا! كما لو أنّنا لم نكن أنا وبرنار سبق أن فكّرنا في هذا، بأنّه لو انطلق الموكب في موعده، لكان، أجل، كان صعباً أن نتخيّل ما كان سيحدث وأن نقول هكذا، أجل، نحن المخطئون. ربّما كنّا نحن المخطئين. وكم من مرّة قلتُ لنفسي إنّه كان عليّ أن أهزّ برنار وابن عمّه بشكلٍ أقوى [16]، أن أجرّهما معاً، أو بالأحرى، برنار وحده، إذ في النهاية، ما دخليَ أنا سواء أعاد رابو إلى ثكنته أم لم يعد، ما دخلي، في حين أنّ الشخص الوحيد الذي كان يعنيني في الموضوع هو برنار، ولم أتمكّن يوماً من أن أقول لنفسي إنّه بسبب ذلك العراك ولأنّنا وصلنا متأخّرين، ولأنّهم انتظرونا، بأمرٍ من الملازم أو العريف أو قائدٍ ما، واحدٍ من الموقع، وهذا لا دخل لنا به، فهُم من اتّخذوا القرار بالبقاء وبعدم الرحيل من دوننا، وانتظارنا وتأجيل موعد انطلاق الموكب، وليس نحن من قرّر أنّ على الجميع الانتظار فقط لأنّ كسولَين لم يصلا في الموعد.

ليس أكيداً أنّ الأشياء كانت ستختلف. ليس أكيداً. كما لو أنّ الأشياء كانت ستختلف. أنا، في العمق، لم أقل هذا لبرنار في ذلك الوقت ولا هو قاله لي، كنّا نعرف أنّ الأمور كانت ستختلف طبعاً، لو أنّ الموكب انطلق في موعده بدل انتظارنا، فالفلّاقة هجموا لأنّهم عرفوا أنّنا لم ننطلق - كانوا يعرفون، فنصْف العديد على الأقلّ أمرٌ لا يستهان به، كانوا يعرفون، وما كانوا ليتجرّأوا لولا ذلك.

ولم يضطرّ واحدٌ إلى أن يقول لنا إنّ ما حدث كان بسببنا.

لا.

ما احتاجوا أن يقولوا لنا:

إنّها حماقاتكما، هذا بسبب حماقاتكما - لذا، ومثل الجميع، حرصوا على ألّا يكلّمونا، على أن يديروا لنا ظهورهم، أن يخفضوا أبصارهم أمامنا، أن يغيّروا الحديث، أن يبتعدوا، أن يحتقرونا. وكيف توجّب علينا أنا وبرنار أن نعيش ذلك. أن نسترجع صوراً قد تكون أكثر فظاعةً من كلّ شيء: صورة سريرينا النظيفين والمرتّبين. الغطاء البنيّ مطويّ بعناية على السرير. والصور الفوتوغرافية قرب الوسادة، معلّقة بالدبابيس على الحائط تبتسم لنا. فوق سريري، كانت صورة إليان، وفوق سرير برنار البطاقة البريدية للسيّدة العـذراء الفوسفورية جامعةً يديهـا وعيناها دامعتـان في حالة انخطاف، بينما حولها كان هناك كلّ ذلك الصّمت والمجزرة، ووحدها السلحفاة القذرة ترفع رأسها الأسود المتغضّن، رأسها الذي يهتزّ وعيناها السوداوان الصغيرتان تطرفان بارقتين كعينَي هرّ في اللّيل أو أنوار سيّارة، براءة عجوز تعبر حقل ألغام دون أن ينفجر في وجهها أيّ شيء.

فليقل الآخرون إنّها غلطة برنار أو غلطتي أنا أو غلطة رابو أو أيّ كان.

إنها خصوصاً غلطة من قاموا بذلك.

وهنـا، روى فيفرييه، لا أعرف كيف يمكـن وصـف الخوف الذي شعرنا به عندما تقدّمنا بصمت، أجسامنا على شكل زاوية، سيقاننا نصف مطويّة، البنادق في أيدينا، شبه مقرفصين -أعني أنّه في تلك اللّحظة التي كنّا نتقدّم فيها الموكب متّجهين صوب الموقع، في هذه الأمتار القليلة، كنّا هكذا، خمستنا، أنا في المقدّمة، يتبعني برنار ثمّ الثلاثة الباقون في الخلف- كنّا خائفين لدرجة أنّه في لحظة من اللّحظات ينتهي بنا الأمر إلى ألّا نعود نفكّر أبداً، لا في الخوف ولا في سواه. لا نعرف حتّى لماذا نتقدّم. فنتمسّك بالبنـادق ونركـض. نخفض رؤوسنا ونركـض، ونظلّ نتقدّم بوضـع السلطعون الغبيّ هذا، أو لا أدري ما اسـمه، كي لا نلفت النّظر. ولكنّ الأصعب كان الامتناع عن الصراخ.

كنّا نريد أن نصرخ. وكنّا نعرف أنّنا يجب أن نفكّر في الساعات التي أمضيناها في تعلّم ما يجب فعله وكيف، الإيماءات العسكريّة، كما لو أنّها الحرب في تلك اللّحظة، نعم إنّها الحرب ونحن جنود. رجالٌ كما حلم آباؤنا وأجدادنا أن نكون، أجدادنا خصوصاً، ولاحقاً سنتساءل:

أهو الخوف نفسه الذي شعروا به في فيردان أو في حرب الأربعين أو في كلّ الحروب؟

لا أعرف مَن يمكن أن يجيب على سـؤالي هذا. أمّا أنا فأقول: نعم، هذا شكلٌ من أشكال الحرب. فنحن لا نعرف ما هي الحرب ولكنّ هذا يشبهها فعلاً. ما أعرفه هو أن تنفّسنا كان قويّاً بحيث شعرنا أنّ كلّ ما يحيط بنا يسمعنا نتنفّس.

وأنا ما زلتُ أذكر الإحساس بالسياج الحديديّ تحت أصابعي. كان السياج كما لو أنّه سبق أن فُتح، لكن لم يكن هناك أحد، لا دوريّة ولا حتّى أحد الرفاق. تبادلنا النّظرات. فكّرنا إنْ كان ممكناً أن ننادي. أشار إليّ برنار أنّ من الأفضل ألّا نفعل. لذا كان عليّ أن أدفع السياج بيدي، قليلاً، بشكل طفيف، من دون كبيرِ جهد. دفعتُ السياج بحركة كانت على شيء من الحِدّة فانفتح.

لم يكن مقفلاً. كان يجب أن يكون كذلك. كان يجب، كان يجب طبعاً أن يكون مقفلاً ولكن لم يكن كذلك وسُمع صريره وهو يُفتح ومعه صوت أنفاسي القويّة حتّى لَتمزّق صدري، وفجأة ثقل الملابس على الجِلد والعنق المتصلّب بحيث وجدتُ صعوبة في الالتفات والنظر إلى برنار. كان هو ينظر إليّ. لا نفهم. لا نريد أن نفهم. ماذا نقول إذن، السياج الذي فُتح ولم يقاوم كما يُفترض أن يفعل، والسارية التي ترتفع هكذا بلا علَم، لا شيء، لا أحد، لا أحد البتّة، قلنا لأنفسنا إنَ هذا مستحيل، وفي أفواهنا تتكرّر هذه الكلمة:

مستحيل، مستحيل،

وتفتّتت هذه الكلمة وسقطت ولم تعد غير عجينة طريّة تموت في الحلق، بسبب الخوف والغضب والخوف أيضاً، والمزيد من الخوف، كما أنّنا لا نصدّق أنّ هذا صحيح، ما كنّا نعيشه وما كان يحصل، والفكرة التافهة التي كنّا نخترعها ونبنيها هكذا في رؤوسنا، عندما تبادلنا بضع نظرات قبل القول:

فلنتقدّم، سأغطّيك،

وهذه الفكرة التافهة في أن يغطّي أحدنا الآخَر، أن نقنع أنفسنا بكلّ جدّية بأنّهم في الداخل قد نسوا ببساطة أن يستيقظوا.

كم كان فادحاً التفكير بهذه الشاكلة!

ولكنّها كانت أيضاً طريقة لكي لا نصرخ، لكي لا نصرخ بأسماء الرفاق، فنحن نريد أن يظهروا هنا فجأةً أمامنا. لكن لا أحد. الصمت. لذا يغطّي واحدنا الآخر

قدر الإمكان. نقول «يغطّي واحدنا الآخَر» لأنّ في الخلف شخصاً يرتجف وراء ظهرك، وهو مستعدّ لأن يطلق النار على كلّ ما حولنا إذا ما قُتلتَ. إذا ما أطلق الرصاصَ شخصٌ ما. إذا ما تحرّك شخص. سنغطّي واحدنا الآخر. نحتاج إلى شيء ما. أن نركض ونترك الأفكار تتوالى في رؤوسنا الواحدة تلو الأخرى قبل أن تختفي كلّها ولا نعود نفكّر في شيء فنشير إلى من هم خلفنا بأن يتقدّموا.

فيأتي آخَر. برنار خلفي تماماً. ثمّ آخَر. كنّا ثلاثة. ثمّ أربعة. ثمّ خمسة. والآخرون يراقبون وينتظرون. ثمّ البوّابة الحديدية، تلك التي تفصل عن برج المراقبة والتي وجدناها مفتوحة في حين أنّها تشكّل حماية للجنديّ في غرفة المراقبة. هي بدورها لم يكن من المفترض أن تكون مفتوحة، نعرف ذلك، ولا نقول شيئاً. لم نقل بعد إنّه كان يلزم مفتاح، نقول فقط إنّنا يجب أن نصعد إلى أعلى.

وصعدنا.

بقي ثلاثة منّا في الأسفل وصعد الاثنان الباقيان الدرج. وللحال، أثناء صعودنا، عرفنا أنّنا نريد أن نمشي بشكلٍ أبطأ، كانت أيدينا على الأزِندة، نعرف أنّنا يمكن أن نطلق النار ولكنّ أصابعنا تصلّبت وجمدت، ومع ذلك كانت ترتجف، كان كلّ شيء يرتجف ما عدا الدرجات الإسمنتية تحت أرجلنا وبواريه فوق، بجسده الممدّد إلى الخلف والذي غرق في دمه بينما عيناه الجاحظتان لا تنظران إلى شيء.

لم تأتِ الأسئلة فوراً، ولكنّها لم تتأخّر، روى فيفرييه، أجل، بدأت الأسئلة حالما وجدنا باب برج المراقبة مفتوحاً بدوره، لا محطّماً أو أيّ شيء من هذا القبيل، ولا أيّ خدش، كان مفتوحاً فقط. هذا يعني أنه فُتِح بالمفتاح. هذا ما قلناه في أنفسنا، ولكن قبل ذلك، أكمل فيفرييه، كان هناك الشعور بالتقزّز وكيف هبطتُ من فوق راكضاً، وكدتُ أقع، وصراخي وأنا أنزل الدرجات واصطدامي ببرنار، كان برنار من أخبرني لاحقاً عن ذلك الصراخ وكيف تقيّأتُ أيضاً. لا أذكر شيئاً من هذا ولكنّني لا زلتُ أذكر كيف بقيت واقفاً، ساقاي ترتجفان ويملأني الغضب والتمرّد، لا أدري ماذا نسمّي ذلك الهياج الذي أصابني وأنا أعثر على رفاقي مذبوحين كلّهم الواحد تلو الآخَر كما لو أنّه لم يتسنَّ لهم الوقت للنهوض من السرير، لا أدري، يمكن أن نقول ما نشاء، ما نقدر أن نقوله، يمكننا أن نحاول رواية ما حدث ووصفه، يمكننا أن نتخيّل، أن نحاول التخيّل ولكن في الواقع لا يمكن تخيّل ذلك الصمت الذي نكتشفه عندما ندخل المهجع، ذلك الصمت البالغ الثقل بحيث يضغط على القفص الصدريّ كما لو كنّا في مكانٍ مرتفع، مثل ضغطٍ جويّ، فنختنق، أوّلاً لأنّ النور مضاء في وسط

الغرفة، ذلك المصباح البسيط الذي يرتجف لونه الأصفر، ارتجافٌ نعرفه نحن أيضاً، وكنّا نشكو منه مع الرفاق منذ البداية، كنتَ تشكو منه معهم مثلما كنتم تشكون من كلّ شيء، فيما بعض رفاقك هنا أمواتٌ وأنت ترى ذلك، ترى كيف ناضلوا، تعرف ذلك، إنّهم هنا، بعضهم كان مرتدياً ملابسه، كان لديهم الوقت لارتداء ملابسهم، بعضهم، وللنضال، ليس جميعهم، فمنهم من كان في فراشه، مدّثراً، كما لو أنّه لم ينتبه لما حصل. لم تكن تلك حال الجميع. فبعضهم كانت عليه علامات ضرب، هُشّمت رؤوسهم بأعقاب البنادق، هكذا مات شاتيل، مضروباً بأعقاب البنادق، جمجمته مهشّمة من الأمام، والوقت الذي لزم لقتلهم جميعاً، الابتسامة القبائليّة، سماكة الجِلد والتعبير الغريب الذي تمنحه للوجه، الأشبه بقناع وُضع على الرّأس، ولكنّ الرأس لا شيء، لا شيء، قناعٌ آخر لا شيء تحته، سماكة الجِلد، الدم القاتم والبنّيّ والرائحة التي بدأت تثقل وتزنخ، لا تُحتمل، فلا نطيل البقاء، يستحيل أن نبقى ونشاهد ذلك، أولئك الذين نعرفهم، كلّهم، والمكان أيضاً والمهجع، ثمّ كيف أخذوا الأسلحة من الخزانة حيث كانت محفوظة.

لم نفكّر بعد في عبد الملك، ليس بعد، ولكن سرعان ما سيحصل ذلك، لا لأنّ شكوكاً تراودنا حياله، بل كان ثمّة دليل، غيابه، هو، لقد اختفى، هرب، وأحدهم فتح الأبواب - مَن يمكن أن يكون سواه؟ - أحدهم قتل الجنديّين المكلّفين بالحراسة ليلاً - مَن سواه؟ - قتلهم في الداخل، دون أن نعرف كيف أمكنه قتلهما هما الاثنين بمفرده، كيف قام بذلك، أم تراه قتل بواريه بدايةً، في الأعلى، في برج المراقبة، ثمّ فتح السياج الحديديّ فدخلوا الواحد تلو الآخَر، وهكذا جاءوا، وكان لديه المفاتيح. تساءلنا كيف أمكن عبد الملك أن يفعل ذلك، وأن يرى الآخرين يفعلونه، أي قتْل شبّان عاش معهم طوال شهور، والقول، كيف يمكن ذلك، كيف، لا أعني الخيانة أو تبديل الولاء، بل أعني قتل شبّان ضحكنا معهم وكنّا نعرف أنّ الحرب والاستقلال وتحرير هذه البلاد هي لديهم أمورٌ يؤيّدونها إلى حدّ ما، ولكن في العمق ما كانوا يريدونه أوّلاً وقبل كلّ شيء آخر هو أن ينتهي الأمر ويعودوا إلى بيوتهم.

كيف أمكنه فعل ذلك، لن أفهم أبداً كيف.

وكيف يمكن القيام بما سنكتشفه أنا وبرنار بعد ذلك، سويّة، مرّة أخرى سوية، عندما توجّب دخول المنزل واكتشاف جثث فتيحة ووالديها وشقيقها الرضيع، أمواتٌ كلّهم، أموات، كيف:

كيف أمكنه؟

لأنّ فِعل ذلك، لا أعتقد أنّه يمكن أن نصفه، أن نتخيّل أنفسنا نقوله، فكلّ هذا بعيد عن كلّ شيء، فِعل ذلك، ومع ذلك فقد فعلوه، بشرٌ، بشرٌ فعلـوا ذلك، بلا شفقة، بلا إنسانية، بشرٌ قتلوا الأب بالفأس، قطّعـوه، قطّعوا ذراعيه، انتزعوا ذراعيه، وبقروا بطن الأمّ و...

لا.

لا يمكن ذلك.

لا أفعل سوى استعادة ذلك، ومهما ابتلعتُ كلّ الأقراص التي وصفها لي الأطباء، ومهما اشتغلتُ لأيّام طويلة في المزرعة، وحتّى لو فكّرتُ كلّ مساء في أنّني كما في كلّ ليلة عليّ مواجهة اللّيل، فلن أفهم، عبثاً قلّبتُ الأمور بكلّ الاتّجاهات، ما زلتُ لا أفهم.

كما لا أفهم كيف حوكمنا أنا وبرنار بعد ذلك. وكيف كان علينا أن نسمع لا أنّ تأخّرنا ربّما كان هو السبب في إنقاذ كلّ عناصر الموكب فضلاً عن رجالنا، بل أنّه بسببنا تمكّن الفلّاقة من فعل فعلتهم. وكان إيدير أكثر مَن لوحق بالأسئلة ليروي ما يعرفه. كنّا نرتاب بكونه يعرف، وهو روى كيف كان أحياناً يرتاب بإمكان أن يخوننا عبد الملك، ولكنّه لم يكن يصدّق أنّه قد يفعلها. لم يكن يصدّق ذلك، ومع ذلك فقد خاننا عبد الملك، وخان إيدير أيضاً، لأنّ ثلاثة وعشرين ألف فرنك شهريّاً لا تعود تكفي بعد فترة من الزمن، لم تكفِ لتبرير ما اعتبره خيانة تجاه أصحابه، وإيدير الذي كاد يحدس ما سيحصل، رفض، كما روى، رفض أن يصدّق أنّ عبد الملك كان يتكلّم بجدّية عندما كان يبدأ بالقول إنّه بكلّ الأحوال ومهما فعل، هو أو واحد مثله، لن يُعتبَر أيّ منهما أبداً فرنسيّاً حقيقيّاً، وإنّ الفرنسيّين الحقيقيّين لا يمكن أن يكونوا رجالاً مثله، مثلهما، لا يمكن أن يكونوا مغاربيّين لأنّه، في الواقع، انتهى الأمر بعبد الملك إلى التفكير أنّهم كلّهم عنصريّون وأنّ هذا لن يتغيّر، فكانت النتيجة أن انقلب علينا، ولكنّ إيدير لم يشأ أن يصدّق، لم يشأ أن يصدّق ما كان مع ذلك يراه كلّ يوم في الموقع يصبح حقيقيّاً يوماً بعد يوم، ذلك أنّه عندما سُئل هل كان لديه شكوكٌ هو أيضاً، بخصوصه هو نفسه، هل كان يتفهّم ذلك، تردّد بالإجابة وقال إنّه فرنسيّ وطالما أنّه فرنسيّ فلا سبب لديه ليخون علم بلاده.

وروى فيفرييه كيف أنّه بعد ذلك، وطوال شهور، عندما عدنا إلى بيوتنا، فوجئنا بأنْ لا أحد كان يسألنا شيئاً.

وأنا، أنا نفسي، قرأت الجريدة مثل الآخرين وعرفتُ أنّ كلّ شيء انتهى وأنّ الجزائر لم تعد فرنسيّة، وأنّنا خسرنا الحرب، ولكن لا أحد أتى في الحانة على ذكر الموضوع. كان الشيوخ يلعبون الورق. الطقس حارّ والسؤال الأساسيّ كان معرفة هل كان العلف سيكفي للدوابّ طوال الصيف.

وأنا، عندما أذهب إلى الحانة ينظر إليّ الناس الذين لم يروني منذ وقت طويل ويقولون لي إنّني نحفتُ وإنّه باتت لي هيئة رجل.

أجل، صحيح، صرتُ رجلاً.

ويسألون كيف هي الجزائر وأحياناً قد يقول بعض المهتمّين للأسف كلّ ذلك للاشيء، ولكنّهم مسرورون مع ذلك أن يكون كلّ شيء انتهى، ثمّ... ثمّ ينتقلون إلى موضوعٍ آخر:

كيف حال والديك، إنّ ذراعين إضافيّتين لنقل العلف لهو أمرٌ جيّد بالنسبة إليهما.

وفي تلك اللّحظة، في الحانة، تساءلتُ ما ستكون ردّة فعل الشيوخ العاكفين على لعبة الورق والآخرين خلف منضدة الشّرب، لو، بدلَ الابتسام والإجابة بنعم، أخبرتُهم بما رأيناه وما فعلناه، وكم من الوقت سيلزم صاحب الحانة ليقول:

اسكت، هذا يكفي،

إلى أيّ حدّ نخبرهم عن فتيان كنّا نتركهم يذهبون ثمّ نطلق عليهم رصاصة في الرأس ونلقي بجثثهم رفساً في الوديان لتلتهمها الكلاب وبنات آوى؟

ثمّ، في النهاية، نقول لأنفسنا إنّ الأمر كما لو أنّنا لم نرحل يوماً. كما لو أنّ الجزائر لم توجد يوماً. أذكر أنّني عشتُ بضعة أسابيع بهذه الشاكلة، عدتُ فيها لتناول الطعام بشكل جيّد والعمل وحتّى التخطيط للمستقبل، طويتُ الصفحة وقلتُ لنفسي إنّ كلّ شيء عاد كالسابق، روى فيفرييه، لأنّ العجوز فونتنيل نظرت من خلف ستارتها، لأنّ الدجاج تابع التهام الحبوب على الطريق دون أن يلتفت إلينا ونحن نمرّ، لأنّ رائحة الرّوث وبرَك المياه والجزمات البلاستيكية

والوحل كانت لا تزال في أمكنتها المعتادة، وأن نسمع أنفسنا ونحن نفكّر ماذا ننتظر لنضع بلاطة من الإسمنت أمام مدخل هذا الهُري، كما لو أنّنا لم نرحل يوماً.

لكنّني خصوصاً كنتُ أفعل كلّ ما بوسعي لكي أمنع نفسي من التفكير.

ولكنّ الحقيقة هي أنّني كنتُ أفكّر بدايةً في إليان وكنتُ أفعل كلّ شيء لكي أتفاداها.

وفي المساء، أعني في اللّيل، عندما يحلّ بي النعاس، تخفّ مقاومتي وأعاود التفكير، فأقول لنفسي:

الخميس، الخميس المقبل سأذهب إلى السوق.

هناك حيث أعرف أنّها تبيع البيض والخضار، ولكن لا لأقول لها كلّ الأذى الذي تسبّبت لي به.

كنتُ أستيقظ وتلك الرغبة تحرقني، الرغبة في أن أظهر أمامها فجأةً وأسألها، وأقول لها، هكذا:

ماذا تعتقدين أنّنا فعلنا هناك؟ ماذا تعتقدين، قولي، بينما كنتِ تتخلّين عنّي، بينما كنتِ، مع الآخَر، لا تعرفين أنّني، أنا، في هذا الوقت رأيت شبّاناً في العشرين أو الخامسة والعشرين، حتّى أنّني مرّةً رأيتُ أحد الفلّاقة في السابعة عشرة، ولكن مهما كان عمره، لا زلتُ أذكر صرخاته وكيف كان يصارع عندما أصعدوه في طائرة مروحيّة وضجيج مراوحها فوق البحر، وهو، هو كان يصرخ ويتوسّل ورأيتُ الرّعب في عينيه - أتعرفين أنتِ ما هو الرعب؟ أسبقَ لك أن رأيتِ هذا في السوق؟ أسبقَ لك أن رأيتِ الرّعب في العيون؟ لا تعرفين يا إليان المسكينة، لا تعرفين شيئاً، قدماه اللّتان غمّسوهما في كتلة من الإسمنت وعندما تصلّب الإسمنت أخذوه في المروحيّة، أقسِم أنّه كان يمكن أن يبيع الأرض بكاملها، أن يشي بالأرض بكاملها، وأنتِ أيضاً لو كنتِ مكانَه لوشيتِ بالأرض بكاملها، ولكنّه هو كان شجاعاً، هو مَن قاوم ضربات العصا، لو رأيتِ ظهره، أسود، أسود.

ولكن لو أخبرتها بكلّ هذا لانتفضت مصدومةً وقالت لي:

كلّ شيء انتهى بيننا، انتهى، أنا متزوّجة، ارحل من هنا، دعني وشأني، أنت تهرّب الزبائن بحكاياتك.

وفي السوق كانت العجائز سينظرن إليّ وهنّ يتساءلنَ من هو هذا المجنون:

ماذا يحكي هذا المجنون؟

وكانت إليان ستنظر حولها هلعاً وخجلاً مفتّشة عن زوجها، أو أحد أفراد عائلتها، ليأتي وينقذها ويخلّصها منّي، بينما أنا أتابع:

مَن يقاوم، كنّا نغمّسه عارياً في مياه الغسيل في الحوض في الباحة، جسمه تحت الشمس ونسلّط عليه المزيد من الضرب بالعصا، لا يمكنك أن تسمعي، كانت هي ستخفض نظرها وتقول:

اسكت، اسكت، توقّف، اسكت،

وكانت العجائز سيقلنَ:

كفى،

وكان الشيوخ سيقولون:

كفى،

أمّا أنا فكنتُ سأقول إنّه قاوم كلّ ذلك ولكن عندما غمسوا قدميه بالإسمنت أدركَ للحال، وكـان سيشي بالجميع كي لا يسـمع صخب المروحيّة، ولقد وشى بالجميع - المغارة التي كان مختبئاً فيها مع الآخرين، والأدوات، والشبكة، والمجنِّدين، والخفر، والمتواطئين. ويداه وأصابعه التي راحـت تتشبّث بحيث توجّب عصّها حتّى نزفت ثمّ الاستمرار بضربها، وحتّى مع ذلك كان يبدو متعذّراً على الإفلات. ولكنّ جسده أفلت واختفى صراخه في سـماء البحـر المتوسّط الزرقاء تحـت ضجيج المراوح ولامبالاة البحر.

وساعات العصر التي أمضيتها وأنا أدخّن وأنظر إلى النهر والأبقار وأستمع إلى حفيف شجر الصفصاف في الريح، كنتُ باختصارٍ أنتظر.

وكم مرّة أوشكتُ فيها أن أنهض ليلاً لأذهب وأوقظ والديّ وأجبرهما على أن يسمعاني، ثمّ أروح أتخيّلهما وقد أفاقا مذعورين، وجلسا في سريرهما وقد أرعبهما خصوصاً أن يرياني مُداهِماً غرفتهما في أيّة ساعة كانت.

فأبتسم لهما وأنحني على آذانهما الصمّـاء وهما مرتعبان لرؤيتي شديد القرب منهما في ثياب النوم بعينيّ اللّامعتين كما لو من الحمّى أو من الثّمالة، ترافقني تكّات الساعة، فيما هما لم يفيقا بعد تماماً من نوم العجائز، ولا يزالان نصف غافيين يشخران وعيونهما منتفخة بالنوم وجسداهما بطيئان ودمهما بارد في عروقهما ويمنعهما من الإتيان بأيّ حركة، كنتُ أتخيّلهما، وكم مرّة كدتُ أقفز من سريري في منتصف اللّيل وأقتحم غرفتهما في آخر الرواق فأدخلها وفي صوتي وابل من الكلمات لأقول لهما إنّني، أنا، رأيتُ شبّاناً من هنا، من عندنا، شبّاناً بيضاً يقومون بأشياء فظيعة، وليس فقط مجانين الهند الصينية [17]، وفي الوقت الذي كنتما تتخيّلانني فيه أنقذ السلام، كنّا أنا والرفاق نستقلّ سيّارات الجيب في عطلة نهاية الأسبوع ونذهب إلى الصحراء لنتسابق ونصطاد الغزلان، وكنتُ أتخيّل قسمات والديّ وهما يسمعانني أقول إنّنا كنّا نطارد الغزلان في الصحراء ونصرخ بصدور عارية ونحن واقفون في السيّارات، اسمعا، اسمعا هذا حتّى النهاية، والغزلان تركض صوب الجبال هرباً منّا وتركض باتّجاه الشمس لكي تُعمينا - كنّا نرى خيالاتها، غيوماً من الغبار الأشقر والأبيض وقروناً مستدقّة، ثمّ،

ثم. ثمّ لا شيء.

لا شيء.

أذكر كلّ هذا، روى فيفرييه.

كان ذلك في المساء الذي جاء فيه عند رابو ليفرغ جعبته، ذلك أنّه حتّى لو روى ذلك وهو يضحك، حتّى لو رواه بنبرةٍ حياديّة، فقد انتهى به الأمر إلى الاعتراف بأنّ رغبته في رؤية الرفاق كانت قبل كلّ شيء رغبةً في قول كلّ ما أسِنَ في داخله فبات لا يُحتمل، صار حاضراً بشدّة، فأقنع نفسه بأنّه إذا تكلّم مع أناس مثله أمكنه أن يفقأ الدمّلة كما قال.

لا.

كان قد رآهم جميعاً، الواحد تلو الآخَر.

والحقيقة أنّ الماضي، الماضي يجب ألّا نتحدّث عنه، يجب أن نُكمل، أن نعاود، أن نتقدّم، ولا ننبشه. أمّا هو، فقد بقي وحيداً وهو يسمعهم يقولون ويكرّرون مثل تعويذة أو صلاة هذه الجملة القصيرة:

أن يعيد المرء بناء حياته.

وفي النهاية، لم يشأ أيّ منهم أن يتركه يتكلّم. فوصلَ عند رابو، الشخص الذي لم يكن يعرفه بقدر الآخرين ولكنّه آخِرُ مَن قابلَه.

لم ينم رابو جيّداً منذ سنوات. كان يبحث عن أجوبة ويرتجف كلّما بدا له أنّه عثر عليها.

يلتقي برفاقه من قدامى المحاربين في أفريقيا الشمالية أيّام السبت ويمزحون في الولائم والاجتماعات. يفكّرون في الرّفاق ثمّ في الجزائريّين أيضاً وشعورهم بالأسف حيال كلّ ما حصل وكيف أمكنه أن يحصل.

هذا ما يقوله لنفسه.

وتلك اللّيلة أيضاً سيستيقظ ويتذكّر ويمكنه أن يتساءل هل كان يرتجف بسبب البرد أم بسبب ذلك الصوت في داخله الذي لا يريد أن يسكت ويهمس له بذكريات كما لو في حقل ألغام أو حُطام، حيث تتراكم كلمات وأسئلة وصور في كومة غليظة ومُبهمة يعجز عن فهم أيّ شيء منها عدا الخوف والمغص اللذين تسبّبهما له.

قرّر أن ينهض ويتناول حبّة دواء لأنّه ظنّ أنه يحسّ بحرقة في المعدة. أو بجفاف في الحلق. أو ربّما بألمٍ في الرأس. قد يهدّئه كوبٌ من الحليب السّاخن مع العسل.

لا.

فالأمر مستمرّ رغماً عنه، صور ذلك الزّمن السّحيق. ومثلما يحصل له في ليالٍ كثيرة، يستيقظ رابو في حوالى الثالثة فجراً أو الرابعة أحياناً. فيروح يتذكّر ما رواه له فيفرييه:

كنّا كما لو في قِمع وكانت الأمور تتسارع، عندما توقّفنا عن تسميتهم «فلّاقة» ورحنا كلّ الوقت نسمّيهمِ العرب القذرين والسُّمر الرّعاع لأنّنا هذه المرّة كنّا

قد قرّرنا ألّا نعتبرهم بشراً.

وكما في كلّ مرّة، كان يجب أن يقول لنفسه:

استيقظ يا رابو، استيقظ.

وسيقول لنفسه: أن أنهض وأكون صاحياً تماماً أفضل من أن أكون في حالة نصف النوم هذه.

وفي تلك اللّيلة، كان يفكّر في برنار وشفراوي وسولانج أيضاً وبذلك اليوم وتفاهته.

هل أذهب غداً عند برنار مع الدّرك؟

هل سأقوى على ذلك؟

هل...؟

نهضتُ ولبستُ مئرزي. كانت نيكول نائمة فحذرتُ من أن أوقظها، ولكنّها اعتادت بقدري أن تسمعني أتجرجر حتّى الحمّـام فأقضي حاجتي ثمّ أذهب للجلوس في المطبخ منتظراً مرور الساعات، أمام فنجان شاي أو سواه، أيّ شيء لتمضية الوقت؛ وتلك اللّيلة كانت شبيهة باللّيالي الأسوأ التي إن استيقظتُ وقمتُ خلالها فإنّ ذلك لا يزيل القلق ولا الصور.

نهارات كهذا النّهار. وجه برنار والرّعب البادي على شفراوي.

وأنا كالأحمق، في الثانية والستّين من العمر، خفت من العتمة مثل ولدٍ صغير، فأضأتُ المصباح، استقمتُ ونهضتُ من سريري ثمّ خرجتُ من الغرفة وغسلتُ وجهي، لأنتعش، أجل، لأنعش ذاكرتي، في حين أنّ كلّ ما نريده هو أن تتركنا هذه الذاكرة وشأننا وتسمح لنا بأن ننام.

استعدتُ كلّ ذلك وكنتُ أقول لنفسي:

ما الذي أفلت منّي؟ ما الذي لم أفهمه؟ لا بدّ أن شيئاً ما مرّ بالقرب منّي ورأيته وعشته، لا أدري، ولكنّني لم أفهمه.

لذلك بدل الذهاب إلى المطبخ والجلوس والنظر في الفراغ أو انتظار غليان الماء، توجّهتُ صوب المدخل، ففي الدهليز خزانة.

في الخزانة الكثير من الأشياء والخردة. فهنا نخزّن المعلّبات وقناني المياه والحليب. ولكن ما إن تسلّقت قليلاً، بأن وضعتُ قدمي على حافّة الرّف الأسفل وتمسّكتُ بالرّف الأعلى إلى أن تمكّنتُ من الصعود والبقاء واقفاً، حتّى رأيت عدّة أشياء أمامي، في الأعلى، أشياء مفيدة وأخرى بلا فائدة، لعبة ورق ولعبة طاولة وأزرار عتيقة غير متناسبة في علبة بلاستيكيّة، وفي العمق علبة أحذية وخلفها، في العمق بحيث لا تُطال، كاميرا الكوداك القديمة في علبتها.

تناولتُ علبة الأحذية وحملتُها إلى الصالون. وضعتُها على الطاولة الخفيضة وأشعلتُ الضوء الكهربائيّ. بقيتُ جامداً لبرهة، تردّدتُ قبل فتح العلبة.

لا يلزم الكثير من الضوء. المصباح الصغير وأشعّتـه الخضراء الزمرّديّة لا تضيء الغرفة بالكامل ولكنّها كافية.

لمَ أفعل هذا؟ عمّ أبحث؟

تساءلتُ أيضاً منذ كم سنة لم أنظر إلى هذه الصور القديمة؟ منذ سنوات بعيدة جدّاً بحيث يصعب عليّ عدّها.

وكنتُ أقول لنفسي:

أنت، يا رابو، منحنياً على هذه العلبة، ستخرج هذه الصور رغم كلّ شيء. لمَ تفعل ذلك؟ عمّ تبحث؟ لا شيء هنا، لا جواب، أعرفها كلّها هذه الصور، وأعرف أصلاً ما سأجده فيها.

ومع ذلك فتحتُ العلبة، وفي المغلّفات البنيّة شعرتُ بسماكة رزمة الصور، في كلّ مغلّف مجموعة محدّدة، بأبعاد معيّنة، تواريخ مكتوبة في الخلف بالرصاص أو بالحبر، وأحياناً أسماء مدن لا تكاد تعني لي شيئاً. قلتُ لنفسي إنّه عمّـا قريب لن تعود التواريخ أو المدن تعني أيّ شيء لأيّ أحد، وإنّ أحداً لن يعود يعرف شيئاً عن الحكايات حول الصّور ولا حتّى ما تعنيه الأسماء والأماكن على قفا الصور.

وابتسـمتُ للفكـرة، لسـذاجتها، وكيف أنّني احتفظتُ حتّى بتذاكـر الباص.

فتحتُ المغلّفات فوقعت كلّ الصور كورق اللّعب على الطاولة أمامي، ولوهلةٍ لم أستطع أن أقرّر أيّاً منها أريد أن أرى ولا ما أنتظر منها - لأنّني منذ وقتٍ طويل لم أعد أحاول فهم الكلمات التي سمعتها من فيفرييه.

تناولت الصور الأولى التي كانت أمامي.

انحنيتُ عليها الواحدة تلو الأخرى ونظرتُ إليها. ببطء في البداية، ثمّ أسرع فأسرع، متوقّفاً عند البعض منها ومارّاً بسرعة على البعض الآخر، الذي كان يحصل أن أعود إليه بسبب تفصيل أو سؤال أو وجه. عرفتُ بالطبع الوجوه والأماكن والشوارع والساحات والثكنات والموقع حيث التقطتُ صورة لبرنار مع الصغيرة فتيحة على درّاجتها.

نظرتُ مطوّلاً إلى الصورة التي تبدو فيها في مواجهة الكاميرا وخلفها واجهة منزلها. تأمّلتُ وجهها مليّاً، تعابيرها الجادّة وشبه الصارمة. ثمّ كونها تتّشح بالسّواد.

وتذكّرتُ لماذا لم أتمكّن طوال سنوات من أن أنظر إلى هذا الوجه وقساوته، وكذلك ما قلتُه لنفسي في تلك الأيّام، والذي سرعان ما أصبح، كيف أقول، يكاد لا يُحتمل. ففجأةً باتت نظرتها أشبه باتّهام. كما لو كانت تحمّلنا مسؤولية موتها والحرب وكلّ شيء. كما لو أنّ ملابسها القاتمة كانت حداداً على المجزرة القادمة، كما لو كانت ترتدي الأسود حداداً على نفسها، على موتها هي.

أذكر ذلك. كانت تبدو كالوعد بالألم، في حين أنّنا نأمل من الطفولة أن تكون وعداً بـ - يا لغباء هذه الكلمة! - وعداً بالسعادة.

أذكُر أيضاً عندما كتب لي برنار.

كان قد ذهب إلى أعماق الأوراس أو إلى بلاد القبائل الكبرى، لا أعرف هذا أيضاً، غير بعيد من الصحراء، وأنا أمضيتُ بعض الوقت في السّجن بسبب ذلك العراك وتلقّيتُ منه تلك الرسالة - وكان يمكنني أن أبحث عنها، لا بدّ أنّها كانت هنا، في مكانٍ ما، في أحد المغلّفات. ولكنّني لم أبحث عنها. لم أشأ أن أبحث عنها. تردّدتُ. لا. فما الداعي؟ ما الداعي لأن أقرأ مجدّداً الكلمات نفسها ولأن أرى مجدّداً ذلك الحبر الأزرق على ورقٍ ذي مربّعات من دفترٍ مدرسيّ حيث يطلب منّي أن أرسل له الصور التي التقطتُها للصغيرة فتيحة؟

استعدتُني وأنا أقرأ تلك الرسالة للمرّة الأولى، والانصعاق الذي أصابني لأنّني لم أجد فيها إلّا هذا الطلب بشأن الصور من دون شيء آخر، ولا كلمة بشأنه هو، أو بشأن ذلك العراك الملعون أو عمّـا تلاه، كلّ ما جرى بعد ذلك واليوم الذي ابتداءً منه لم نعد نتبادل الكلام. برودة رسالته وفتورها. كما لو كنّا لا يكاد يعرف واحدنا الآخر. أن يطلب منّي الصور دون أن يقول أيّ شيء آخر، عن الموقع الجديد حيث كان أو كيف كانت أحواله أو أحوالي أنا بعد كلّ ذلك أو قول كلامٍ حول ما جرى، أيّ كلام.

لا، لا شيء. طلبٌ مهذّب لا غير، وعنوانه.

أذكر أنّني بقيتُ ذاهلاً إزاء أسلوبه هذا، والغضب منه يزداد في داخلي. لذا وبعد عدّة أيّام من التردّد (لأنّني في البداية كنتُ اتّخذتُ قراري بألّا أبعث له الصور أبداً، وكتبتُ لسولانج في هذا المنحى، لا لأطلب رأيها بل فقط لأؤكّد رأيي، ثمّ انتابني الشّك)، وانتهى بي الأمر إلى الرضوخ، فأذعنتُ ولا زلتُ أرى نفسي وأنا أحضّر الصور وأغلق المغلّف، أذكر أنّني أرسلتُ له نسَخاً عن الصور واكتفيتُ بأن أكتب كلمة سريعة على بطاقة أتمنّى فيها حُسن وصول الصور لا أكثر. كنتُ أودّ أن تبدو لامبالاتي طبيعيّة مثلما هي عنده. ولكن كان عليّ افتعالها. لأنّني من جهتي كان بإمكاني أن أحدّثه عن كلّ شيء، وحتّى أنّي كنتُ راغباً في ذلك آنئذ. كان بإمكاني أن أحكي له كيف أنّني تردّدتُ لاحقاً في الاعتذار منه لأنّني تلفّظتُ باسم رَيْن في حين ما كان يجب أن أفعل. لأنّه، في العمق، كان الصّمت الذي بيننا ثميناً، وما كان يجب المساس به.

كان بإمكاني أيضاً أن أكلّمه في المحكمة.

فقد لمح واحدنا الآخَر عند ملتقى رواقين، واكتفينا بتبادل النظرات بسرعة، دون أن نقـول شيئاً، كالأشباح، كغرباء يلتقون ويفكّرون أنّهم سبق أن رأوا هذا الوجه في مكانٍ ما. كنّا نُحاكَم بسبب ذلك التّأخّر، لتحديد مدى مسؤوليّة كلّ منّا عن الإهمال والتواطؤ، إلخ.

أراد هو وفيفرييه أن يُعاقَبا. طلبا أن يُعاقَبا ولم يجدا ما هو أفضل من أن يتمّ إرسالهما حيث يمكنهما أن يحاربا فعلاً.

تلقّف الجيش الطلب بالتّرحاب فالمتطوّعون كانوا قلائل.

تأمّلتُ الصور بأطرافها المتآكلة قليلاً ومرّرتُ أطراف أصابعي على إطاراتها البِيض، وفي تلك اللّحظة فكّرتُ أنّني في الجزائر لم أحمل الكاميرا وأضعها أمام عيني إلّا لأمنع نفسي من أن أرى، أو فقط لأقول لنفسي إنّني أفعلُ شيئاً، ربّما كان، فلنقل - مفيداً.

لم أعد إلى التصوير بعد ذلك.

بقيتُ في هذا الوضع لوقتٍ طويل ولم أشعر بالدقائق تمرّ. مرّت أكثر من ساعة ولم أنتبه لأنّني كنتُ مأخوذاً بالصور. وخلافاً لما اعتقدته وأنا أقول لنفسي ما الداعي لرؤيتها، ما الداعي، فأنا أعرفها كلّها، وأعرف أنّ أيّاً منها لن تجعلني أحصل على جواب، فلا جواب هنا، بلى.

كانت الصور تقول أشياء.

تقول أشياء. ولكن أيّ أشياء؟ خلف الوجوه بدايةً. أجل، نراها جيّداً، وجوه شبّان في العشرين. كلّ هؤلاء الشبّان الذين عرفتهم والذين تمّحي أسماؤهم اليوم أكثر فأكثر فأخلط بينها وأخطئ.

والتواريخ خلف الصور صارت أشبه برموز باتت بلا فائدة، كلّ هذه التواريخ المكتوبة بالحبر، بخطٍّ رفيع وجميل ومعتنى به، كما لو لم أكن أنا الذي خططتُها بل واحد سواي، ربّما نيكول بعد عودتي، أرادت أن تسمّيها وتنظّمها، لا أدري. إلّا أنّ الصور كانت تُظهر رجالاً في مقتبل العمر وأنا بينهم، وفي الثالثة فجراً كنتُ أراهم يبتسمون لي ويمازحونني، يلعبون الورق أو يقفون أمام الكاميرا بسراويلهم القصيرة، ونظّاراتهم الشمسيّة وهم عراة الصّدور. لا زلتُ أتذكّر الملابس التي كنّا نرتديها، أتذكّر كلّ شيء، أتذكّرنا وأتذكّر كلّ ما كنّا نقوله. ولكنّه شيء آخر، إنّها ابتسامات وفتيان صغار يلعبون، إنّهم هنا أمامي، وأجدهم هزيلين شديدي النحافة واللّامبالاة أيضاً؛ أصدقاء حميمون يقفون أمام الكاميرا وهم يضحكون ويمسكون بعضهم بأعناق بعض ويمزحون ويهرّجون كما لو كانوا في ملعب مدرسة.

وكان الخوف يعتصر بطونهم. ولكن أين هو هذا الخوف الذي كان يعتصر البطون؟ ليس ظاهراً في الصور.

لا تحكي أيّة صورة عن ذلك.

ما الذي يتبقّى إذن؟

أنا، كنتُ أقول لنفسي، أنا هنا، عمـري اثنتان وستّون، وهنا في هـذا الصالون، في حوالى الرابعة فجراً، أتفرّج على صورٍ دامع العينين مختنقاً أمنع نفسي من السقوط، كما لو كانت الابتسامات وفتوّة الشبّان في الصور طعنات خنجر، أو ما شابه، ما كنّاه وما فعلناه، لا أدري، أنا لا أعرف أكثر. وعبثاً عاودتُ التمعّن في الصّور لأرانا نحن الشبّان وقد التُقطت لنا صورٌ في وهران في المراقص، الميتيور وسواه، في لباس البحر على الشاطئ، وأنا أرتدي مِشملاً لا أدري من أيّة مادّة نُسج، وأحمل ما يشبه محفّة خشبيّة صغيرة، وفي الجهة الأخرى يقف شابّ، وفي المنتصف على اللّوح علبة كبيرة مثـل علبـة الأحذيـة ولكنّني أظنّها خشبيّة، يعلوهـا صليب طُليَ بالأسود.

بقيتُ هكذا أنظر طويلاً إلى تلك الصورة. أهذا هو الموت؟ علبة؟ هل كنّا نلعب؟ هل كنّا نمثّل؟ وتذكّرتُ ما كنّا نسمّيه «الأب مائة»، وذلك الطّقس الصغير الذي كنّا نمارسه احتفالاً ببداية العدّ العكسيّ.

سوف نرحل بعد مائة يوم.

بعد مائة يوم ينتهي كلّ شيء، كلّ شيء. وبين الصور الأخرى، صور يوم الرّحيل، وتلك الصورة المشوّشة حيث نبدو في الشاحنة، وتحت الشمـس والقبّعات والنظّارات الشمسية يمكـن رؤية الضحـك وأحد الشبّان يحمل لوحاً صغيراً مكتوباً عليه بالطبشور: «يحيا الصفّ!»، وشابّ آخر يرتدي حول عنقه قطعةً معدنية معلّقة بخيط. أذكر يديّ اللّتين ارتجفتا ولماذا احتجتُ فجأةً وأنا أرى الصور إلى تقليبها بسرعة كما لو كنتُ أختنق. نظرتُ إلى الصور كلّها مرّة ثمّ اثنتين ثمّ رغبتُ في النظر إلى البعض منها أكثر، ولكن لم يحدث شيء. إطلاقاً. اجتاحني فراغٌ كبير، شعورٌ بفراغٍ كبير، بتجوّف كبير. ومع ذلك حاولتُ أن أتذكّر. ومع ذلك كانت هناك روائح قشّ محروق وفي أذنيّ صراخ وفي أنفي رائحة الغبار وأمامي طرقٌ ونظراتٌ خائفة، ولكن أين كان ذلك؟ في أيّة صور؟ ولا واحدة، فقد كانت الصور بالغة الانهماك في تحريري من كلّ شيء، كالأشياء التي حملناها معنا، تلك الورود الرمليّة التي أجدها الآن شديدة السّخف كلّما فكّرتُ فيها، ولكنّنا احتفظنا بها هنا في مكانٍ ما في خزانة غرفة الطّعام، إلى جانب ذكريات العُطَل في إسبانيا وجزر الباليار.

أذكرُ الشعور بالخجل الذي كنتُ أحسّ به لمّا عدتُ من هناك، وعدنا كلّنا تباعاً باستثناء برنار - على الأقلّ وفّر على نفسـه ذلّ العودة إلى هنا وفِعْل مـا

فعلناه، أي الصـمت وعـرض الصـور على الآخَريـن، أجـل، الشّمس والمناظر الجميلة والبحر والملابس الفولكلوريّة ومناظر كأنّها من عطلةٍ أمضيناها لكي نحتفظ بقليلٍ من الشمس في ذاكرتنا، أمّا الحرب، فلا، ما من حرب، لم تقع حرب. وعبثاً عاودتُ النّظر إلى الصور وفتّشت عن صورة واحدة على الأقلّ، صورة واحدة كان يمكن أن تقول لي:

هذه هي الحرب، هذا ما تبدو عليه، إنّها تشبه المشاهد التي نراها على شاشة التلفاز أو في الصّحف لا هذه المخيّمات الصيفية ولا ذلك الحشد الذي يملأ شـوارع وهـران ولا المحلّات المفتوحة أو حركة السير في المدينة، ثمّ لماذا لم أجد على الجدران التي صوّرتُها نقشاً واحداً يقول «النصر للجزائر»، ولا أيّ جدار مطليّ ومجلوّ ومحكوك ومُعادٍ طلاؤه، ولا أيّ رسم على الحيطان، ولا أيّ سلاح، لا شيء، لا شيء إلّا هذا الفراغ وهذا الطقس الجميل بشكلٍ سافر بشمسه وسمائه الزرقاء.

صور البحر.

كلّ الشبّان على الجسر يدخّنون وينظرون إلى الأفق الضبابيّ البعيد، أو بالعكس، نراهم في اللّيل، في ضجيج الآلات والرياح، وعلى قسماتهم دهشة الفلّاح وهو يرى مراوح الحوّامات تبتعد عن المياه، كما لو أنّ السفينة ستطير وتُحدث بوقوعها جلبةً على الأرض القلقة والمتحرّكة.

على بعض الصور، لا يُرى الأفق بشكلٍ واضح ولا يمكن أن نحزر هل كانت تلك صور الوصول أم الرّحيل. الشيء الوحيد الذي أتذكّره هو أنّ المرّة الأولى التي رأيتُ فيها البحر كان ذلك في مرسيليا، كان الطقس بارداً وملبّداً وكنتُ أتهيّأ للإبحار إلى الجزائر.

الصّباح

استيقظتُ هلعاً، لم أعرف هل كان ذلك لأنّني لم أنم أم لأنّني سمعتُ ضجّةً في الرّواق.

جلستُ وتناولتُ الصور، هكذا، بملء يديّ، من دون عناية، لأعيدها إلى المغلّفات سريعاً وبلا ترتيب، ثمّ أرمي المغلّفات في علبة الأحذية. كما لو أنّني لم أشأ أن تراني نيكول. كما لو أنّني سأضطرّ لتبرير وجودي هنا وأنا أنظر إلى هذه الصور القديمة، وأقول وأعيد لا أدري ماذا. لذا نهضت واجتزتُ الصالون بسرعة لأذهب وأضع علبة الأحذية في المكان الذي أخذتها منه، في خزانة المدخل.

كانت نيكول هناك، أمامي.

أغلقتُ باب الخزانة ورأيتها تنتظر وهي تنظر إليّ، مئرزها مفتوح وكذلك عيناها - فكّرَتْ ولم تطرح أسئلة، شدّت مئرزها ووضعت يداً على المدفأة. أعلمُ أنّها كانت ترغب في أن تسألني لماذا لم أكن نائماً، إلّا أنّها نظرت إليّ مجدّداً وسألتني ما كنت أفعل هناك شاردَ الذّهن وبادياً عليّ الارتباك.

ثمّ، لربّما أرادت أيضاً أن تخبرني كم كانت الساعة، وأنّ الوقت باكر، باكرٌ جدّاً:

منذ متى أنت مستيقظ، عد إلى الفراش، تعالَ نَم، أنت محتاج إلى النوم، يجب أن ننهض بعد ساعة - ولكنّها لم تقل شيئاً.

سألتني فقط هل كنتُ أريد قهوتي فوراً. أجبتُها بأنّني كنتُ أستعدّ لتحضيرها وأنّه يمكنها أن تعود للنوم. ذلك أنّني كنتُ راغباً أيضاً في البقاء بمفردي، وأن أنتظر بَعد وأفكّر، ربّما، أو حتّى أكتفي بسماع وشيش القهوة في الآلة، أسمعها في البداية وهي تسيل ثمّ أسمع فرقعة المقاومة الكهربائيّة الحادّة، ثمّ أصبّ القهوة وأشمّ رائحتها وأشعر بحرارتها من خلال الفنجان وأشرب ببطء، بجرعات صغيرة، كما لو تهمّساً، كما عندما نمشي خطوةً خطوة، متقدّماً هكذا صوب النهار، بهدوء، ومستعيداً توازني بهدوء أيضاً.

بقيتُ وحدي في المطبخ أشرب قهوتي. وهنا تساءلتُ ماذا يمكن أن يحدث وكيف سأذهب إلى ساحة الكنيسة، أو ربّما أذهب في البداية إلى منزل

سولانج.

كنتُ عاجزاً عن النّظر أمامي وتخيُّل ما سأفعل ولو بشكل يسير.

ارتديتُ معطفي الصوف القديم، تناولتُ حذائي وقفّازَي ومشيتُ في الحقول ما يقرب من ساعة. تقدّمتُ هكذا في الأرض المجلّدة وفي البعيد رأيتُ السماء تنجلي والليل ينقشع ببطء، خيوطٌ زرقاء غامقة وزهريّة تتمدّد والسماء تصير شبه بيضاء في البعيد والغربان في الأشجار السّود. المنازل الجديدة الأولى. أعمدة الكهرباء على امتداد الطريق. رأيتُ هذا واستعذبتُ البرد واللهاث الأبيض الذي يخرج من الفم والأنف وأيضاً الصمت مثل صورةٍ على ورق لامع، صورة جامدة وباردة ولكنّها ليست حزينة - لم أكن حزيناً، كنتُ فقط قلقاً لا أعرف ما سأفعل بعد قليل.

وأيضاً كنتُ أقول لنفسي:

لا، ربّما لن أفعل شيئاً، سوف أنتظر في منزلي ولن أفعل شيئاً.

تساءلتُ لماذا أعاود، أنا، الآن، التفكير في برنار. به وحده دون سواه.

ثمّ اضطررتُ إلى الإقرار لنفسي بأنّ ما صرتُ أكرهه فيه لم يكن شخصه هو، ولا ما كان عليه عندما كان شابّاً، ولا أيّ شيء منه، ولكن فقط رؤيته كلّ يوم، في الشارع وفي الحياة وهو يجرّ في جسمه كلّه وفي حضوره وحتّى في الطريقة التي صار فيها ما هو عليه، قصّتنا نحن الاثنين. وما يزعجني هو أنّه أصبح ما كان يجب أن أصيره أنا أيضاً لو تمكّنتُ من عدم قبول الأشياء.

ولكن الآن، يمكنني البقاء في منزلي والجلوس والقول إنّني يجب أن أطرد كلّ هذه الصور وأجيب نيكول بنعم عندما أسمعها تسألني:

أتريد قهوة أخرى؟

نعم.

كان ينبغي ألّا أفكّر وأن أتناول مجدّداَ الفنجان الذي كنتُ وضعته في المجلى. وأراقب الماء ينساب من الحنفية ويملأ الفنجان. يملأه حتّى يفيض ويتدفّق منه مثل نافورة. ثمّ أغسل الفنجان وأشطفه وأدفئ يدي تحت الماء الساخن وأنشّف الفنجان وأناوله لنيكول. أمّا هي، فلم أنظر إليها ولكنّها كانت تعرف على الأرجح في ما كنت أفكّر.

ومع ذلك، هل أخبرتُها عن الأشياء هناك؟ هل عندما رجعتُ من هناك انتظرتُ طويلاً قبل أن أخبرها؟:

نيكول، تعرفين، نحن نبكي في اللّيل لأنّ صوراً فظيعة إلى درجة أنّنا نعجز عن الإقرار بها لأنفسنا قد دمغتنا ذات يومٍ بميسمها إلى الأبد.

جلستُ وشربتُ القهوة وعيناي غارقتان في الفنجان كي لا أرى ولأترك كثرة القهوة تحرّك معدتي، وفكّرتُ مجدّداً في النّمال التي كانت تدبّ على أيدينا عندما نكون في وضع الحراسة حاملين بنادقنا في الخارج، نرصد لا أدري ماذا، قرية أو مغارة أو أجمة أو دغلاً.

أتذكّر كم كانت تلك الحشرات تجنّننا. كنّا نراها في كلّ مكان، في الجدران وفي الرؤوس. وكنّا نصاب بالحكاك بسبب القذارة والحشرات ولكن أحياناً بسبب حبوب الرّمال لا أكثر.

بقيتُ حاملاً قهوتي وعاجزاً عن رفع رأسي أو حتّى سماع نيكول تتحرّك وتنهض وتجلس، كان يؤلمني سماع ضجيج الصحون وصوت خزانة المطبخ وهي تفتحها وتغلقها. أذكر أنّني كنتُ أرتعد لأدنى سبب. فأقول لنفسي:

إنّه التعب!

كان ذلك بسبب التّعب. فأنا لم أنم بما يكفي. هذا هو السبب لا الباحة المربّعة التي لا أزال أراها من فوق، من شرفةٍ مغلقة بينما صورة واحدة ثابتة في رأسي هي صورة الأرض المربّعة، بيضاء تميل إلى الصّفرة، وأحكي لنفسي أنّني في البداية أحببتُ بشدّة برودة المكان عندما عُهدت إليّ مهمّة حراسة المساجين. ثمّ،

الصراخ والبكاء والحشرجة. وساعات الصّمت الطويلة.

ثمّ...

ثمّ قدتُ سيّارتي على هذه الحال حتّى ساحة الكنيسة. وبالطبع لم يكن من أحد لا في الساحة ولا في الطريق.

لم أقابل أحداً في ذلك الوقت الباكر، وكانت الطريق لا تزال معتمة، وعندما توقّفتُ في الساحة لم أجرؤ على إطفاء محرّك السيّارة. بقيت هكذا، لا أدري كم من الوقت، نحو عشرين دقيقة، وفي لحظة معيّنة استمعتُ للأخبار في الراديو - حسناً، لم أستمع تماماً، بل تركتُ الأصوات تملأ السيّارة مثلما كان يملأها صوت جهاز التدفئة. فتحتُ الزّجاج وانحنيتُ فلفحني الهواء ببرودته الثلجية. سمعتُ رنين الأجراس. كانت الساعة السابعة والربع أو النصف، لم أكن أعرف، وكنتُ أقول لنفسي إنّهم سيصلون بعد قليل، أو ربّما لا، ليس بعد قليل، بل لاحقاً، بعد ساعةٍ أو ساعتين.

كنتُ أقول لنفسي إنّ من غير المجدي البقاء هناك والانتظار.

فكّرتُ أنّ باتو ستفتح حانتها بعد قليل ولمَ لا، يمكنني الذهاب إلى هناك وشرب قهوة أخرى. داعبت الفكرة خاطري، ومع ذلك لم أفكّر عندما أنزلت الكابح اليدويّ وأدرتُ السيّارة بهدوء. مع أنّني كان يمكن أن أخرج وأذهب مشياً إلى حانة باتو.

لا.

أعدتُ رفع الزّجاج وانطلقت وأنا أقود ببطء شديد.

لم أكن أعرف تماماً إلى أين أذهب.

ما فهمتُه في تلك اللّحظة هو أنّني قرّرتُ ألّا أرافق الدّرك إلى منزل برنار. وألّا أذهب كذلك لشرب القهوة ورؤية باتو وسماعها في هذا الوقت المبكّر من الصباح تقول لي:

قد يعتذر فلا يقيم آل شفراوي عليه دعوى، ربّما!

وربّما ليس لكلّ ذلك أيّة أهمية، أعني هذه القصّة، وربّما لا يمكن أن نفهم قصّة طالما لم نكتشف تلك التي تختبئ تحتها، تلك القصص التي تهمّ حقّاً، والتي تتراكم كالأشباح، أشباحنا، وتشكّل حجارة بيتٍ غريب نحبس أنفسنا فيها

بمفردنا، لكلٍّ بيته الخاصّ بنوافذ لا أدري كم عددها. وأنا، حينئذ، فكّرتُ أنّه يجب أن يتحرّك الواحد بأقلّ قدر ممكن طوال حياته حتّى لا يصنع لنفسه ماضياً، كما يفعل الناس كلّ يوم، فيصنع هذا الماضي بدوره حجارةً والحجارة جدراناً. وها نحن اليوم هنا ننظر إلى أنفسنا نطعن في السنّ ولا نفهم ما يفعل برنار هناك في منزله المتداعي برفقة كلابه العجزة وذاكرته الهرمة وكرهه البالغ العتَق هو الآخر بحيث لا ينفع معه أيّ كلام يمكن أن يقال له.

لن أذهب إلى حانة باتو ولا إلى منزل سولانج ولا عند أيٍّ كان ممّن يمكن أن تسوّل له نفسه أن يقول لي ويشرح ويحاول إقناعي.

لن يقولوا لي شيئاً لا أعرفه. أو أرغب في معرفته. شيء أرغب في سماعه مجدّداً، وانتظاره وعيشه من جديد، ربّما باستثناء أنّني سأرغب في معرفة السبب الذي يدفعنا إلى التقاط الصور ولماذا تجعلنا نعتقد أنّ بطوننا لا تؤلمنا وأنّنا ننام جيّداً.

الجزائر. وهران. 1961.

أراني مجدّداً. نظرتُ إلى الطاولة بجانبها، على رصيف المقهى حيث التقينا، إلى حقيبة يدها التي يتدلّى من سحّابها شريطان. أنا من أعطيتُ برنار عنوان ميراي، لأنّها كانت منهارة حقّاً ومرتبكة، تنهال عليّ بالاعتذارات، كما لو كان يمكن تفادي ذلك العراك وأنّها كانت السبب في كلّ ذلك. قلت لها لا، أنّى لكِ أن تعرفي؟

ولكن لو أنّني جئتُ، قالت.

أجل. لو جئتِ.

واستمرّت على هذه الشاكلة. كانت قلقةً جدّاً، تريد أن ترى برنار وتشرح له لماذا لم تأتِ ذلك اليوم - بسبب والدها. كان قد وجد شتلات الدّوالي في كرمه مقتلعة. والدها الذي لعن الجيش الفرنسيّ لأنّه عجز عن حمايته. هذا كلّ ما في الأمر. لعن أيضاً كلّ المجنّدين، حيلة ديغول تلك لتفادي الانقلاب. هذا ما رواه والدها. والفتيات الأخريات لم يحضرن بدورهنّ بسببها، فقد اتّصلت بهنّ وقرّرن ألّا يخرجن من دونها.

ما كانت تعرفه بالمقابل هو كيف كانت ترى العالم من حولها ينهار شيئاً فشيئاً، والصداقات أيضاً، والأصدقاء الذين ما عادوا يكلّمونها. كانت تتحدّث عن فيليبير قائلةً إنّه خائن، أتذكّر حتّى أنّها قالت ذلك وفي صوتها قدر من الغضب جعل صوتها يبدو أكثر جهوريّة، أشبه بصوت رجل. ثمّ أعادت وضع نظّارتيها لتختفي خلفهما وتتابع الحديث عن فيليبير ورفاقه الإسبان:

كلّهم شيوعيّون، كلّهم يوافقون الإرهابيّين، يدعمونهم ويدعمون الاستقلال، واليوم يقولون إنّه بسبب أشخاص مثل والدي سيصير كلّ من يُدعَون الأقدام السوداء مكروهين في كلّ مكان، في كلّ العالم، لا أحد سيرضى بنا، وسنخسر ما نملكه هنا ونُطرد من بيوتنا، وفي فرنسا سيُنظر إلينا باحتقار وكره، هذا ما يقوله فيليبير، يتحدّث عن التاريخ ويدّعي أنّنا سنكون مخطئين لأنّنا آثرنا أن نستمرّ بالعيش في زمنٍ آخر، أنانيّين وعميان، وعندما أخبرتُ والدي بهذا منعني من رؤيته مجدّداً. ولكنّني لم أكن راغبة في رؤيته من جديد. لا هو ولا الإسبان، ولا أيّ منهم، قالت.

قدتُ السيّارة باتّجاه المينيي ثمّ استمررتُ بالتقدّم باتّجاه موقع «صليب النساء الميتات» ومن ذلك المكان المرتفع نظرتُ إلى القرى في الأسفل وإلى الثلج والحقول الجامدة. كنتُ ببساطة أتذكّر ميراي وكيف عدتُ والتقيتُ بها بضع مرّات لا سيّما تلك المرّة في حيّ شوبو سنة 1962، ولكن سرعان ما انتهى كلّ شيء، كان ذلك على الأرجح في الحانة التي التقينا فيها أوّل مرّة.

وهذه المرّة أيضاً كانت بمفردها.

رأيتها تشرب القهوة، شاحبة اللّون ويداها ترتجفان وهي تدخّن السيجارة تلو السيجارة. ثمّ أفضت بكلّ شيء مرّة واحدة، لي أنا، أوّل شخص تراه، عسكريّ لا تكاد تعرف عنه شيئاً، وكان عليها حتّى التعالي عليه وكرهه لأنّني السّبب في أنّها لم تعد ترى برنار. لا، لم تكن تكرهني. ولا كانت تحبّني. كانت تحتاج فقط إلى أن تحكي. أن تحكي إلى واحدٍ ربّما كان يعرف برنار، وأنا كنتُ ابن عمّه الذي أعطاها عنوانه، فروت لي - في البداية لم تشأ أن ترفع نظارتيها ولم تفعل ذلك إلّا بعد إلحاح منّي لكي تريني، نعم، لكي أرى:

إنّه يُجنّ، قالت، أبي يصير مجنوناً،

ثمّ خفضت بصرها شاعرةً بالعار وشاحبة وراحت تنظر إلى فنجانها وتروي كيف جنّ جنون والدها لأنّه عثر على رسائل برنار لها وفهمَ وهو يقرأها كلّ

شيء، نعم، فهمَ ما كانا يريدانه هما الاثنان، أي الذهاب إلى باريس والزواج والعمل هناك وإنجاب أطفال. صرخ الوالد وصفع ابنته - لا، لم يصفعها، فما رأيته لم يكن مجرّد أثر صفعة، ومع ذلك فتلك كانت الكلمة التي استخدمتها:

صفعني.

لم تصرخ. تركته يضربها لأنّها كانت تعرف أنْ ليس لديها ما تجيب به على صراخه:

لن ترحلي، كان يصيح، من يرحلون خونة، والخونة يستحقّون القتل، هذا كلّ شيء، الجيش جمعُ بُلَهاء، جنود ديغول الذين يتركون الآخرين ينهبون ويجتاحون ويقتلون، وأراضينا وبيوتنا وكلّ ما نملك، لا، لن ينالوا منها شيئاً، وأنتِ لن تتحرّكي من هنا.

أخبرتني بكلّ ذلك، بأنّها لم تصرخ ولم تتحرّك بينما كان والدها يضربها. تمكّنت من كبت دموعها. كانت فخورة، حتّى في تلك اللّحظة، وأبيّة وهي تخبرني بأنّها تحمّلت الضّرب بلا اعتراض لأنّها كانت تحترم والدها.

وكانت تبتسم. لا زلتُ أذكر أنّها كانت تبتسم.

لا زلتُ أذكر أيضاً أنّني تساءلت هل كانت تلك الابتسامة هي أكثر ما يزعج في كلّ الموضوع، أكثر من آثار الضّرب والكدمات البنفسجيّة حول عينها، أكثر من تلك الحقيبة إلى جانبها التي قالت إنّها حضّرتها هذا الصباح.

وعلى الطريق فكّرتُ أنّ برنار لم يعاود الحديث عنها ولا مرّة، ليذكر كيف عاشا سويّة في محيط باريس، أو كيف أنّ أيّ شيء لم يعد مفاجئاً، أو يديها الناعمتين اللّتين لم تُخلقا للعمل. لم تكن البتّة تصدّق نهاية الجزائر الفرنسيّة. كانت تحيا في حلمها ولم تصدّق قطّ أنّها ستُلفي نفسها هي أيضاً مرغمة على الرّحيل مثل الآخرين، دون أمل بالعودة.

ومع ذلك، هذا ما حصل. لا عندما رأيتُها، هناك، مع حقيبتها ولكن بعد بضعة أسابيع. وهنا، لم يكن الأمر مشابهاً، كان كلّ شيء قد انتهى، أذكر أنّ كلّ شيء انتهى فجأةً، وُقّعت اتّفاقيّة إيفيان [18] بعيداً جدّاً عن أماكن تواجدنا، وكان كلّ شيء يتناهى إلينا، صرخات الفرح والزغاريد وزمامير السيّارات ووهران التي انتابها جنون يستحيل وصفه أو التعبير عنه. أذكر كيف كنّا، نحن، نجول في

المدينة وكيف لم تعد المدينة فجأةً هي نفسها، وكلّ أولئك الناس الذين، فجأةً أمامنا، بلا خوف، أخيراً بلا خوف، أطلقوا العنان لفرحٍ كان محبوساً في قلوبهم ولم يعد يردعه شيء، شعبٌ بكامله واقفٌ وهائمٌ بالحريّة، فجأةً، كما لو كنّا عندما ننظر إليهم نجدنا أمامَ ما شعر به أهلنا قبل أقلّ من عشرين سنة، عندما خرج الألمان من فرنسا، تلك السعادة، الفرح الجماعيّ ذاك، السعادة الغامرة التي تقدر الحشود على التعبير عنها عندما تفيض وتتخطّى ذاتها، لا زلت أذكر هذا، المشاعر الدفّاقة، البالغة الجمال، التي عبّر عنها الجزائريّون.

وفي هذه اللّحظة تحديداً انزلقت السيّارة.

قليلاً. على قطعة جليد، طبقة من الثّلج مجلّدة. كنتُ أقود بسرعة قليلاً، متّخذاً أقصى اليمين. انزلقت السيّارة. شعرتُ أنّها تنزلق - ولكن بهدوء، ببطء، فكّرتُ ألّا أضغط على الفرامل، بل خفّفتُ السرعة، وتركتُ السيّارة تنزلق.

ثمّ انزلقت في خندق.

حصل ذلك بهدوء وبلا عنف. انزلقت السيّارة إلى اليمين بالكامل، بكلّ جهتها اليمنى. لم يكن الخندق عميقاً جدّاً، ولكن فقط بما يكفي لكي أعجز عن إخراج السيّارة بمفردي. ففتحتُ الباب وحاولتُ الخروج من السيّارة، لكنّني لم أنجح. أو لم أحاول بما يكفي، لا أدري. سيبقى الطّريق مقفراً لساعة أو ساعتين وربّما أكثر، فاليوم يومُ أحد والوقت مبكّر جدّاً، وقلتُ لنفسي إنّ أحداً لن يمرّ من هنا قبل وقت طويل.

أغلقتُ الباب ونظرتُ عن يساري إلى الحرج الذي تغطّي ظلال أشجاره القريبة جزءاً من الطريق. من الجهة الأخرى، إلى اليمين، تمتدّ الحقول. أي فقط مساحة من الثلج تمتدّ بعيداً جدّاً، شاسعة جدّاً حتّى المنخفض حيث تقوم إحدى المزارع. ولكن بعيداً جدّاً. الصمت في كلّ مكان. لا يخترقه إلّا نعيق الغربان في الأشجار وصرير الأغصان الرطبة عندما يحفّ بعضها بعضاً.

وأنا في السيّارة.

تركتُ المحرّك دائراً ببطء لأحصل على بعض التدفئة. ثمّ أطفأت المحرّك. وأتذكّرني، والطريق الصغير المعبّد يمتدّ أمامي بشكل مستقيم لا يقطعه شيء، لا شيء، ولا شيء كذلك إلّا ما يتصاعد في داخلي وتلك الرغبة، ذلك

الفيض - يدا ميراي الشديدتا الهشاشة، هي التي لم يكن لديها أدنى فكرة عمّـا يعنيه أن تكسب قُوتها وهي تنظّف المنازل أو تشتغل بالخياطة، هي التي لم يكن لديها أدنى فكرة عمّـا ستكون عليه الحياة مع برنار، هناك، هو الذي لن ينجح في أن يكون له مرآبه الخاصّ، أبداً، والذي سيعمل في رونو، عاملاً يدويّاً في طاقم، مثل الجميع في المصنع، وستدور حياته حول وتيرة الإنتاج والدوام والمترو، تلك الحياة التي لم تكن لدى ميراي أدنى فكرة عنها حيث لا عهد الشّباب ولا حفلات الأولمبيا ولا أغاني بيكو ولا ضفاف السّين، خلا بعض صباحات الأحد، من وقتٍ لآخَر، كلّ هذا لن يكون بانتظارها إلّا كافتقادٍ كبير، كحلمٍ مُجهَض ستحمله طوال حياتها مثل حِداد، كما ستصف ذلك على الأرجح لوالديها في رسائل طويلة تعبّر فيها عن أسفها واعتذارها لكنّ والدها لن يفتحها أبداً.

وستحقد على برنار، ستجعل منه المذنب إذ يجب أن يكون هناك مذنب.

شككتُ بالأمر منذ البداية، منذ رأيتُها تنتظر منه كلّ شيء، والكثير من كلّ شيء. رأيتُها تنتظر كلّ شيء ولا تفهم أنّ الحياة لن تكون بعد اليوم سهلةً بالنسبة إليها، كما لم تفهم اليوم الذي رأت فيه والدها يحمل السّلاح ويقف خلف نافذته مترصّداً ومتأهّباً لإطلاق النار على كلّ من يقترب. رأت ذلك، رأت عالماً يتخلخل ويسقط، عالماً كانت تظنّ أنّه أبديّ ومتين، رأته يغرق ذات ربيع، رأت رجالاً يدفعون سيّارات من نوع دوفين أو آروند، هكذا، جيرانٌ يتعاونون لدفع السيّارة التي بقوا طيلة سنوات يسدّدون ثمنها فإذا بها تقع من الدرابزين كالخردة مُحدثةً ضجيجاً مثل ورقة ملبّس نجعّدها ونرميها، ولن يتركوا شيئاً، لن يتركوا شيئاً لأحد، كان يمكن رؤية ذلك على كلّ الوجوه، لن يتركوا للآخَرين شيئاً، ورأت نساءً وفتيات صغيرات وشبّاناً يبكون ويعتقدون أنّهم سيموتون هناك، متروكين لمصيرهم، وحدهم، بينما حولهم جيران وأعمام كانوا هم الرّجال ولم يكونوا يريدون أن يتركوا شيئاً، كانوا ينهالون بالفؤوس على الأثاث، أثاث العائلة القديم كان يُرمى من النوافذ، ومن الشقّق كانت تنبعث روائح حريق، كانوا يحرقون الأثاث في الباحات وفي الحدائق، يكسرون الأواني، كلّ شيء، لن يبقى إلّا وجوه تائهة وملامح محطّمة على أطراف الطرقات وأرصفة المحطّات والمطار، وفجأةً طرقات بكاملها تسير عليها شاحنات صغيرة تنوء بحملها ورجال واقفون على مساند الأقدام لتثبيت الكراسي والطاولات، السجائر مشتعلة في أفواههم، عمّـال، وجوه كنّا نراها كلّ يوم، طوال سنوات، سيرحلون اليوم ويختفون، نقول لأنفسنا إنّهم لن يرجعوا إلى هنا أبداً، وفي فرنسا سيرونهم قادمين، هم المعمّرين، هؤلاء الذين سارعوا قبل أن يرحلوا ليبيعوا بأبخس الأثمان مخازن تجارية تخلّوا عنها بغضب وحزن، حياتهم كلّها وأجساد أجدادهم التي ستتعفّن في قبور لن يروها بعد

اليوم ستعيث فيها الأعشاب خراباً - لا زلتُ أذكر ذلك الفرح الجماهيريّ مثلما أذكر القنّاصين المنفردين، في البنايات أو على سطوحها، رجالٌ يطلقون النار ويظنّون أنّهم قادرون على مناوأة الجميع والاستمرار هكذا في حين أنّ كلّ شيء قد انتهى، وفي النهاية كان إطلاق النار يأتي من الأحياء الراقية، طلقاتٌ كانت تغطّيها أصوات الزغاريد، والنساء والأطفال في الشارع، والأعلام التي رأيناها فجأة تُرفع كما لو أنّها تظهر من العدم، ذلك العلم الجزائريّ الذي لم تكن ميراي تعلم حتّى بوجوده والذي رأته عندما وجدت نفسها وحدها على الطريق، أعرف ذلك، فقد رأيتُها بعد ذلك، في المرفأ، كانت في المرفأ وكنّا نحن هناك ننظر إلى السّفن والناس الذين يجب أن ندلّهم على الطريق ونساعدهم، الناس الذين كانوا يبكون، الناس الذين كانوا يتقدّمون، مباشرةً إلى الأمام، دون أن يلتفتوا خلفهم، الناس الذين كانوا يتعاركون فيما بينهم لأتفه الأسباب، والذين كان علينا نحن العسكريّين أن نفصلهم بعضاً عن بعض لأنّ شخصاً ما دفع آخَر أو كاد يدفعه، وفي لحظة صار الاثنان على استعداد لأن يتقاتلا، النساء يحملن الأطفال والأطفال يحملون الدمى والدمى بنظراتها الفارغة الزرقاء كزرقة السماء، السماء الداكنة والبحر لحسن الحظّ هادئ والسّفن التي كانت تنطلق وكنّا نراها تترك ثلماً من الزبد كريه الرائحة، وأعناق مصرّة على ألّا تلتفت صوب ما تركتْه، مباشرةً إلى الأمام، فلننظر إلى ما سنصيره، كلّ ما سنصيره، هذه كانت وسيلتهم للنّجاة، دون أن يفهموا، حقائبهم في أيديهم وآخرون يماطلون لتأخير لحظة الرحيل، وآخرون يضحكون، رأيتُ بعضهم يضحكون، يقومون بإيماءات مبالَغ بها ليرسلوا التحايا وهم يدخّنون ويتصرّفون كالمهرّجين ليطردوا الخوف من الغد كما لو كان نكتة تلميذ في المتوسّطة، وأيضاً، إذ يجب الاعتراف بذلك وقوله، وجوه الآخرين أولئك الذين لا نرغب في التحدّث عنهم، مثل ذلك الملازم الذي رأيته يبكي لأنّه لم يكن قادراً على أن يجيبهم، أن يقول لهم: إنّنا سنترككم، سنتخلّى عنكم، ما كانوا ليصدّقوه، لم يكن أيّ منهم ليصدّقه، فقد وعدهم الجيش ووعدتهم فرنسا ووعدهم الجميع ولكنّ أحداً منهم لم يفِ بوعده، وأنا أذكر وآخرون يذكرون وكلّنا نذكر الحركيّين الذي أُرغِمنا على إنزالهم من الشّاحنات المنطلقة، والضرب بأعقاب البنادق الذي كانوا يتلقّونه لكي لا يصعدوا في الشّاحنات، وصراخهم وذهولهم وعدم التصديق الذي يعلو وجوههم، ما كانوا يصدّقون، ولا نحن كنّا نصدّق ولكنّنا كنّا نقوم بذلك، نضربهم بأعقاب البنادق على أيديهم كي لا يصعدوا، نتركهم يصرخون ويصيحون ويبكون، تركناهم لأنّنا تخلّينا عنهم وخنّاهم وكنّا نعرف ما الذي سيحصل، سيحصل لهم، بالآلاف، لإيدير كما لسواه، إيدير وسواه، وجهه الذي يمّحي في موت الآخَرين، كلّ الآخَرين، أعرف تماماً لأنّني رأيتُ هذا أنا، رأيتُ أيضاً كيف أُرغموا على شرب البنزين وكيف أُشعِلت بهم النار والأجساد التي احترقت بهذه الشاكلة - مات إيدير وأنا لم أقم سوى بالنظر إلى كلّ هذا متسائلاً ماذا أرى وهل أرى وأسمع رجالاً

خنّاهم والعلم الجزائريّ والزغاريد ومجانين منظّمة الجيش السرّيّ [19] الذين كانوا يجولون في الشوارع ويطلقون النار على كلّ الأوروبيين الذين يريدون الرحيل، وعلى الجدران اسم منظمة الجيش السريّ، في كلّ مكان، والمزيد من التفجيرات، حتّى النهاية، زجاجٌ يتساقط وأجسادٌ تهوي في الظلام وكلاب تعبر الأرصفة من أجل قطعة لحم في حاوية نفايات، وحاوية النفايات التي تنقلب، ونحن الذين كنّا لا نزال هناك بضعة أسابيع بعد، كنّا ننتظر أن ينتهي كلّ هذا لنعود، لنترك الجزائر ونقول: انتهى!

و...

بقيتُ هكذا في السيّارة. وفجأةً شعرتُ بالسّعادة لكون السيّارة مُحاصَرة بالثلج وبأنّني بتّ عاجزاً تماماً عن الحركة. فكّرتُ أنّه يجب أن أنتظر هكذا، أنّ من الجيّد أيضاً، للحظة، أن يكفّ كلّ شيء عن الحركة ويبقى كما لو كان واقفاً على خيط. في لحظةٍ استمعتُ قليلاً إلى الراديو ثمّ صمتَ كلّ شيء. فكّرتُ مرّة أخرى في برنار وشفراوي. فكّرتُ في سولانج، لا بدّ أنها برفقة الدّرك في هذه الأثناء.

للمرّة الأولى قلتُ في نفسي إنّني أرغب في العودة إلى هناك، وإنّني أريد أن أرى هل ثمّة مزارع مع باحات مربّعة وشبه بيضاء وهل ثمّة أطفالٌ يلعبون الكرة حفاة الأقدام. أريد أن أرى هل الجزائر موجودة وهل أنا أيضاً قد تركتُ هناك شيئاً آخر عدا شبابي. أريد أن أرى، لا أدري. أريد أن أرى هل السماء شديدة الزرقة كما في ذكرياتي. هل لا يزالون يتناولون صحون «الكَمْية» [20]. أريد أن أرى شيئاً لا وجود له نتركه يعيش فينا مثل حلم، مثل عالمٍ نابضٍ ورنّان، أريد، لا أدري، لم أدرِ يوماً، لكنّ ما أريده هنا، في السيّارة، هو ألّا أعود أسمع الصّراخ ودويّ المدافع، ألّا أعود أميّز رائحة الأجساد المتفحّمة أو رائحة الموت - أريد أن أعرف هل يمكن أن نبدأ بالعيش عندما نعرف أنّ الأوان قد فات.

1. لا يضع الكاتب في العادة علامات الحوار (-) وينبغي أن يعتاد القارئ ذلك. (الحواشي القليلة في هذه الترجمة هي من إعداد المُراجِع). ↑

2. لأسبابٍ يشرحها السّارد في الأسطر التالية، تحمل كلمة «الأستاذ» هنا لمسة سخريةٍ واضحة. والمفردة التي استخدمها المؤلّف هي bachelier وتعني حرفيّاً «حامل شهادة البكالوريا». ↑

3. تُطلق تسمية «الأقدام السود» Pieds-noirs على المستوطنين الفرنسيّين وغيرهم من الأوروبيّين الذين ولدوا في الجزائر أو عاشوا فيها. وتُرجِع المعاجم التاريخية التسمية إلى لون أحذية الجنود الفرنسيّين الذين دخلوا الجزائر للمرّة الأولى عام 1830، والتي كانت سوداء، لكن يربط آخرون هذا الاسم بالمزارعين من المستوطنين الذين كانوا يعصرون العنب بأقدام حافية لإنتاج العصير والخمور. ↥

4. كتب المؤلّف Bled، وقد استعارت الفرنسية هذه المفردة من العربية «بلاد»، وتدلّ فيها على بلد، وكذلك على إقليم أو قرية، كما تعني المحلّ الاصليّ ومسقط الرأس. وفي السياق الحاليّ تشير طبعاً إلى الجزائر. ↥

5. تعريب عاميّ للتسمية الفرنسيّة التحبّبيّة «بوبول» Boubloule وهي تُعطى لصبيّ طيّب سمين إلى حدّ ما. ↥

6. هكذا كان يُسمّى في الجزائر المستعمَرة المستوطنون الفرنسيّون. ↥

7. المساكن المخفّضة الإيجار هي مساكن تديرها الدولة أو إحدى مؤسّسات العون الاجتماعيّ، وتؤجَّر مبدئياً لأسَر محدودة الموارد. ↥

8. إشارة إلى معركة قامت في منطقة فيردان Verdun الفرنسية في إقليم اللّورين Lorraine وحملت اسمها وامتدّت من 21 فبراير إلى 18 ديسمبر 1916. تمكّن الفرنسيّون فيها من صدّ الاجتياح الالمانيّ، وهي من أطول معارك الحرب العالمية الأولى وأفظعها إذ وقع فيها سبعمائة ألف قتيل فرنسيّ وألمانيّ. ↥

9. جمع «رتيب»، وهو كلّ صاحب رتبة في الجيش. ↥

10. أُطلقت تسمية الحركيّين Harkis على أعضاء «الحركات»، وهي مجموعات مسلّحة جزائريّة انضوى أفرادها تحت لواء الجيش الفرنسيّ، إمّا إكراهاً أو طوعاً، أثناء ثورة التحرير الجزائريّة. ولئن ارتبط نشاط هؤلاء بالخيانة في أذهان الجزائريّين، فإنّ الدولة الفرنسية عُدّتْ جاحدة بحقّهم أو خائنة لهم إذ تنكّرت لهم ولم تقدّم لهم أيّ عون بعد استقلال الجزائر. ↥

11. الفّلاقة (بالفرنسية، التي تبنّت المفردة العربية في نطقها العاميّ: Fellaga) تسمية أُطلقت على المقاتلين الجزائريّين والمغاربة والتونسيّين الذين جابهوا القوّات الفرنسية بين 1952 و1962 سعياً إلى تحرير بلدانهم من الاستعمار الفرنسيّ. ↥

12. إشارة إلى مجزرة ارتكبها جنود ألمانيا النازية في قرية أورادور سور غلان Oradour-sur-Glane الفرنسية في العاشر من يونيو 1944 وأوقعوا فيها 642 ضحيّة. ↑

13. نذكّر بأنّ إليان هي خطيبة فيفرييه، تنتظره في فرنسا، وهذا ما يريد برنار تذكيره به. ↑

14. الفرقة الأجنبيّة Légion étrangère، ويسمّى الواحد من أفرادها: légionnaire هي فرقة تابعة للجيش الفرنسيّ، أنشئت في 1831 للسماح لمتطوّعين أجانب بالانخراط فيه، ولا تزال قائمة حتّى يومنا. ↑

15. كتبها بالإيطالية، وتعني: «وداعاً أيّها الوسيم». ↑

16. المتكلّم هنا هو فيفرييه، يروي عنه السّارد الأساسيّ، رابو، الذي بقي آنئذ في المدينة يعالج آثار شجاره مع برنار. ↑

17. الإشارة هنا إلى المستعمرات الفرنسية السابقة في شبه جزيرة الهند الصينيّة (جنوب-شرق آسيا)، التي تضمّ بلداناً عديدة منها فيتنام وكمبوديا وتايلند. ↑

18. هي الاتفاقية التي وقّع عليها ممثّلو الدولة الفرنسية والحكومة الجزائرية المؤقّتة وقد اجتمعوا في إيفيان Évian (اسمها الكامل إيفيان ليه بان Évian-Les-Bains) بفرنسا في 18 مارس 1962 وبموجبها تمّ إيقاف الحرب بين البلدين وإعلان استقلال الجزائر. ↑

19. منظّمة الجيش السرّي organisation de Íarmée secrète (ومختصرها: OAS) هي منظّمة سياسية وعسكريّة فرنسيّة سرّية أنشئت في 11 فبراير 1961 للدفاع عن الحضور الفرنسيّ في الجزائر ومعارضة استقلالها ومارست أعمالاً تخريبية وإرهابية في الجزائر وفرنسا. ↑

20. هكذا هي في النطق العاميّ في الجزائر وتونس، والمفردة آتية من الفصحى «كميّة»، وهي تُطلَق على صحون مقبّلات صغيرة ترافق الشّراب، فهي تقابل «المازّة» المعروفة في المشرق العربيّ. ↑

Table of Contents

Start